

البئر الأولى



دار الآداب



جبرا إبراهيم جبرا

جبرا إبراهيم جبرا

البئر الأولى

فصول من سيرة ذاتية



دار الآداب - بيروت

البئر الأولى

فصول من سيرة ذاتية

البئر الأولى/فصول من سيرة ذاتية
جبرا إبراهيم جبرا/مؤلف فلسطيني
الطبعة الأولى لدى دار الآداب عام 2009
ISBN 978-9953-89-108-8

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

إلى

الذين لقنوني سحر الكلمة
فملأت بئري من عذب مياههم

جبرا إبراهيم جبرا

في المستهل :
لماذا سيرة الطفولة هذه ؟

أردت في البدء أن أكتب سيرة ذاتية كاملة ، لا سيما بعد أن طالبت أدباء جيلي أكثر من مرة بكتابة مذكراتهم ، وتسجيل تجربة التغيير ، والنمو ، والصراع ، التي تجعل لحياتهم ، وحياة كل منا ، بل للحياة في عصرنا كله ، مذاقها وبعض معناها .

ولكنني أدركت أنني إذا أردت الدقة والتفصيل ، يجب عليّ أن أعود إلى عدد ضخم من المدوّنات ، وبخاصة الرسائل التي كتبتها ، وتلك التي تسلمتها ، في سني حياتي . وهي بالآلاف ، وبالعربية والإنكليزية ، وفي أقطار عديدة . فاكتشفت عندها عسر المهمة ، لاستحالة العودة إلى معظم تلك الرسائل – وليس في حوزتي إلاّ بعضها . وأدركت أنني بدون هذه الرسائل سأضطر إلى الاعتماد فيما أقول على الذاكرة فحسب ، بكل ثغراتها وخلخلاتها واضطرابها .

فقررت أن أكتب عن السنين الأولى فقط من حياتي : ابتداءً من طفولتي ، بأبعد ما تسعفني الذاكرة منها ، إلى أن انتهيت من دراستي في إنكلترا ، وعدت إلى القدس مليئاً بالأفكار ومحموماً بها ، وممزّقاً بين ضروب متناقضة من الوعي ،

في مطلع سنتي الرابعة والعشرين .

ثم شعرت أن سنوات دراستي في أكستر ، وكمبردج (وبعض الوقت في أكسفورد) ، تحتاج وحدها إلى مجلّد خاص ، إن أنا أردت الصدق مع نفسي والتعمق في تجربتي . فقلت : إذن أكتب أولاً عن حياتي حتى سن التاسعة عشرة ، وهي السن التي حالما تخطيتها - بأسبوعين اثنين أو أقل - غادرت القدس طلباً للدراسة الجامعية في انكلترا . فهي خاتمة مرحلة ، وبداية أخرى ، ومهما يكن من أمر ، فإن سني حياتي الأولى تلك تزدحم بتجارب وأحداث شخصية لا بد من متابعتها واستيضاحها . والكتابة عنها ستكون شيئاً مثيراً ، ولو صعباً ، وقد تسهّل عليّ الدخول في سرد المرحلة اللاحقة .

ولكن حالما بدأت أكتب عن أولى ذكرياتي الطفولية ، وجدت أن عليّ أن أختصر كثيراً ، وأحذف كثيراً وأهمل الكثير ، وإلاّ فإنني لن أنتهي . وأدركت مرة أخرى أن الفترة التي طالبت نفسي بالكتابة عنها أطول مما ينبغي ، كمسألة أساسية . لأن الطفولة شيء ، والمراهقة شيء آخر ، ورغم أن المراهقة امتداد بتجارب الطفولة من حيث الجوهر - من حيث الرؤية المتنامية للحياة - فقد كان في فترة المراهقة من الغنى ، والتشعّب ، واللذة ، والألم ، والحب ، والصداقات ، ما لن أفي بعض حقه إلا بمجلّد منفرد . فقررت أخيراً الاكتفاء بالسنين الاثنتي عشرة الأولى من حياتي - أو بالأحرى بسبع أو ثماني سنوات منها - منتهياً بانتقالي مع والديّ من بيت لحم إلى القدس عام ١٩٣٢ . وكان هذا حدثاً حاسماً بالنسبة لما جرى لي فيما بعد .

وعندما أخذت أراجع نفسي بشأن أحداث هذه الطفولة ، وجدت أنني ، عبر أكثر من أربعين سنة من الكتابة ، استعرت العديد منها في مقالاتي وقصصي القصيرة ، وبخاصة في رواياتي . فهل أتناول بعض ما كتبته هناك كأجزاء إيضاحية أو قصصية ، وأعيد كتابته في سياق جديد ، كترجمة ذاتية صرف؟ لا . لن أفعل ذلك . ولأترك على حاله ما صغتُه من طفولتي قصصاً وأحداثاً روائية ، وللدارسين أن يستخلصوه ويفهموه كيفما شاؤوا . ولأتناول ما لم أدخله في

صياغاتي تلك ، وهو ليس بالقليل .

أذكر أنني كنت يوماً في مقهى في القدس ، بُعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية (عام ١٩٤٥) . فتعرّفت بسيّدة جذابة وذكية اسمها هايدي لويد ، قالت إنها نحّاتة وتدرّس النحت في بغداد ، وزوجها سيتون لويد آثاري مشهور ، وكنت يومئذ رئيساً لنادي الفنون ، ومدرّساً للأدب الانكليزي في الكلية الرشيدية ، وأكتب الشعر بالإنكليزية وأنشره ، ويظهر أنها قرأت بعضه ، ولكن ظروفي المعيشية كانت قاسية ، وأرفض أن أعلم أحداً بتفاصيلها .

وقد فاجأتني ، حين جاءت قهوتنا ، إذ قالت بشيء من الإغراء : «حدثني عن حياتك! يقولون إنك عشت وما زلت تعيش حياة مثيرة .»

ضحكت عندها ، وقلت : «حياة مثيرة؟ أنا لست بطل الأبطال ، إن كنت لا تعلمين» .

قالت : «لا ، لا . . . أنا أعني ذلك النوع من الحياة . ولكن تجربتك الفيزيائية ، النفسية ، الذهنية ، علاقاتك العاطفية . . .»

وبلمح البصر ، عاودني خليط من أحداث طفولتي ومراهقتي وسنواتي في إنكلترا بتداخل وتسارع عجيبين .

قلت : «إذا كان هذا ما تقصدين ، فسأفعل ولكن ليس الآن ، لأن القصة طويلة ، طويلة جداً .»

قالت : «إذن أنتظر أن أقرأ سيرتك الذاتية يوماً ما؟»

قلت : «أخشى أن يطول انتظارك . . . والآن حدثيني عن نحتك ، وحدثيني عن بغداد .»

وإذا كنت في أول الشباب قد شعرت أن القصة طويلة ، طويلة جداً ، فماذا أقول الآن ، وقد طالت القصة أربعين سنة أخرى؟ ولقد طال انتظار السيدة الفنانة ، التي لم أرها مرة ثانية ، حتى بعد مجيئي إلى بغداد بعد ذلك بسنوات ثلاث . هل أقول إنها أول من زرع البذرة في ذهني بضرورة التحدث عن حياتي بشكل من الأشكال؟

أنا لا أكتب هنا تاريخاً لتلك الفترة . ثمة من هم أعلم ، وأجدر ، وأبرع مني في سلسلة ووصف أحداث العشرينات وأوائل الثلاثينات في فلسطين . ولا أنا أكتب هنا تاريخاً لأسرتي ، لأن ذلك شأن آخر ، ولا أزعم أن لديّ القدرة عليه . ولا أنا أكتب تحليلاً اجتماعياً لبلدة فلسطينية كانت يومئذ صغيرة ، لا يتعدى سكانها خمسة آلاف نسمة ، إن لم يقلّوا عن ذلك ، ولا تتعدى مدارسها الطور الابتدائي من التعليم الذي تتحكّم بمعظمه الأديرة والكنائس ، وهي اليوم مدينة ذات شأن اقتصادي وسياسي ، يقارب سكانها مئة ألف نسمة ، وفيها مدارس عديدة ، وفيها جامعة يتخرّج منها سنوياً عشرات الطلبة .

إن ما أكتبه هنا شخصيّ بحت ، وطفوليّ بحت . ومقتربي يتركز على الذات إذ يتزايد انتباهها ، ويتصاعد إدراكها ، ويعمق حسّها ، ولا تنتهي بالضرورة حيرتها . ولئلا أنزلق إلى التاريخ العائلي بتفرّعاته (وفي ذلك ما فيه من الإغراء) ، آثرت الاستمرار باستقصاء كينونة واحدة تتنامى مع الأيام وعياً ومعرفة وعاطفة ، تحيا براءتها ، وتتشبّث بها ، والبراءة تزايلها . وهي طبعاً جزء من محيطها : إنها بعض تلك البيوت والأشجار والوديان والتلال ، بعض الشموس والأمطار والوجوه والأصوات ، التي بها تحيا ، وبها تكتشف القيم والأخلاق ، وتكتشف الجمال والقبح ، والفرح والبؤس جميعاً .

ولعلني ، عن قصد أو غير قصد ، جعلت من الذات والمحيط أحياناً موضوعين متبادلين ، في الواحد انعكاس للآخر ، بل وتجسيد رمزي له أحياناً . ولأنه في زوال مستمر مع الزمن ، فإني أحاول أن أضع يدي عليه وآسره في شبكة من الكلمات ، لئلا يضيع بالمرّة .

ولكن الذات والمحيط كانا أحياناً على طرفي نقيض . وكان على الذات أن ترفض ، بضرب من الجنون ، أن تجد انعكاسها في المحيط ، وأن تتخلص من فعله المدمّر ، إلى أن يأتي اليوم الذي تريد فيه أن تتحكّم به ، وتغيّره . لعل تلك هي قصة المراهقة ، أو بعضها ، وما سوف يواكبها ويليها من تنامي المعرفة والإرادة ، وتنامي القدرة على التحليل والتعليل ، والقدرة كذلك على إعادة التركيب والخلق

عن طريق الخيال . إنها قصة البراءة المفقودة ، ومحاولة استعادتها .

إن المرء ليهجس بأن قصة الطفولة ، مع هذا البعد الزمني السحيق ، وهذا التحول الاجتماعي الكبير ، قد تأتي غير مستكملة مغزاها الحقيقي ، حين تفصل عن سياقها اللاحق ، الذي هو حياة المرء بتمامها . والطفولة أصلاً ليست قصة واحدة ، بل هي قصص متباينة يصعب في معظم الأحيان وصل أجزاء بعضها ببعض ، رغم تواتر شخصياتها ، إلا بشيء من الحيلة الروائية . غير أنها تطالب الذهن بالعودة إليها ، على نحو ما ، بإلحاح يتكرّر . ونجد بعض هذا الإلحاح في مثولها في أحلام الليل كل مرة بشكل جديد وتوتّر مغاير ، كما نجده في مثولها ، على غير ما توقّع ، في أحلام اليقظة بشكل يختلف عن مجرّد استعادات الذاكرة .

قصص الطفولة إذن هي قصص أحداث غدت مزيجاً من الذكرى والحلم ، مزيجاً من الكثافة الوجودية والغيبوبة الشاعرية ، مزيجاً يتداخل ويتواشج فيه المنطق واللامنطق . ولكنه مزيج يؤكّد حضوره أبداً في عمقٍ ما من النفس ، يستحيل إيفاؤه حقه مهما تابع الذهن جزئياته وتشعباته . بل إن معظم كتّاب السيرة الذاتية ، منذ أقدم الأزمان وفي آداب الأمم جميعاً ، يميلون إلى تجنّبه ، أو إهماله ، ربما بسبب من صعوبته الخاصة . وقد جرت عادتهم ، إذا ركزوا على أحداث طفولتهم ، أن ينظروا إليها بعين النضج الذي أدركوه مع تقدّم السنّ وتقدّم القدرة على التعليل والتعليق . فهم يحاولون استيضاح ما جرى لهم في الماضي كمقدّمة أو تبرير لحاضرهم . وهم يستبقون المعلّقين والنقاد بشأن تجربتهم ، بأن يعلّقوا هم على تجربتهم وينقدوها . وبما أنهم لا يجدون دائماً الكثير للتعليق والنقد مما يتصل بسنوات الطفولة ، فإنهم نادراً ما يتوقفون عندها لأكثر من فصل أو فصلين . إنهم يستعجلون القلم لبلوغ المرحلة الأهمّ في نظرهم ، مرحلة المراهقة ، وبخاصة حين تتفتح النفس على بواكير الأحاسيس الجنسية ، ولذاتها ، وأوجاعها المتسارعة . وبعد ذلك يولون عنايتهم للمراحل اللاحقة من تجارب الشباب والنضج ، تدليلاً على ما حققوا - أو لم يحققوا - من منجزات في ميادين الفعل ،

أو الفكر ، أو كليهما .

مهما يكونوا محقين في ذلك ، فإني آثرت اتباع طريقة تغاير طريقتهم ، ربما مستذكراً قول الشاعر وردزويرث «إن الطفل هو والد الرجل» ، ولكن عن رغبة عميقة في التأكيد على روعة تلك الفترة من حياة الإنسان بحد ذاتها ، ربما لقربها من أصل الكينونة ، ولا سيما إذا ذهبنا مع وردزويرث مرة أخرى إلى أن هذا الأصل منبته في السماء ، عند الله . لقد حاولت أن أعود فأحيا تلك الفترة من جديد طفولياً ، دون تحرّق للتحليل ، ودون أن أفلسف ما جرى أو أعقّب عليه . واسترسلت في محاولتي بقدر ما استطعت ، ولكن مضطراً إلى الانتقاء والحذف مدركاً مشكلة الكاتب الأبدية ، وهي كيف يوفّق بين سيولة التجربة وشكلانية الكلمة . وكان لا بد من أن أنتقي أحداثاً معينة بقيت تفرض نفسها على ذاكرتي ، وتنضح في دمي برقّة لا أستطيع تفسيرها ، وجمال يتزايد مع الزمن ، وشاعرية تزيدها الآلام توقداً ، ومفارقاتٍ تتوازى بغرابتها مع العشق الطفولي لكل دقيقة من تلك الحياة - تلك الحياة التي قد تبدو الآن في الكثير منها قاسية ، وظالمة ، ومرفوضة .

ورغم أن أحداث المرحلة التالية أغنى جداً بالضرورة وأشدّ تعقيداً وتشعّباً ، وهي أيضاً تطالب المرء بأن يأسر أحداثها في شباك من الكلمات لعلّ معالمها تتحدّد بصيغة مفهومة ، فإن الطفولة تبقى مبعث سحر يستديم فعله الغامض ، ومصدر وهج يعجز عنه التفسير . وكلا السحر والوهج يغرينا دوماً بالشخوص إليه والاندهاش به مجدداً ، محققاً للنفس انتعاشاً هي بحاجة إليه كلما راكمت عليها الأيام أحداثها ، وحطّت السنون عليها أعباءها .

جبرا إبراهيم جبرا

بغداد كانون الثاني ١٩٨٦

مقدّمة :
هذه البئر الأولى

كلما أردنا التحول إلى دار جديدة نسكنها ، كان أول ما نسأل عنه هو البئر . هل توجد بئر في حوش الدار؟ هل هي عميقة؟ وفي حالة جيدة؟ هل ماؤها طيب؟ أم أنها لم تُنزح من طينها منذ سنين؟

كانت الآبار أنواعاً ، بقدر ما كانت الدور . وكانت خرزاتها أنواعاً كذلك . وخرزة البئر أشبه بسجل تاريخي للدار وبئرها معاً : مع تقادم السنين ، تترك حبال الدلاء ، وهي تُنزّل في البئر وتُصعد ، آثارها في «فم» الخرزة ، فتصقله أولاً ، ثم تحفر فيه أخاديد تعمق مع مضيّ الزمن ، وتتكاثر .

أما الآبار التي تركّب على كل منها قوس من الحديد تتوسطها بكرة ، يُنزل الحبل بها ويُرفع وهي تقرقع ، فكانت قليلة ، ولا توجد إلاّ في الدور الكبيرة التي ينعم أصحابها بشيء من الرفاه ، وتنزل المياه إلى آبارهم من على السطوح بأنابيب مدفونة . وقد تركّب على هذه الآبار المحظوظة مضخّات تُغني أهليها عن الدلاء .

غير أن الدور التي كنا نأوي إليها كانت دائماً من النوع البدائي : ينسكب ماء المطر من مزراب سطح الواحدة منها إلى الحوش ، ويلتقي بما ينحدر من تجمّع الماء

في الحوض نفسه ، وتصب المياه كلها في حفرة لا يزيد عمقها على المتر الواحد قرب البئر ، وعلى ارتفاع قليل من قعرها مسرب يتصل بباطن البئر . ففي هذه الحفرة تترسب الشوائب الطينية التي تحملها معها مياه المطر المنصبّة فيها ، قبل أن تدخل إلى المسرب الذي يؤدّي بها إلى أعماق البئر ، وقد صُفِّيت قليلاً . ولكن التصفية لن تتمّ إلاّ بعد أيام ، إذ تترسّب الشوائب الطينية وغيرها مرة أخرى إلى قاع البئر نفسها .

ولذلك كان لا بد من تنظيف البئر ، كلما مرّت عليها بضع سنوات ، من الرواسب المتراكمة .

آبار كهذه هي التي حفظت الحياة في المدن والقرى في المناطق الجبلية من فلسطين طوال العصور ، حيث كان الاعتماد كلياً على أمطار الشتاء ، التي تسقي بهطولها الحقول المزروعة بالقمح والشعير والذرة ، كما تسقي الوديان والروابي الملأى بأشجار الزيتون ، والمشمش واللوز ، ودوالي العنب ، وتحفظها الآبار للشرب والسقاية لبقية مواسم السنة . (أما بيارات البرتقال ، فهي في السهول المحاذية للسواحل ، ولسقايتها وسائل أخرى منتظمة) ومحظوظة هي القرى التي تنعم بعين ، يكون ماؤها في صفاء البلّور ، وبرودة الجليد .

ولئن كنا نحتفظ بالماء في الزير في ركن من الدار ، فنغرف منه بطاسة كلما أردنا الشرب أو الطبخ ، فإن ماء البئر ، أيام الحر ، هو الذي نصعده بالدلو ، لكي نشربه بارداً منعشاً . وفي أيام الشتاء ، يبدو ماؤه أقل برودة من ماء الزير . وحواكيرنا نسقيها من ماء البئر . وإذا نضب هذا الماء ، وجب علينا أن «نشحده» من آبار الجيران ، أو أن نشتريه من السقّاء الذي كان من شخصيات بيت لحم التقليدية في تلك الآونة ، وبخاصة في الأحياء القريبة من «عين القناة» ، تلك العين التي تجري مياهها من الينابيع الجبلية التي قُنّيت في عهد بعيد ، لكيما تتيسّر للكثير من الناس الذين لم تكن في بيوتهم آبار .

كان السقّاء يحمل الماء من هذه العين في قربة سوداء كبيرة على ظهره . ولكن مع توفّر صفائح البنزين في سنوات الحرب العالمية الأولى - إذ جاء بها أولاً

الجيش العثماني لاستعمالاته الخاصة ، ثم جاءت بها شركات النفط بعد ذلك – جعل يأتي بالماء في صفائح أربع محمّلة على حماره ، وقد تدثّر هو بمريول جلدي أسود يتقي به البلل المستمرّ . وكثيراً ما اضطررنا إلى الذهاب إلى العين بأنفسنا ، لملء جرارنا وتنكاتنا بين جموع شديدة الضجيج والصياح من النساء والأطفال ، ثم نحملها إلى الدار ، مهما بعُدت ، فرحين بها .

البئر! كم كانت مهمة ، وأساسية . وأيام اضطرارنا إلى الإقامة في دار لا تتمتع بوجود بئر في حوشها ، كانت أياماً قاسية حقاً .

والبئر في الحياة إنما هي تلك البئر الأوّلية التي لم يكن العيش بدونها ممكناً . فيها تتجمّع التجارب ، كما تتجمّع المياه ، لتكون الملاذ أيام العطش . وحياتنا ما هي إلا سلسلة من الآبار . نحفر واحدة جديدة في كل مرحلة ، نسرّب إليها المياه المتجمّعة من غيث السماء وهمي التجارب ، لنعود إليها كلما استبدّ بنا الظمأ ، وضرب الجفاف أرضنا .

والبئر الأولى هي بئر الطفولة . إنها تلك البئر التي تجمّعت فيها أولى التجارب والرؤى والأصوات ، أولى الأفراح والأحزان ، والأشواق والمخاوف ، التي جعلت تنهمر على الطفل ، فأخذ إدراكه يتزايد ، ووعيه يتصاعد ، لما يمر به كل يوم ، يعانيه أو يتلذذ به . وكلما استقى من تلك البئر ، ازداد مع ريّه فهمه لهذه التجارب والرؤى والأصوات ، بأفراحها وأحزانها ، وإذ يمتح من مائها ، لن يعرف ما الذي سيصعد إليه من صفو قرير ، أو طين وعكر . وقد يكثر الطين والعكر ، ويقلّ الصفو القرير . ولم لا؟ إنه بذلك يعيش ويتغذّى : إنها البئر التي لن يكون له عنها غنى . وإذ يعود إليها كل مرة ، فهو إنما يرد ينبوعاً دائم الفيض في طوايا إنسانيته .

- ١ -

انتبهت إلى أن أهلي يسمّون المكان الذي نسكنه بالخان . ثم انتبهت إلى أن من يأتي عندنا يصفنا بساكني الخان . وهو لا ريب قد كان خاناً في يوم مضى : غرفة فسيحة ، عميقة ، في الطابق الأرضي من مبنى عتيق على الشارع العام ، خلف الجامع . وعلى مقربة منه دكاكين كثيرة من كل نوع ، من البقّال إلى صانع الأحزمة وبرادع الحمير . وليس للغرفة نافذة . ليس لها إلا باب حديد كبير ، كأبواب المخازن ، أكاد أعجز عن زحزحته لثقله ، وقرب الباب مرحاض صغير ، أضيف حتماً بعد الفراغ من بناء الدار في يوم من أيام العهد العثماني الطويل .

وبين بابنا الكبير والشارع بوابة خشبية أصغر منه ، جعلت مدخلاً للبناية ، وهي أيضاً إضافة لاحقة ، لعزل المبنى قليلاً عن الشارع ، فحالما نتخطى عتبتها العالية ، يواجهنا باب الخان على مسافة ست خطوات أو سبع . وإلى اليسار ، في الفضاء ، درج حجري مكشوف يصعد إلى الطابق الأعلى الذي كانت فيه غرفة طُلي بابها بالأخضر ، كلما صعدت إلى فوق ، حيث يقيم رجل ذو لحية قصيرة يلبس السواد دائماً ، ولا أراه إلا وهو جالس إلى طاولته ، يفكّك ويركّب آلات

صغيرة بين يديه - ويقولون إنه الراهب يوسف . وهو خبير في تصليح الساعات والأجهزة الآلية . ومن جانب غرفته يصعد الدرج المكشوف إلى طابق ثالث كانت فيه «العليّة» .

كانت «العليّة» غرفة مستطيلة كبيرة ، يؤمها صباح الأحد الكثير من الرجال والنساء ، وبعض الصبية الذين يرتدون قمصاناً بيضاء طويلة ، ويرتلون ، وفي وسطهم شيخ أبيض اللحية ، طويلها ، في جلباب أزرق مزركش ، يرتفع صوته نشازاً بين حين وآخر بالترتيل ، والشموع تشتعل في كل مكان .

أفهمني أبي أن تلك الغرفة هي كنيسة ، وأنها بيت الله ، وأن الشيخ هو القسّ أبونا حنا ، الذي يجب أن نقبّل يده كلما التقيناه . وكانت رائحة البخور تعبق في هذا الطابق الأعلى طوال أيام الأسبوع ، وتتكرّم كلما هبّت ريح ملائمة ، فتنزل إلينا ، نحن ساكني الخان ، بشذاها الطيّب ، فتعطّر الجو .

كان الخان عميقاً ، رطباً ، مظلماً ، إلاّ إذا اقتحمه شعاع من الشمس في الصباح ، والباب مفتوح . وفي ركن منه ، كانت أمي تطبخ على «البابور» البريموس ، الذي كان يطلق صوتاً يتفاوت حدة بتفاوت حجم لهيبه ، فأشعر أنه يغنّي . وأمي (التي كانت تغنّي معه أحياناً) بارعة في معالجته بإبرة خاصة ، كلما أبدى تمنّعاً في الاشتعال كما هي تريد .

يخرج أبي إلى الشغل وأنا نائم . وعندما نستيقظ أنا وأخي يوسف ، ثم نشرب الشاي الذي تهيؤه عادةً جدتي ، مع شيء من الخبز والزيتون ، نخرج إلى الشارع ، وأرضها مبلّطة بالحجارة التي يلسع بردها أقدامنا الحافية . ثم يتوافد صبية مثلنا ، فننحدر معاً من وراء الجامع باتجاه ساحة باب الدير ، حيث عربات الخيول ، وقد تكون هناك سيارتان أو ثلاث . ويتقاطر الناس على مهل ، فيركبون العربات والسيارات ، أو يجلسون في المطاعم والمقاهي المحيطة بالساحة ، وقد غمرت الشمس المكان بضياء ليس في «الخان» ما يماثله - وغمرت كذلك حبلات الوادي ، والجبال البعيدة التي تشرف عليها الساحة ، فأخذت تتألق ، ويزول البرد الذي كان أول ما ما نحس به عند الخروج .

وفي صباح أحد الأيام ، بعد أن ذهب أخي الى المدرسة ، بقيت مع أمي وجدتي أرقب طبخة وعدتني أمي بها : «هيطليّة» - أرز بالحليب . كانت بائعة الحليب قد طرقت بابنا ، فاشترت أمي منها بالكيلة عدة أوقيّات صبّتها البائعة في الطنجرة . وكان هذا حدثاً مهماً ، لأن أمي تقول أن لا قدرة لها على شراء الحليب إلاّ في المناسبات وعند الضرورات . وبين صعودي إلى الطابق العلوي لأقول للراهب يوسف «صباح الخير» ، ثم إلى طابق الكنيسة الأعلى لأنظر من السطح المكشوف الذي أمامها إلى الصبية الذي هم في الأسفل يلعبون في الحارة ، وأناديهم وينادونني ، وبين نزولي لأرى كيف يجري طبخ الهيطلية ، كانت الأكلة اللذيذة ، الموعودة ، قد حضرت .

صبّتها أمي في وعاء معدني مسطح ، وضعته على الأرض في الركن ، وقالت : «لنتركه ساعتين ليبرد . سأعطيك منه قليلاً ، عند الظهر ، ولكننا سنحتفظ به للعشاء ، عندما يعود أبوك من الشغل ، فهو مثلك يحب الهيطلية .»

أوصتني أمي بألا أكثر من الخروج والدخول ، وبأن أكون «عاقلاً» ، ريثما تذهب مع جدتي إلى السوق لشراء الخضرة . وقالت : «إذا خرجت ، أغلق الباب وراءك جيداً . ولا تسمح لأحد بالدخول »

ما كدت أبقى وحدي ، حتى تطلّعت إلى الأكلة البيضاء الشهية بحرقة ، ومددت اصبعي إليها ، وذقتها . ما ألذّها ! ولكنها ما زالت حارّة ، وأمي تريدها باردة . طيّب . فلأخرج الى الحارة . وأخذت لطعة أخرى قبل الخروج .

في الشارع ، عند باب الدكان المقابل ، لقيت أحد أصدقائي ، فقلت له : «أتعرف؟ أمي طبخت لنا اليوم هيطلية» .

وعندما تمشّينا وراء الجامع ، التقانا صبيّان آخران ، وقال لهما صديقي : «أمه طبخت اليوم هيطلية .» وبعد قليل ، كان المزيد من أطفال الحي قد تجمعوا عند المنعطف ، يلعبون . فقلت لهم : «أمي طبخت هيطلية!»

قال أحدهم : «كذاب!»

قلت : «أنت كذاب . تعال وشوف» .

ثم التفت إلى الآخرين، وقلت: «يلاً تعالوا إلى بيتنا في الخان. عندنا هيطليّة».

قالوا: «ولكن نخاف من أمك».

قلت: «أمي ذهبت مع جدتي إلى السوق»،

جعلنا نتقافز ونتراكض باتجاه الخان. كان الباب الخارجي، كالعادة مفتوحاً. أدخلت أصدقائي، ودفعنا معاً الباب الحديدي الكبير لمسكننا. ودخلنا جميعاً - وكنّا سبعة أو ثمانية.

رغماً عن العتمة، كانت قصعة الأرز بالحليب المستقرة على الأرض تتوهج كالشمس. سحبتها إلى بقعة قرب الباب، للمزيد من الضوء، وقلت للأولاد: «اقعدوا!».

وقعدوا على الأرض جميعاً في حلقة حول الطبق الأبيض. وصحت بهم: «انتظروا! لا تأكلوا بأيديكم! عندنا ملاعق!.»

وكان قرب «البابور» صحن فيه مجموعة من الملاعق الخشب والألومنيوم من أحجام مختلفة، وزّعتها عليهم، واحداً واحداً. ووجدت أنه لم تبق لي أنا ملعقة، وراحوا هم يأكلون. فتناولت المغرفة بسرعة، وشققت لي مكاناً بينهم، وغرفت بها، وأكلت مع الآكلين.

وفي تلك اللحظات الرائعة، وقد كدنا نأتي على ما في القصعة، دخلت أمي ووراءها جدتي، وصاحت بنا صيحة اهتزّ لها الخان. ورمى الصبية عنهم ملاعقهم، وأنقذوا بسرعة العفاريت من الباب المفتوح، وأطلقوا سيقانهم للريح. وقبل أن تطبق يدا أمي عليّ، وجدتني أنا أيضاً أسابق الريح، وقد تشتّت أصدقائي في كل اتجاه. وبقيت أركض حتى وصلت باب كنيسة المهد مبهور النّفس، وحيداً لا رفيق لي.

وأدركت حينئذ أن أبي لم يبق له شيء يأكله في المساء عند عودته متعباً من العمل، وأنا السبب. وخفت أن أرجع إلى البيت.

لم أجد أحداً من رفقتي ألعب معه: على بعد قليل في باب المهد، على طرف

من الساحة ، كان رجل يسحب الماء من دلو جلدي من بئر كبيرة الفم ، ويصبّه في جرن حجري مستطيل قربها ، وثلاثة جمال قد أحنت رؤوسها فيه حتى كادت مشافرها الضخمة تصيب قعره ، وقد تكشّفت عن أسنان صفراء رهيبة ، وهي تشفط الماء بشراهة . وقفت أتفرّج عليها ، على استدارة أعناقها الطويلة ، وضخامة أبدانها ، وارتفاع سيقانها الهائل ، وأخفافها المفلطحة ، التفّ حولها وأخشى الدنو منها كثيراً . وما يكاد صاحبها يفرغ ماء الدلو في الجرن ، حتى تأتي عليه الجمال في الحال .

تركتها ، متلكئاً في السير ، إلى الطريق المجاور ، وتوقفت عند بوابات مخازن «السوفنير» أتفرّج على ما في واجهاتها من مسابح وصور وصلبان من الصّدف ، وجمال صغيرة من خشب الزيتون ، وقد صُفّت في قوافل ، مقطور بعضها ببعض .

بعد مدة زايلني الخوف ، أو نسيته ، وجعلت أشعر بجوع شديد . فسرت باتجاه الدار ، ولكن ، عند الباب ، عاودني الخوف مما ستفعله بي أمي ، فأطللت نصف إطلالة ، وصحت : «يمة! ستّي!» .

فخرج إليّ أخي ، وكان قد عاد من المدرسة ، وهو يضحك ويقول : «تعال ، ادخل! تطعم غيرك بالملعقة ، وأنت تأكل بالمغرفة! عال والله! كيّفنا! يلاّ ، تعال .» وجرّني إلى الداخل ، لأقابل أمي ، وعيناها تقدحان بالغضب .

وفجأة رأيت الغضب في عينيها يذوب إلى ما يشبه الضحك ، حين قالت : «يا شيطان! أتوزع أكلنا على الناس؟ أتحسب نفسك ابن سليمان جاسر؟ اشبع أولاً ، وبعدين أطعم الناس . . .»

ثم التفتت إلي أخي ، وقالت : «خذ الطنجرة يا يوسف ، وخذ هذين القرشين ، وأركض الى بيت بائعة الحليب . وإذا وجدت أنه بقي عندها شيء من الحليب ، اشتر ستّ أواق ، وعد على عجل ، لأطبخ وجبة أخرى من الهيطلية لأبيك . . . أما أخوك هذا ، فلن يذوقها ، والله! وخذه معك . لا أريد أن أرى وجهه!»

في المساء ، تنازلت أمي عن تهديدها ، وقالت في نفرة مفتعلة : «يلاّ ، اقعد

مع أبيك وأخيك . أتريد المغرفة لتأكل بها ،أم أن الملعقة تكفيك؟»

صبيحة اليوم التالي أصعدني أبي مع أخي إلى الكنيسة مبكّراً ، وأوقفني في أحد صفّي الصبية المرتلين ، ومع أنني لم أكن أعرف ما الذي يرتلون بالسريانية ، فقد جعلت أتمتع بما أسمع ، وأحاول أن أرفع صوتي معهم ، كلما رفعوا أصواتهم . كنت أرقب الولد حامل المبخرة وهو يدنو بها من أبونا حنّا ، فيأخذ أبونا بملعقة صغيرة قليلاً من البخور من طاسة نحاسية في يد الولد ، ويلقمها جمرات المبخرة ، ويرسم عليها إشارة الصليب . ثم يدور الولد بين أرجاء الهيكل ، والمصلّين ، ويهزّ المبخرة عليهم بإيقاع منتظم ، وهي تطلق سحب العطر .

وتمنيت لو أنني أحمل أنا أيضاً مبخرة مثله ، لأبخّر الناس ، والدار ، والدرج ، وكل ما في الحارة من بشر ومساكن . فقد قال أبي إن مع سحب البخور تنطلق الملائكة ، وتستمطر بركات الله على كل من يتلقى الرائحة الزكية . . . وكم تمنيت لو رأيت أولئك الملائكة .

وبقيت رؤية الملائكة حسرة في نفسي ، جعلتني أتوهم أحياناً أنني أراها كالأشباح - مخلوقات وسطاً بين الطيور والنساء - وأنني ألعب معها ، وأدعوها إلى قصعة من الأرز بالحليب . ولسوف نستطيع أن نأكل على هوانا ، لأن أمي لن ترى الملائكة ، ولعلها لن تراني أنا أيضاً وأنا بصحبتها .

وكنت أسمع أحاديث عن الشياطين أيضاً : وهي سوداء ، لها قرون حادّة ، وتنفث من أفواهها النيران ، وتطرقع بأذيالها الطويلة ، غير أنها لا تحب رائحة البخور ، ولا التراتيل الجميلة . ولا أظن أنها تحب مصادقة الأطفال ، أو أكل الأرز بالحليب ، والحمد لله! لن أريد رؤيتها! وإذا ظهر لي واحد منها ، أغلقت بابنا الحديدي في وجهه . وليدقّ عليه بذيله إلى أن يشبع!

كان أخي يذهب إلى مدرسة الألمان في المدبسة . فقالت له أمي : «خذ أخاك معك ، حتى أعرف كيف أنصرف إلى شغلي .»

غير أن مدير المدرسة ، عندما أخذني أخي إليها معه ، نظر إليّ نظرة سريعة ، وهزّ رأسه ، وسأل يوسف : «أخوك هذا ، كم عمره؟ .»

أجاب : «خمس سنوات» .

قال المدير : «أرجعه إلى البيت . وليأتِ إلينا بعد سنة» .

غضبت أمي عندما أعادني أخي الى البيت ، وفي الحال أسرعت بي إلى مدرسة الروم الأورثوذكس ،وهي أقرب مسافةً من مدرسة الألمان ، وقابلت المعلّم . فقال لها : «أهلاً وسهلاً . خليّه عندنا وروحي مع السلامة . أو أحضريه غداً صباحاً ، قبل الساعة الثامنة» .

ولكننا في اليوم التالي انشغلنا جميعاً بالانتقال إلى بيت آخر ، في مكان نصعد إليه بدرج كثير . وانتبهت إلى أن بيتنا الجديد هذا نسميه بكلمة جديدة عليّ : «الخشاشي» .

- ٢ -

في المدرسة رأيتهم يكتبون . يمسك الواحد منهم «باللابصة» (قلم الرصاص) ، ويفتح الدفتر ، ويكتب على الورق الأبيض المسطّر . كانوا يرفعون رؤوسهم وينظرون عبر رأس المعلم إلى «اللوح» - وهو مجموعة من أخشاب شدَّت معاً على شكل مربع ، ورُكّزت على مسند ثلاثي الأرجل ، وصُبغت يوماً بالأسود ، ولكنها الآن تكاد تكون بيضاء من تراكم أثر الطباشير ، رغم مسحها ، وتفارقت الأخشاب بعضها عن بعض . وقد خط المعلم على هذا اللوح بضعة حروف . والصبية يكتبون . ومن عادة كل منهم أن يمدّ لسانه ، ويبلل طرف القلم على حافة لسانه ، ويكتب . ويمحو بممحاة صغيرة عليها صورة فيل . وينقرم القلم . فيبريه بالبرّاية . ويغمس الأسود المبريّ بلعاب لسانه . وينظر إلى اللوح ويكتب .

كان ذلك أول يوم لي ، أو أحد أيامي الأولى في «مدرسة الروم» الواقعة خلف كنيسة المهد . قلت للمعلم ، وأنا على «بنك» طويل بين أربعة أو خمسة أطفال مثلي : «معلمي ، هل أكتب أنا أيضاً؟»

قال : «هل أحضرت معك دفترك وقلمك؟»

قلت : «لا» .

قال : «كيف تكتب إذن؟»

قلت : «في دفتر أحد الأولاد الذين عندهم دفاتر» .

فضحك الصبية . حتى المعلم ضحك ، وقال : «لا يا ولد . غداً أحضر دفترك وقلمك ، واكتب» .

بعد قليل دق المعلم جرساً . وخرجنا إلى الملعب . كانت هناك شجرة صنوبر كبيرة منحنية ، تكاد تقسم الساحة الصغيرة إلى قسمين . قفزت على الجذع المنحني ، ومنه تسلقت إلى الأغصان العليا . ولحق بي جماعة من الصبية . وما كدنا نلعب قليلاً حتى رأينا المعلم يدق جرسه مرة أخرى . وعدنا إلى «الصف» . كنا على الأقل خمسين ولداً ، من أعمار شتى . كنت أرى معظمهم كبيراً بالنسبة إليّ : في العاشرة ، والثانية عشرة ، وربما كان بعضهم في الرابعة عشرة . وأنا في الخامسة ، حافي القدمين . وأكثرنا حفاة ، غير أن بعض الأولاد الكبار يلبسون أحذية ضخمة ، خلّفها الجيش العثماني لآبائهم .

قبل الظهر خرجنا «إلى البيت» ، في ساعة الغداء . رحت ركضاً إلى بيتنا ، ووجدت جدتي في الحاكورة تنظر إلى ظل شجرة اللوز الواقع على حائط البيت . فقالت : «لماذا جئت قبل الوقت؟» .

– «ولكنها ساعة الظهر» .

– «لا يا حبيبي . لم يصل الظل إلى هذا الحجر بعد . » وأشارت إلى حجر ناتئ في الجدار . «أتعتقد أنني لا أعرف متى تكون ساعة الظهر؟» .

– «لا أدري . أخرجنا المعلم ، وقال ارجعوا في الساعة الواحدة .»

فصاحت جدتي : «مريم! حضّري الغداء . ابنك جاء!»

كانت لي علاقة خاصة بجدتي ، من «وراء ظهر» أمي . فهي تعلم أن أمي «عصبية» ، وإذا فعلت أنا شيئاً لا ترضى عنه أمي وعرفت به ، «أطعمتني قتلة» . فكانت جدتي تتستّر عليّ .

اقتربت منها – وكان فستانها طويلاً يكاد يبلغ الأرض . تلمسته ، فقالت :

«ها؟ عندك شيء تقوله؟ فعلت شيئاً غير لائق؟»

فقلت وأنا أنظر في عينيها العسليتين : «ستّي ، أريد أن أشتري دفتراً وقلماً» .

- «دفتراً وقلماً! ليش؟»

- «لكي أكتب» .

- «قل ذلك لأمك . أطلب ما تريد من أمك . أو انتظر إلى أن يعود أبوك في المساء» .

عندما دخلت البيت ، كانت أمي تتأمل في «الطنجرة» ، وتخلط ما فيها . وقالت : «أهلاً يابن المدارس!»

قلت : يَمّه ، المعلم يقول أن عليّ أن آخذ معي دفتراً وقلماً للمدرسة» .

- «صحيح؟ ومن أين أجيء لك بالدفتر والقلم؟»

- «الدفتر والقلم بنصف قرش . هكذا يقول الأولاد» .

- «وأنا من أين لي نصف قرش؟ يلاّ أقعد وكل ، وبلا دفتر وبلا قلم . نصف قرش ، قال! وقبل أن تأكل ، خذ شويّة حشيش للخروفين» .

أخرجت شيئاً من الحشيش الذي كنا نجمعه في كيس كبير في طلعاتنا الى الحقول ، لكي لا نضطر إلى أخذ الخروفين للرعي كل يوم . وأخذته للخروفين الأبيضين ، المربوطين في «الخشيّة» ، كانا كلاهما متمرّغين في تراب الأرضية يجترّان . وحالما رأياني ، نهضا ، ووضعت لهما الحشيش ، وأقبلا عليه بنهم ، وأنا أربت على ظهر هذا وظهر ذاك .

صبّت أمي الطعام في قصعة كبيرة على الأرض وجلسنا حولها . وقالت أمي : «هه! الآن دقّ الظهر!» إذ راحت قباب الأديرة المنبثّة في البلدة تقرع أجراسها لتعلن انتصاف النهار ، وأصوات الأجراس تتمازج عبر الفضاء ، وهّاجة فرحة .

بعد الغداء عدت إلى المدرسة ، ولعبنا ، إلى أن دق المعلم جرسه . ودخلنا الصفّ . ولم يكتب أحد شيئاً هذه المرّة . كتب المعلّم حروفاً على اللوح ، وطلب من جماعة منا أن نكررها وراءه :

«ألف!» فنصيح : «ألف!»

- «باء!»

- «باء!»

- «تاء!»

- «تاء!»

- «ألف باء!»

- «ألف باء!»

عندما خرجنا عصراً. جعلنا أنا واثنان من رفاقي نردد ونرنّم: «ألف با بوباية، نصّ رغيف وكوساية...» ومررنا بدكان حنا الطّبش، وواجهته مليئة بالدفاتر والأقلام والمحّايات. دخلت وسألت البائع: «عمّي، بدّي قلم ودفتر».

- «معك تعريفة؟»

- «لا».

- «روح وأحضر نصف قرش. وخذ أحسن قلم وأحسن دفتر»

وعدت إلى البيت، ووجدت جدتي في الحاكورة تلمّ الغسيل. ونظرت إليها راجياً، ففهمتني في الحال. ودون أن تقول كلمة واحدة، وضعت يدها في عبّها، ووأخرجت منديلاً معقوداً. وحلّت عقدتين وانفتح المنديل عن أربع أو خمس قطع نقدية، التقطت منها نصف قرش مدوّراً مثقوباً، وقالت: «خذ. ولا تخبر أمك. يلاّ من قدامي، عنفص!»

وركضت معنفصاً إلى دكان الطبش، وناولت صاحبه قطعة النقد العزيزة، وناولني دفتراً وقلماً. فطلبت إليه أن يبري لي القلم، ففعل. وقال: «إذا لم تكن لديك برّاية، مش ضروري. إبر القلم بالشفرة».

وطرت بما اشتريت عودة إلى البيت. لم تكن أمي في البيت، وجدتي كالعادة مشغولة بشؤون العائلة. كان قرب باب بيتنا مصطبة حجرية طويلة، تمددت فوقها على بطني، وفتحت الدفتر عند أول صفحة. وأمسكت بالقلم المبريّ لأكتب. بلّلت طرفه الحاد على رأس لساني. ولكن ماذا أكتب؟ جعلت أستذكر الحروف التي كتبها المعلم على اللوح في الصباح، وبعد الظهر. كانت الألف سهلة.

شكلها ، كما يقول المعلم ، كالعصا ، والباء؟ عصا نائمة ، معقوفة من الطرفين ، وكتبت ا ا ا ا ، ثم ب ب ب ، وامتلأ السطر . وبدأت سطراً آخر . وآخر . . . ولكنني وجدت أن أسطري ، غصباً عني ، تميل انحداراً ، مهما حاولت . غيّرت وضع الدفتر أمامي ، وكتبت - والأسطر تهبط بي من اليمين الى اليسار . . . وامتلأت الصفحة أسطراً مائلة ، ثم ملأت صفحة أخرى ، فأخرى ، وفجأة «انقرم» القلم . فتوقفت .

في ذلك المساء ، كان دفتري «فرجة» العائلة . أبي قال «عفارم!» يوسف قال : «أسطرك نازلة من الجبل ، لتشرب الماء؟» أمي قالت : «أكتب كتابة مضبوطة ، ودر بالك على الدفتر . ولا تضيّع القلم : أتسمع؟» وجدتي غمزتني جانبياً ، متفاهمة معي .

في صباح اليوم التالي أخذت «عدتي» معي إلى المدرسة ، وقلت للمعلم : «جلبت معي الدفتر والقلم» فقال : «طيّب ، اقعد مكانك واكتب» .

برى المعلم لي القلم ، واستعرت محاة ، وكتبت ، ولكن الأولاد الذين بقربي كانوا لا يكتبون ، لأن ليست معهم دفاتر ، ويضحكون ، ويتململون ، وأرجلهم الحافية في عبث متواصل ، هذا يدفع ذاك بقدمه تحت «البنك» ، وذاك يركل قدمي ، ويروح قلمي شاحطاً على الصفحة المفتوحة بين يدي .

عند الغداء سألتني أمي : «هل رأى المعلم دفترك؟»

قلت : «نعم . وجعلني أكتب» .

قالت : «الحمد لله» .

ولما حاولت أن أريها ما الذي كتبت ، قال : «هل أعرف أنا القراءة حتى أقرأ دفترك؟»

بعد الظهر ، لم نكتب شيئاً . كان المعلم نعساناً . قعد إلى المنضدة ، وأقام ولداً كبيراً وقال له : «إلياس ، أنت العريف اليوم . كل من يتكلم ، أو يضحك ، أو يتنفّس ، اكتب لي اسمه على اللوح . . . أنتم أولاد الصف الأول والثاني ، افتحوا كتب القراءة ، الصفحة خمسة ، واقرأوا . بس بلا حسّ! وأنتم الجالسين في

الخلف ، اجعلوا سواعدكم على البنك ، هكذا ، وأنزلوا رؤوسكم وأسندوها عليها ، وناموا . وبلاش حركة! فاهمين!»

وفي الحال أغمض عينيه ، وسقط رأسه على صدره ، وراح في نومة هنيئة .

دفنّا وجوهنا بين سواعدنا ، كما أوصانا المعلم ، ولكن من منا نحن العفاريت يستطيع النوم؟ قضينا ساعة ورؤوسنا على البنك ، في الثرثرة والضحك . عندما رفعنا رؤوسنا كان الياس قد كتب ثلاثة أو أربعة أسماء على اللوح . وجعل «علامة ضرب» إزاء أحدها . وانطلقت فجأة شخرة عاتية من المعلم ، رفع رأسه على أثرها مباشرة ، وأجال عينيه الرهيبتين في وجوه الأولاد . وببطء ، أدار رأسه نحو اللوح ، فرأى الأسماء . فنادى أولها : «جريس ! شرّف!»

وخرج جريس من بين رفاقه ، وسار خائفاً نحو المعلم : «والله يا معلمي ما حكيت . ولا ضحكت» .

قال المعلم ، وقد تناول مسطرته الطويلة : «افتح يدك!»

- «والله معلمي . . . .»

- «افتح يدك ، بلا حكي!»

وفتح الولد يده ، وضربه المعلم بالمسطرة على كف يده ضربة واحدة .

وهكذا فعل بصاحب الاسم الثاني . أما صاحب الاسم المؤشّر بعلامة ضرب ، فأذاقه ضربتين اثنتين ، ثم دقّ الجرس ، وأخرجنا .

كان اسم رفيقي على البنك «عبده» . وقد لازمني في العودة ، وأقنعني بالذهاب الى دارهم ، وهو يقول : «أتعرف كيف تصنع «طقّاعة؟ دفترك هذا فيه ١٦ ورقة . كل ورقتين تجعل منهما طقّاعة» .

كانت أمه منشغلة عنا بالخياطة عندما جلسنا في ركن من غرفة بيتهم ، على الأرض . أخذ عبده الدفتر من يدي ، ولكنني استرجعته ، رافضاً أول الأمر .

«طقاعة واحدة ، وبس!» قال . فرضيت . وناولته الدفتر . فتحه واقتلع الورقتين اللتين في الوسط ، وطواهما بشكل خاص ، وأنا أراقبه ، ثم طوى زاوية من الطوية ، وأدخلها بين طرفيها ، وبعد ذلك جعلها تحت إبطه ، فضغط عليها بذراعه ، ثم

سحبها بسرعة ، ونفضها بقوة ، فأطلقت صوتاً انفجارياً بديعاً . أعاد الطي ، وأعاد العملية ، و «طقع» مرة أخرى . شيء رائع!

قال : «أأعمل لك واحدة؟»

قلت : «أنا أعملها» .

واقتلعت ورقتين من وسط الدفتر ، وعملت طقاعة ، وطرقعت! ثم عملنا طقاعة أخرى ، فأخرى - إلى أن أتينا على الدفتر . وأم عبده ترقبنا بنصف عين ، وتقول بين حين وآخر : «بلا دوشة يا جماعة!»

وخرجنا إلى الشارع ، ونحن نطرقع ، وجيوبنا ملأى بعتاد من الطقاعات . ووجدنا أصدقاء ، وزعناها عليهم . ورحنا جميعاً نطرقع . . . إلى أن غابت الشمس ، وتمزقت الطقاعات كلها .

وأسرعت إلى البيت . وقالت جدتي : «أين الدفتر؟»

قلت : «أخذه المعلم» .

وقالت أمي : «أين الدفتر؟»

قلت : «أخذه المعلم» .

- «لماذا؟ ليتفرّج عليه؟»

- «ليحفظه في الجرار عنده . لكي لا يضيع» .

وعندما عاد أبي من العمل ، سألني : «أين الدفتر؟»

قلت : «عند المعلم»

وسألني أخي يوسف على العشاء السؤال نفسه ، وأجبته بالجواب نفسه .

ونمت تلك الليلة وأنا أفكّر في الطقّاعات ، وآسف أنني لم أترك على الأقل واحدة منها أطرقع بها في المدرسة . ولكنني شعرت أيضاً بشيء من الخوف ، من أين لي أن أشتري دفتراً آخر؟ .

في اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة ، ولم يكن لديّ إلا القلم ، وجعلت أنقش به على البنك . وكلما انقرم بريته بمساعدة أحد الأولاد ، حتى كاد نصفه يتلاشى .

وفي البيت أمطرتُ من جديد بالسؤال إياه : «أين الدفتر؟» وأجبت : «عند المعلم» .

في صباح اليوم الثالث ، عندما دق الجرس ، جرّني عبده من ذراعي . فقلت : «شو هالمدرسة؟ جرس ، دائماً جرس؟»

قال : «بلا مدرسة يا شيخ! أتجيء معي؟»

قلت : «يلاّ!»

وخرجنا من باب الملعب راكضين ، في اتجاه ساحة المهد . كانت السيارات تقف فيها ، وينطلق منها رجال ونساء طوال ، شقر ، كبار السنّ ، يحملون آلات التصوير ، ويكلموننا بلغة لا نفهمها ، فيومئون إلينا لكي نقف أمامهم ، وباب كنيسة المهد خلفنا ، ويصوروننا .

«دق الظهر» فجأة فرحت راكضاً إلى البيت . ورحبت جدتي بابن المدارس وقالت : «طبخت لك اليوم أحسن عدس . أحضر بصلة ، واكسرها ، ورشّها بالملح» .

والبصل يشهّي لشوربة العدس ، والعدس يشهّي للمزيد من البصل ، وأكلت حتى اتخمت ، واستلقيت على ظهري . فنفرت بي أمي : «قم! قم إلى مدرستك! أم أنك نسيت؟ وقل للمعلم أن يعيد إليك دفترك!»

وقالت جدتي : «مهلك على الصبي . خليه يستريح قليلاً»

فقالت أمي : «والله أفسدته!»

وخرجت – إلى بيت عبده .

وبقينا أنا وعبده لعدة أيام ننزل إلى الوادي ، أو نتسكع في ساحة المهد ، وفي أوقات انصراف أولاد المدارس نعود إلى البيت ، لكي نوهم أهلنا أننا ما زلنا نواظب على الدوام في المدرسة .

ولكن ما كادت تمر أربعة أيام أو خمسة ، حتى جوبهت في الظهيرة بأمي ، واقفة ببوابة الحاكورة ، وهي تنتظرني . وما كدت أدفع البوابة ، حتى أمسكت أذني وجرّتها بقوة عاتية ، وصاحت : «أين الدفتر؟»

- «يمه ، قلت لك ، عند المعلم!»

- «عند المعلم ، يا كذاب؟»

ولطمتني على خدّي : «التقيت بأم عبده هذا الصباح ، وحكت لي كل شيء» ولطمتني على خدّي الآخر . «ملأت شارع راس افطيس بالطقاعات ، يا كذاب ، يا حرامي! وتضحك علينا أيضاً! والله لن ترى المدرسة بعينك مرة أخرى!»

ورغم حماية جدتي ، «أكلت» قتلة من النوع الفاخر ، وكل الذي استطاعت جدتي أن تفعله هو أن تدسّ في يدي ، وأنا أبكي في الحاكورة ، قطعة خبز وزرّ بندورة ، ودفعتني إلى الهرب . وخرجت ، وجلست على الدرج النازل إلى الطريق ، وأكلت غدائي البائس وأثر الملح في عينيّ يؤذيني ، وقرْص أمي ما زال يخز في خدّي وفخذيّ .

وقرّر أبي ذلك المساء أن يرسلني إلى مدرسة السريان الكاثوليك التي يعرف معلمها - فهو جارنا . وسيعلم منه إن كنت أداوم على الحضور ، وأتعلم الألف باء ، كالأوادم . . .

- ٣ -

كانت دارنا تتألف من غرفة صغيرة مبنية من الحجر الخشن ، تتصل بها حاكورة فيها شجرتا رمان وشجرة لوز أو شجرتان ، وتينة كبيرة ، وعلى مقربة منها «الخشيّة» المبنية أيضاً من حجر خشن ، وأمامها حوش مبلّط بالحجارة ، تتوسطه خرزة البئر ، ويتصل بحاكورة أخرى محاطة بأشجار الرمان . وبين مأوانا والخشية ، التي هي مأوى الخراف والدجاج ، ممشى يفصل أيضاً بين الحاكورتين ، ويمتد من بوابة عتيقة اختلط فيها الصفيح الصدئ بالخشب المتآكل ، وتمتد فوق جزء من الممشى فروع دالية عتيقة .

وكانت غرفتنا وخشيّتنا كلتاهما مسقوفتين بالأحطاب ، وجذوع الأشجار وأغصانها ، من الداخل ، ظاهرة التفاصيل في السقف المنخفض ، وهي تتداخل تداخلاً كثيفاً ، إذ تمتدّ من حائط إلى حائط ، وقد لُبّدت بالطين والتراب . وكان من مهام أبي وبقية أفراد العائلة بين الحين والحين ، ولا سيما قبل مقدم الشتاء ، دكّ السطح بالدرداس . . ولم يكن هذا بالطبع ليمنع الدّلف أو الخرير عندما تسقط الأمطار ، ولكنّه يقلّله ويحصره على الأغلب في الزوايا . وكثيراً ما كنت أستلقي

على ظهري ، على أرض الغرفة الترابي ، أو على الحصيرة ، وأرقب مصارعة الجرذان المعشعشة بين أحطاب السقف . وأكثر من مرة ، صرع جُرذ جرذاً آخر وأوقعه إلى الأرض ، فالتقطته قطتنا «فلّة» ببراعة ، وحملته بين شدقيها إلى الحاكورة لتأتي عليه بطريقتها القططية . كانت «فلّة» على رقتها الظاهرة ، ورقّة اسمها ، تتكشف عن شراسة النمرة حين تجابه بالفريسة . وكثيراً ما رأيتها تجابه الفئران ، وتجمّدها رعباً ، ثم تقضي عليها . ولكنها ذات يوم ، حين أقعت بوجه جرذ كبير بحجمها تقريباً ، كادت تنهزم في المعركة ، إذ راح يرفع قدمه الأمامية كالمخلب ليطعن بوزها ، غير أنها استطاعت أخيراً أن تدفعه الى الفرار والاختفاء عن العين - عن عينها على الأقل .

كانت دارنا هذه تعلوها من الخلف جدران ودور أخرى تتصاعد طبقات إلى أعلى الجبل الذي بنيت البلدة على سفحه منذ القدم . أما من ناحية بوابة المدخل ، فكان هناك الزقاق الذي يتفرّع عن مدرَّج شديد الانحدار ينزل إلى الطريق العام المعروف برأس أفطيس ، أو شارع النجمة كما سمّي فيما بعد . من الشارع كنا نصعد الدرجات الحجرية اللامنتظمة ، التي صقلتها الأقدام مع مرور الزمن ، لكي نبلغ زقاق دارنا . ولكن المدرّج - ولم يكن عريضاً جداً - كان يبدأ بعمارة فخمة على اليمين ، مبنية من حجارة «مدقوقة» منتظمة ، لها بوابة حديد صُبغت ذات يوم غابر بطلاء أبيض . وعلى اليسار جدار عال ، عند قاعدته معلف يربط عنده حمار أبيض ، كلما وقف عبر المدرج ورأسه في المعلف ومؤخرته متجهة نحو الدار الضخمة ، احتلّ أكثر من نصف المعبر . كان هذا حمار «الحكيم الرومي» ، المقيم في تلك الدار . والحكيم الرومي هذا ، لا أظن أن أحداً كان يدعوه باسمه ، أو حتى يعرف اسمه . إنه أشهر طبيب في البلدة .

والكل يطلقون عليه التسمية الوحيدة التي يحترمونها : «الحكيم الرومي» . فكنّا نراه وهو راكب حماره - المتميّز طبقياً عن الحمير الكثيرة في البلدة بلونه الأرستقراطي الأبيض ، بينما كانت الحمير الأخرى أقرب إلى الرمادي المسكين في لونها - وحقيبته في خرج الحمار الأحمر ، وهو ينهره بشموخ وأنفه بخيزرانة

قصيرة ، في طريقة إلى دار هذا المريض أو ذاك . كان «الحكيم» رجلاً قصيراً ، بديناً ، حليق الشارب ، خالط الشيب سواد فوديه ، ويلبس «البرنيطة» ، ولا يبتسم لأحدٍ ، أو لشيء .

لم تقسم بيني وبين هذا الطبيب أو حماره أية مودّة . فمن أوائل تجاربي في هذا الحي ، تجربة سجلها لي حماره المحترم وأنا في الخامسة من عمري . أردت صعود الدرج إلى البيت ، والحمار واقف على قوائمه يكاد يسدّ عرض المعبر بجثته ، وقد فرغ من علفه فيما يبدو ، وروثه وتبنه يملآن الدرجتين أو الثلاث التي في المستهلّ . تجنبتُ الروث مااستطعت ، وقصدت الفسحة الضيقة التي تركتها عجيزته للعابرين ، وهو يكشّ بذيله عنها الذباب والقراد . ولا أظنني ، حين عبرت ، تريثت طويلاً للنظر إلى ذيله وحشراته ، ولكنني ربما مددت يدي الى الذيل لأكفّ حركته عني ريثما امرّ . غير أنه بادرني بقائمتيه الخلفيتين ، وضربني «زوجاً» بتسديد هائل ، أصابني في كتفي وصدري إصابة جعلتني أصرخ عالياً ، ونفذت إلى الدرجات العليا وأنا مرتعب أبكي .

وكان ذلك درساً أليماً ، ومبكّراً في حياتي ، علّمني ألا أقترب من الحمير ، أو أن أعمل الحذر الشديد إذا اضطررت إلى الاقتراب منها ومن أضرابها .

وذات مرة أصيبت أمي بوعكة شديدة دامت يومين أو ثلاثة أقعدتها عن الحركة ، ولم أفهم بالضبط ما الذي جرى لها عندما وجدتها لا تغادر فرشتها الملقاة على الأرض ، وهي تتلوى وتئن ، وطلبت إليّ جدتي أن أنزل الدرج إلى دار الحكيم الرومي قبل أن يخرج في دورته التطبيبيّة في طرقات البلدة ، وأطلب إليه الحضور إلى دارنا لمعالجة أمي . ولو لم أدرك أن الأمر خطير على نحو ما ، لما جازفت بدخول العمارة التي يقيم فيها الحكيم ، وحماره مربوط بالمعلف على بعد خطوة أو خطوتين من الباب . تشجعت ، واقتحمت طريقي إلى الداخل . وإذا هو في الرواق يتهيأ للخروج . وقبل أن أقول له - كما علمتني جدتي - «صباح الخير ،» سألني عابساً : «وين ، وين ، يا ولد؟»

قلت متلعثماً : «أمي مريضة يا حكيم» .

- «ومن هي أمك؟»
- «أمي؟ أمي ، أ ، أ ، أم يوسف ، امرأة الحاج إبراهيم» .
- «أتريدني أن أزورها؟ أين تسكنون؟»

لا أذكر كلماته بالضبط ، التي لم أفهم منها الكثير أصلاً ، بسبب لهجته الرومية ، ولكن لا بد أنني أفهمته ما أريده ، لأنه رافقني إلى أعلى المدرّج ، ثم إلى الدار . ودخل دارنا حيث استقبلته جدتي ، بأن أنزلت مخدّة من المعزل ، ووضعتها على الحصيرة ، لكي يجلس عليها . ولم تطل الزيارة . فقد فحص أمي بشكل ما ، وطمأنها ، ثم كتب «الروشتة» وأعطاها جدتي ، ونهض ، وطلب خمسة قروش أجراً لعيادته . فقالت أمي ، وهي في ألمها مندهشة : «خمسة قروش! وماذا فعلت يا حكيم لتطلب خمسة قروش؟ زوجي يعمل من شق الفجر حتى غروب الشمس مقابل خمسة قروش» .

وأحسست أنا أنه يطالبنا بالمستحيل .

تأفف الطبيب ، ثم قال : «طيب هاتي قرشين ، أو ثلاثة» .

غير أن أمي دسّت يدها تحت وسادته ، وأخرجت «شلناً» ناولته إياه ، وهي تقول بكبرياء : «لا ، لا ، تفضل . شكراً»

أخذ الحكيم الشلن وألقمه الجيب الصغير في الصدرية التي يرتديها تحت سترته ، ولحظت السلسلة الدقيقة التي تمتد من أحد الأزرار إلى الجيب المقابل : سحبها بعناية ، وأخرج ساعة صفراء فتحها ليعرف الوقت ، ثم أطبق غطاءها البرّاق بنقرة حلوة ، وأعادها إلى جيبه . والتقط حقيبته ، وخرج .

قالت أمي : «إلى مدرستك ، يلاّ يا حبيبي ، ورُح ركضاً!»

كنت قد التحقت بمدرستي الجديدة ، وقد خاطت لي أمي كيساً أحمله حول عنقي أضع فيه لوازمي المدرسية ، وأضفت إلى دفتري الجديد كتاب قراءة ، ودفتر «خط» . أخذت الكيس ، وانطلقت نزلاً في اتجاه «الطريق الجديدة» ، حيث كانت المدرسة : وهي أيضاً غرفة واحدة كبيرة بنيت قرب كنيسة حديثة التشييد ، ملأى بالمقاعد الطويلة .

دخلت المدرسة ، فأوقفني المعلم صموئيل ، وقال بالفصحى : «لماذا تأخرت يا فتى؟» .

قلت : «أخذت الحكيم الرومي لأمي» .

فقال : «ولماذا؟ أهي عليلة؟»

قلت : «بطنها توجعها ، معلمي» .

ضحك الأولاد ، كأنني رويت لهم نكتة ، وقال المعلم ، متمتعاً بألفاظه : «قل إنها مريضة . . . حسناً ، شفاها الله . اجلس مكانك» .

كنا أنا ورفقتي ، كلما تكلم المعلم صموئيل ، ندهش للكلمات الغريبة التي تتساقط من شفتيه ، ولا نفهم الكثير منها ، ولو أننا قد نحزر معناها - أحياناً . علّمنا الألف باء في أسبوع أو اثنين ، ثم أعطانا كتاباً للقراءة ، وجعل يسرع بنا عبر صفحاته ، باعتبارها مما لا يستحق التريث عنده طويلاً . راس روس ، دار دور ، نقرأها ، ونكتبها بنسخها عن الكتاب . ويأخذ دفاترنا ويصحّحها بحبر أحمر جميل ، ويعيدها إلينا ، وهو يقول : «خرابيش الدجاج - هذا خطكم!»

وبين دروس القراءة والخط كان يروي لنا قصصاً من قبيل التربية الدينية . فقصّ علينا كيف جبل الله طيناً وخلق منه بشراً سمّاه آدم . وفيما كان آدم نائماً تحت شجرة من أشجار الجنة ، أخذ الله ضلعاً من صدره وخلق منه امرأة سمّاها حوّاء . وقص علينا قصة محزنة : كيف أن قايين المجرم قتل أخاه الطيب هابيل . ولما كنت أتصور الله وهو يجبل الطين كما يجبله عمال البناء الذين أراهم في أماكن كثيرة من بيت لحم ، تصورت وجه قايين الرهيب ، وعلى جبينه وصمة اللعنة التي وصمه الله بها ، وقد هام على وجهه في البراري والمدن ، فأنظر في وجوه الناس في الطرق ، وفي جباههم ، متسائلاً إن كان قايين واحداً منهم .

عندما أخذت مكاني على المقعد ذلك الصباح ، كان المعلم يتحدث عن الطوفان وسفينة نوح التي ملأها طيوراً وحيوانات . وخطر ببالي حمار الحكيم الرومي ، وتمنيت لو أن نوحاً ترك جدّ الحمار الأول لمياه الطوفان ، ووفّر علينا ذلك الحمار العنيد الذي يسدّ علينا الطريق ، ويهدّد العابرين بزوج من حافريه المخيفين .

وفي عصر ذلك اليوم ، عند انتهائنا من ا لدروس . شعرت أنني محصور جداً ، ورفعت أصبعي ، وقلت للمعلم : «اطلع برّا ، معلمي؟»

قال : «كلنا سنخرج بعد لحظات» .

وإذا جاري سليم يرفع أصبعه ويقول : «معلمي ، معلمي ، لازم اطلع برّا!»

فنهره المعلم : «انتظر قليلاً! سنخرج كلنا بعد تلاوة «السلام عليكم» . ثم صاح : «قيام!»

فوقفنا جميعاً ، وأنا أراوح على قدميّ ، ضابطاً مثانتي بأقصى جهدي ، ولاحظت أن جاري لاتقلّ حاله كرباً عني . وأردف المعلم : «صلاة!» .

وأخذنا نصلّي : «السلام عليك يا مريم ، يا ممتلئة نعمة ، الرب معك ، مباركة أنت بين النساء . . .»

ولم نكد ننتهي من التلاوة حتى رأينا سيلاً حييّاً يترقرق من تحت المقاعد في اتجاه المعلم . «سوّاها» سليم . لم يستطع ضبط نفسه . وانفجر الصبية ضاحكين : «شخّ تحته سليم ! شخّ تحته!»

وعاط بنا المعلّم : «اخرجوا يا قليلي الأدب!»

ولو تأخرنا دقيقة أخرى ، لشاركت جاري في جريمته . انطلقتُ كالرصاصة في اتجاه الحاكورة الخلفية ، وأفرغت مثانتي تحت التينة الكبيرة ، والصبية ما زالوا يتصايحون ، وعندما عدت إليهم كان سليم يبكي ، وقد تبلّل بنطلونه القصير وساقاه بشكل فاضح .

وفي أثناء عودتنا ، رأيت الحكيم الرومي يهرول على حماره . مرّ بنا ، وتوقعت منه سؤالاً ، أو كلمة تدلّل على أنه يعرفني ، غير أنه بقي مسرعاً وهو يضرب جانبي حماره الأبيض بركبتيه ، وينقنق له بلسانه ، وقبعته رابضة على قمة رأسه كطير غريب . وتساءلت : هل شفيت أمي وقامت على قدميها ، أم أنها ما زالت طريحة الفراش؟ وأسرعت إلى الدار ، قبل أن يعود الحكيم ، ويربط دابته اللعينة في مدخل الدرج .

- ٤ -

كان أخي يوسف يكبرني بأربع سنوات ، ويبدو لي ، مع أصدقائه ، أنه ينتمي إلى عالم غير عالمي - عالم الكبار . لا يقول كلمة إلاّ وأفتح أذنيّ لسماعها ، فأشعر أنه يدخلني الى عالمه . وهو أيضاً كان يذهب إلى المدرسة ، ولكنه يلازم أقرانه في السن ، أو من هم أكبر منه ، ولا أراه أحياناً بعد خروجه صباحاً إلاّ عند عودته إلى الدار ، وقد لا يعودحتى المساء .

وكان له ، فضلاً عن كتبه العربية ، كتاب إنكليزي ، في كل صفحة منه صورة تخطيطية أو صورة ملونة . وكثيراً ما أجلس بجانبه ، فيطلعني على الصور ، ويتباهى بمقدرته على قراءة ما تحتها من كلمات إنكليزية لم يكن قد جاء دوري لتعلمها .

وجاءني ذات مساء بصندوق من الورق المقوّى ، وقال : «أتدري ما هذا الصندوق؟ إنه صندوق الدنيا . تعال ، وتفرّج» .

كان في الوسط فتحة مستديرة جعل فيها عدسة مكبّرة كنا نسميّها «بنّورة» (بلّورة) . وضعت عيني اليمنى عليها وأغمضت اليسرى ، وأخذ أخي يدير من

أعلى الصندوق واحداً من محورين جانبيين فيه ، بينهما يتحرّك شريط ورقي لصقت عليه صور من كل نوع ، وتتسلسل الصور في الداخل بدوران المحور ، أمام العدسة ، وقد تكبّرت ، وتشوّهت ، واكتسبت فتنة غريبة .

سحرني صندوقه وتمنيت لو يبقيه في البيت تحت يدي ، ويسمح لي بأخذه إلى أصدقائي للتفرّج عليه . غير أنه أخفاه عني ، وعجزت عن العثور عليه .

في عصر أحد الأيام ، إذ كنا أنا وعبده نلعب في ساحة المهد ، رأينا صندوق الدنيا الحقيقي . كان صندوقاً خشبياً ضخماً ، أزرق اللون ، في وسطه ثلاث عدسات كبيرة ، يقيمه صاحبه على قاعدة متنقلة ، وقد زيّن أعلاه بمرايا وصور ملونة لنساء وفرسان وخيول ، ويصيح : «تعال تفرج يا سلام ، على عجايب الزمان! . . . الفرجة بتعريفة يا ولد! تعال تفرّج يا سلام . . . .» وتحرّقنا أنا وعبده للفرجة ، ولكن من أين لنا «التعريفة» العزيزة؟

وقفنا قرب الصندوق نتفرج على شكله وزينته ، إلى أن جاء رجلان أو ثلاثة ، أجلسهم صاحب العجائب على صناديق أمام الفتحات الزجاجية ، وألصقوا عيونهم بالعدسات ، وراح هو يدير المحور من الأعلى ، ويتغنى ، بكلام مسجوع ، بعنتر وعبلة ، والزير سالم ، أبي زيد ، وكوكب الشرق ، ومنيرة المهدية ، ونحن نصغي إليه ، نتأمل في الصندوق الحاوي كل هذه البدائع ، ونموت من الحسرة . وتجمّع الصبية حوله ، وكلهم مثلنا يصغون ويتحسّرون – ثم جلس آخرون أمام العدسات يتفرّجون ، وبعدهم جاء غيرهم . وبغتةً أخرج صديقي من عبّه قطعة من كعكة بالسمسم ، وقال لصاحب الصندوق : «أتفرّجنا أنا وصاحبي بهذي الكعكة؟»

فأجابه : «أنت وصاحبك بهذي الشقفة؟»

قال : «نعم ، أنا وصاحبي» .

أخذ الكعكة ، وعضّ منها لقمة ، وقال وهو يمضغها : «طيب . يلاّ .

أقعد أنت هنا . وأنت ، أقعد هناك» .

في الواقع ، لم يكن قد بقي من الزبائن إلا واحد ، فأجلسنا معه . وراح

«يشعر» و «يفسّر» والصور الملونة الزاهية تتوالى وراء العدسة السحرية : صيادون، وخيولهم، وكلابهم، وملوك، وجنود يتساقطون قتلى، ونساء شبه عاريات . . . . لم يكن بين ما يرويه وبين الصور إلاّ أوهى العلاقة . غير أن الإيحاءات كانت هائلة . وسرعان ما انتهى العرض .

مساء ذلك اليوم عاد أبي من العمل ومعه إطارة مطاطية قديمة . جاءته أمي بالطشت وغسلت قدميه، وانتبهت أنا إلى ضخامتهما . كأنهما من صخر . ثم غسل وجهه، ونشّفه . وبعد ذلك جاء بصندوق العدّة . وكان يحتوي على مطرقة، وسندان، وكلاّبة، وسكاكين غريبة حادة، وحجر مِسَن يلمع سواده بما عليه من زيت، ومسامير من كل نوع، وأزاميل، ولفائف من الخيوط المشمّعة والأسلاك . وتناول إطارة السيارة، واقتطع منها قطعتين بإحدى السكاكين، بمشقة، وأدخل قدمه اليمنى في تجويف إحداهما، وخطّ بالسكين إشارة عند أصابع قدمه . ثم أخرج قدمه منها، وقصّها وفق الطول المحدّد . ثم فعل ذلك بالقطعة الأخرى . وأنا أرقبه وأتابعه .

بعد عناء كثير، ثقب في جوانب القطعتين ثقوباً أدخل فيها حبلاً رفيعاً في هذه وتلك، وأمي تروح وتجيء بالقبقاب، تخرج إلى الحوش لتتأكد من غليان «الطنجرة» على نار الموقد، وتصيح بي وبأخي : «جيبوا لي حطبتين! اسحبوا سطلاً من الماء! املؤوا الزير . . .»

في هذه الأثناء انتهى أبي من عمله : وجدته يلبس قطعتي الإطارة المقوّستين في قدميه، ويشدّ كلاً منهما بالحبل حول كاحله . وقال مزهواً بما صنع : «شايفة يا مريم؟ أحسن وطا!»

لم يرق لي مشهد هذا «الوطا» . فقلت : «يابا، لماذا لا تشتري حذاءً من الكندرجي؟»

قال : «عندما تكبر، تفهم . أتعلم كم قرشاً يريد الكندرجي للحذاء؟ عشرين قرشاً . وإذا تساهلت، خمسة عشر قرشاً . . . حذائي القديم يتهرأ بالاستعمال . ولهذا سأحتفظ به لأيام الأحد . . فما رأيك يا أفندينا؟»

أخرج قدميه من المطاطتين ، وقال : «يلا نتعشّى . عندي الليلة قصة جديدة أحكيها لكم . قصة «العَشْرويّة .»

قلت لأخي : «أين صندوق الدنيا؟»

قال ضاحكاً . «أعدته إلى أصحابه»

قلت : «تفرجت اليوم على صندوق الدنيا الكبير ، في باب الدير . يطيّر العقل!»

قال : «والله لو كان عندي صور ، لصنعت لك أروع صندوق» .

هنا تدخل أبي ، قائلاً : «شو يا جماعة . بدناش نحكي قصة الليلة؟»

قلنا جميعاً : «طبعاً ، طبعاً ، بدنا ، يابا .»

كان اليوم التالي الأحد ، ويوم الأحد لا نذهب الى المدرسة ، بل يذهب الجميع إلى الكنيسة . أما أنا فقصدت إلى دار عبده ، وأحضرته معي إلى دارنا ، ومعه صندوق كرتوني من صنادق الأحذية ، كان أبوه قد جاء به قبل يومين . وقضينا ذلك الصبح في تهيئة مواد المشروع : ورق جرائد للشريط ، وقنينة صمغ ، وقطعة زجاج تعوّض عن «البنّورة» ، وعودين أحضرناهما من كومة الحطب التي تجمّعه أمي وجدتي للوقود . . .

بعد ساعتين أو ثلاث كان كل شيء قد اكتمل - إلاّ الصور . أسرع عبده إلى البيت ، ثم عاد ومعه ثلاث أو أربع صور فوتوغرافية كالحة من صور العائلة ، لم تعجبني كثيراً . وعندها تذكرت كتاب أخي الإنكليزي . كان أخي غائباً مع أصحابه في رأس افطيس ، أو في ملعب «دير أبونا أنطون» . وجئت بمقصّ أمي - وهي بانشغالها لا تعلم ما الذي نحن منهمكان به في الحاكورة - ورحنا نقص الصور عن كل ورقة ، ورقة بعد أخرى ، ونلصقها على الشريط ، إلى أن لم يبق من الكتاب إلاّ القصاصات . ولكي لا ينفضح أمرنا بشأنه ، اقترح عبده أن نحرق تلك القصاصات ، ونخلص منها . وهذا بالضبط ما فعلنا : خرجنا إلى الزقاق ، وأشعلنا النار فيها . وهكذا ، في دقيقتين ، أخفينا معالم السرقة ، .

وأخذنا صندوق الدنيا إلى أصحابنا نفرّجهم عليه ، ونثير فيهم الدهشة

والغيرة . سميناه «السينما» . «سينما ابّلاش! سينما بلا مصاري!» كنا نصيح .

ولكن سرعان ما ندمنا على كرمنا . فقد تجمّع صبية الحارة كلهم ، وأخذوا يتخاطفون «السينما» . فانبعج الصندوق ، ثم تفرفط بين أيدينا . وقعت الزجاجة عن مكانها ، ثم سقط الغطاء ، ولم يبق إلاّ شريط الصور . وعندما حاولت إنقاذه ، جرّ أحدهم طرفاً منه ، وتمزّق ، ثم جرّ آخر قسماً آخر ، ومزّقه . وأخيراً جلسنا أنا وعبده على عتبة إحدى الكاكين المغلقة ، وبين أيدينا بقايا مشروعنا المحطّم . ثم تركني عبده وذهب إلى البيت . واستبدّ بي الإحساس بالقهر ، وبكيت .

ولم يبق لبؤسي لكي يكتمل إلا أن يمرّ أخي برفقة جماعته ، والشمس تغيب ، ويراني مكوّماً في الركن من مدخل الدكان المغلقة ، وجاءني مرحاً يقول : «يلاّ . إلى البيت» .

ورغم محاولتي إخفاء دموعي ، أدرك يوسف ما أنا فيه من بؤس ، وقال : «أتبكي؟ من ضربك؟ قل لي من ، حتى أكسر لك رأسه» .

أشرت إلى الصور الممزّقة ، والمبعثرة عند قدميّ ، وقلت : «صندوق الدنيا ، فتفتوه!»

تناول بعض المزَق ، ثم ألقى بها عنه . وأنهضني من مكانني قائلاً : «أعلى هذا تبكي؟ سأصنع لك ألف صندوق . . . تعال» .

ولكنني ، حين خطر لي ما الذي سيفعل بي ، عندما يكتشف أنني قصقصت كتابه ، جعلت أبكي من جديد ، وأنا أسير معه . وإذا هو يسألني : «من أين دبّرت الصور؟»

سلّمت أمري لله وقلت : «من كتابك الإنكليزي» .

فصاح : «إيش؟ شو بتقول؟»

كررت : «من كتابك الإنكليزي» .

فتوقّف عن السير ، وتوقعت منه أن يلكمني . وهو قويّ جداً ، ومعروف بين أصحابه بأنه مستعدّ دائماً لضرب من يتعدّى عليه ، كبيراً كان أم صغيراً .

جابهني ، وأمسك بكتفيّ ، وعطتُ أنا في بكائي . غير أنه قال :

«اسكت ! يلعن أبو الكتاب! بكرة بجيب غيره . بس أسكت ، أسكت !»

والتفت حوله يميناً ويساراً ، بكبرياء قال : «لا أريد أن يراك أحداً يوماً تبكي . أبداً! فاهم؟»

قال ذلك ، وجرّني من يدي ركضاً إلى البيت .

- ٥ -

كانت مزيّة «الخشاشي» (كما كنا نسمّي بيتنا ذاك) وجود الحاكورتين اللتين تحويان عدة أشجار رمان ، ولوز ، وتينة كبيرة ، ودالية تحاول عبثاً الانتشار فوق المدخل المؤدّي إلى الدار . فيهما قرأت أولى الكلمات ، وخططت أولى حروف الأبجدية . فيهما دهشت حين رأيت أمي ، عصر يوم بارد ، تلفّ كتفيها بحرام لترافق أبي إلى مستشفى راهبات المحبة ، وبعد يومين أو ثلاثة تعود إلينا ومعها طفل صغير في قماط . ولما سألتها : «من أين جئت به؟» قالت مستضحكة : «من المستشفى ، يا حبيبي» وكان الطفل أخي عيسى الذي يصغرني بستّ سنوات ، والذي بقيت مدة طويلة أتصوّر أنه هبة من المستشفى!

وفي الحاكورتين غنيت أولى الأغنيات ، وأنشدت أولى الأناشيد التي بدأت أعي بعض معانيها ، وكان أخي يوسف هو معلمي في معظم الأحيان ، إضافة إلى معلمنا الوحيد في مدرسة السريان الأرثوذكس ، المعلّم جريس .

وفيهما بدأت أعي الفوارق بين طبائع الناس وتصرفاتهم ، وأعجب كيف أنهم لا يطيعون تعاليم آبائهم ، ولا مواعظ قسسهم ورهبانهم .

وفي الحاكورتين جمعت لأول مرة عدداً من رفقتي ، لنمثّل مسرحية كالمسرحيات التي رأيناها في «دير أبونا أنطون» . وكرّرنا تمثيل المسرحيات ، وهي تنتهي دائماً إلى عراك كنت أصرّ على المضيّ فيه إلى أن يعترف الآخرون بأنني أنا الغالب . وكانت نتيجة هذا الإصرار مأساة حقيقية صغيرة ، تركت أثرها في وجهي حتى اليوم . ففي إحدى النهايات «العراكية» تألب عليّ عدد من الصبية ، وبينهم أخوان مشهوران بالعضّ . فلما قاومت ، ولم أعترف بالهزيمة ، تحول «التمثيل» ، دون أن أنتبه ، إلى شجار حقيقي ، وعضّني أحد الأخوين في خدّي عضةً انتزعت قسماً من جلدي ولحمي ، وفي الوقت نفسه غرز الآخر أسنانه في صدري ، وكاد يقتلع حلمتي! ولم يتركاني إلا عندما رأيا الدم يملأ وجهي ويسيل على ثيابهما ، وأنا أزعق وأبكي .

وفي بيتنا ذاك ، وعيت لأول مرة قسوة الطبيعة ، ورعبها ، يوم أفقت على بردٍ شديد ، إذ غادر أبي الفراش ، وكنت أنشد الدفء على صدره فلا أنام إلا قربه . وإذا هو مع أمي وجدّتي وأخي يدفعون ركام الثلج ، الذي تساقط طيلة ساعات الليل ، عن الباب . وذلك أن أبي أراد فتح الباب ليرى الوضع خارج الدار ، فاندفع الثلج أكواماً مع انفتاح الباب إلى الداخل ، ورحنا جميعاً نحمل الثلج بالأيدي ، أو بما تيسّر من أوانٍ ، الى الخارج ، ولكن أين نقذف به ، والثلج في كل مكان إلى ما هو أعلى من الركبة؟

يبدو أن أبي كان يتوقع هجوم الثلج هذا ، وصنع عصا ثبّت في أسفلها مثلّثاً من العصي ، راح يدفع بها التراكمات عن الباب ، ونحن نعينه ، إلى أن فسحنا مجالاً للخروج . وأبي في أثناء ذلك يردّد ، وهو يصعّد عينيه بقلق إلى أحطاب السقف : «أنا خايف على السقف من الانهيار . يجب أن أصعد الى السطح قبل أن يسقطه الثلج علينا .» وخطر لي أن الدار قد تنهار علينا قبل أن يستطيع أبي أن ينقذ الموقف .

أردنا الخوض في الثلج مع أبي ، غير أنه منعنا ، وأعادنا إلى الداخل ، بينما راح هو ، وساقاه تنغمران في الثلج الناعم حتى ركبتيه ، يشق لنفسه طريقاً ،

وعصاه ذات المثلث في يديه ، وتسلّق إلى سطح الدار ، وجعل يزيح عنه ركام الثلج ، بدفعه الى الحاكورة الجانبية ، ونحن نسمع خبطه من الداخل . ولم يعد إلينا إلاّ بعد أن أخلى السطح ، وأزال عنه خطر الانهيار .

والمزية الأخرى لبيتنا ذاك كانت قربه من ملعب «دير أبونا أنطون» ، بحيث لا يستغرقنا الذهاب إليه إلا بضع دقائق .

فإذا أردنا الذهاب إليه ، تسلّقنا جداراً خلف الدار ، مهّدهُ أبي على شكل مدرّج ليسهّل صعودنا عليه . ومنه نسلك طريقاً بمحاذاة حواكير عليا ، تختصر المسافة إلى الملعب كثيراً . وكانت أولى هذه الحواكير يؤدي مدخلها إلى دار بطرس الكندرجي . وهو رجل متين ، غليظ الرقبة ، دائم العبوس ، كنا نخشى التقاءه صدفةً ، لأنه لا يبادرنا إلا بالسؤال عن اتجاهنا ، وهل دخلنا أرضه ، وهل سرقنا البيضات الأخيرة التي وضعتها دجاجاته ، وهل هرّبنا أرنباً من أرانبه؟ وما كنّا لنجرؤ على شيء من ذلك ، لأنّ له كلباً ضخماً أسود ، يربطه في كوخه في معظم الأحيان لشراسته ، ونباحه المرعب يطلقه حالما يشتمّ رائحتنا من بعيد .

ولكن يبدو أن بطرس الكندرجي (كان له دكّان يصنع فيه الأحذية في حارة العناترة) مبتلى بالقطط التي كثيراً ما غزت خمّ دجاجة ووكر أرانبه ، رغماً عن كلبه الغليظ . وقد أتقن فن مطاردة القطط بنبّوت أو قضيب من الحديد . وإذا ما أسقط له منها ضحيّة ، وضعها في كيس يربط فتحته بإحكام . ثم يصيد قطة أخرى ، وربما ثالثة ، ويحشرهما في الكيس مع الأولى . ثم يأخذ بخبط الكيس على صخرة بعتوّ عجيب ، والقطط تزعق ، إلى أن تموت ، ولا ندري هل كان يدفنها بعد ذلك ، أم يحرقها ، أم يحملها إلى المزبلة القريبة ، وقال البعض إنه يخرج أمعاءها ، ويجفّفها ، ويستعملها في خياط أحذيته!

وقد عرف الناس ذلك عنه ، بحيث اعتبروه خبيراً في التخلّص من القطط ، يرجعون إليه كلما ابتُلوا بها هم أيضاً . وقد يتبرّع بتقديم خدماته ، وبخاصة لجيرانه . وهذا ما فعله حين جاءنا ذات يوم حاملاً نبوّته وكيسه المشؤوم ، وقال وعيناه الصغيرتان تتجوّلان في أرجاء الدار :

«رأيت عندكم هراً كثير الحركة» .

قلنا : «لا ، هذه قطتنا فلة . وهي تنهض وتنام معنا في داخل الدار ، وتقضي على الجرذان» .

وقال : «كلام فارغ . أنتم لا ترونها عندما تصعد إلينا ، لتفترس صوصاً أو أرنباً صغيراً بين حين وآخر» .

قلنا : «أبداً يا عم بطرس . إنها شبعانة ، وقانعة بالحياة معنا» .

قال : «جئتكم لأخلّصكم منها» .

قلنا : «بارك الله في همّتك . ولكننا لا نريد التخلص منها» .

فصاح بشيء من الغضب : «والله يا ناس لا تستحقون الخدمة !» وتأبط كيسه ونبوته بنفرة ، وعاد إلى بيته .

بعد دار بطرس الكندرجي ، كنا نمرّ بدار قديمة تتألف من بيتين صغيرين بُنيا على حافة الحاكورة المشرفة على الطريق ، يسكنها العم حنا ذيبان مع عائلته . وهو على العكس تماماً من جاره : رجل ضرير ، يجلس متربعاً على صخرة قرب الباب ، لتحية الغادي والرائح ، كثير النكتة والمرح . وكثيراً ما يحتضن عوداً يعزف عليه ، ويغنّي .

وكان أولاده مثلنا يترددون على ملعب الدير ، وهم أيضاً أعضاء في فرقة الكشّافة وفرقة الموسيقى ، وأصغرهم ، اسكندر ، زميل لي في فصيل الأشبال . كان أبوه يدعى إلى إحياء حفلات الأعراس - مع اثنين أو ثلاثة من رفاقه ، يؤلّفون تختاً معاً : أحدهم نجّار يعزف على الكمان ، وآخر منجّد يعزف على الدفّ ، وثالث سمكري جميل الصوت يجيد غناء المواويل . وكان اسكندر يستصحبني إلى بعض تلك الأعراس ، لأتلذذ بغناء وعزف أبيه مع بقية تخته ، وقد صُفَّت أمامهم ، على طاولة صغيرة ، كؤوس العرق وصحون المازة - وهي كل ما يريدونه من «أجر» .

لم يكن هناك يومئذ مذياع يغني فيه المطربون ليلاً ونهاراً ، حتى السأم . كان الناس جميعاً يغنون ، أو على الأقل يجرّبون أصواتهم ويرفعونها ، كلما هزّتهم

العواطف . غير أن الأعراس كانت مناسبات مهمة لسماع المغنين الجيدين وهم يتغنون بأغانيهم بمصاحبة العود والكمان ، والدربكة والدف ، ويرافقهم المستمعون بنشوة خاصة . لأن الأيام قد تمرّ ولا تُسمع فيها أغنية جيدة إلا من دكاكين ورُش الصَّدف ، حيث يعمل الصدّافون الماهرون جالسين على الأرض ، ويغنون أغاني جماعية على إيقاع مناشيرهم ، ومخارزهم ، ومبادرهم ، ومطارقهم - ولكن بالطبع دون مصاحبة أية آلة . فالآلات عزيزة ، وأصحابها «الآلاتية» لا يحظى الناس برؤيتهم وسماعهم إلاّ في الأفراح . وكلما مررت في طريقي إلى ملعب الدير بالعم حنا ذيبان الضرير ، كنت أتخيّله يعزف على عوده ، وبعزفه وغنائه يملأ الطريق فرحاً حتى بلوغي بوّابة الدير .

في تلك الأثناء عاد المعلم جريس من بعد انتظار طويل من أبويّ ، وآباء رفقتي جميعهم . واستبشروا بعودته خيراً لأكثر من سبب : فهو معلّم أولادهم المشهود له بمعرفة العربية والسريانية والإنكليزية ، وهو شمّاس كنيستهم المتميّز بصوته الرخيم ، حتى أنه ليحوّل القداس صباح كل أحد إلى جنّة صغيرة من عذوبة الترتيل .

وقد حوّلوا الغرفة الفسيحة الواحدة ، التي تعلو «الخرابة» ، إلى مدرسة . فمنذ أواخر العهد العثماني كان رجال الطائفة قد اشتروا خرابة قديمة ، قرب سوق البلدية ، لعلها كانت في يوم من الأيام قصراً كبيراً لكثرة ما فيها من غرف متداخلة ومتراكبة ، غير أنها الآن مهدّمة ، والغرف الأرضية منها اختنقت أبوابها ونوافذها بركام الحجارة الساقطة .

وإذا ما أزيحت الحجارة ، كانت روائح العفن والقدم ، في الظلمة التي لم تمسّها الشمس سنيناً عديدة ، تفوح منها وكأنها روائح الأزمان الغابرة .

قبل دخول المدرسة ، وفي أيام العُطل ، كنا نلعب في غرف هذه الخرابة - وتسمّى «خِربة الكنيسة» - بقدر ما نجرؤ على مجابهة العفن والظلام ، ونتخيّل أنها ملأى بالمردة ، وأن هناك رصداً يحرس الخرابة ، ويسدّ الطريق على من يريد دخولها . وكان تحدّي الرصد والمردة عملاً شجاعاً ، لا يخلو من خطر . إذ قد يعود

المتحدّي بعد قليل مرتعباً وهو يقسم أنه رأى مارداً عملاقاً أبيض الشكل، أراد فشخ رأسه بحجر كبير، لولا أنه استطاع الهرب من بين يديه. وقد غافلت أصدقائي وتحدّيت المارد أكثر من مرة، باقتحام بعض الغرف المهدّمة، ولكنني لم أره، لحسن حظي، أو لسوء حظه... غير أن الرعب كان لذيذاً، ينتهي بخروجي إلى النور، لاستئناف لعبة «الشّبيرة» أو «سنبلة السنبيلة» مع الآخرين، بينما يكون العديد من آبائنا، المتبرّعين بالعمل أيام بطالتهم الكثيرة، منهمكين برفع الردم على ظهورهم وبناء الكنيسة الجديدة.

وقد ألفّ ذراعي حول خصر أول رفيق يصادفني، فنقفز تلقائياً معاً، ويصيح أحدنا، ويجيب الآخر، مؤكداً على إيقاع الكلمات:

- يا عونيا!
- وين الجمل؟
- في القنزعة؟[1]
- شو بيوكلي؟
- حبّزاً قلي.
- وشو بيشربي؟
- قطر الندى...

ودائماً أتخيّل «عونيا» بدوية سمراء سوداء العينين، خمريّة الخدّين، تترنّح جدائلها المسترسلات فوق نهديها تسقي جملها المحبوب، قطر الندى من راحتي كفّيها.

أو قد يبدأ الواحد منا بالدوران، فيدور معه الآخر على إيقاع كلماتنا:

حمامة طيري طيري
سلمي لي على سيدي
سيدي في عكا

---

(١) تلفظ القاف دائماً على الطريقة البدويّة.

أعطاني شقفة كعكة
والكعكة جوا الصندوق
والصندوق مالو مفتاح
والمفتاح عند الحدّاد
والحدّاد بدو بيضة
والبيضة عند الجاجة

والجاجة بدها قمحة
والقمحة في الطاحونة
والطاحونة مسكّرة
فيها ميّة معكّرة
وهون مقص وهون مقصّ
وفي عرايس بترقص رقص ....

أو قد أتحدّى رفيقي باللعب بالفُرّانة («الفرّارة») ، إذا كان لدى كل منا واحدة . وشكلها إجّاصي يستدقّ إلى رأس مسمار برّاق : أدير حولها الخيط الغليظ ابتداء من طرفها الدقيقة وصعوداً نحو جسمها العريض المزيّن بدوائر ملوَّنة ، وهكذا يفعل رفيقي بفُرانته ، ثم نقول معاً : «واحد ، اثنين ، ثلاثة!» ويقذف كلانا بحنكته الخاصة بالفرّانة على أرض مبلّطة ، لتدور بسرعة هائلة على مسمارها ، وتتقافز ، وتحافظ على توازنها . والرابح من تبقى فُرانته في دورانها مدة أطول من الآخر .

أما «البلبل» ، فيحتاج إلى براعة أكبر ، لأن كلاً منا ، بعد أن يقذفه من خيطه الجلدي ليدور ، وله شكل أشبه بحرف T ، يروح يسوطه بهذا الخيط على ساقه بحيث يلتف عليها وينسحب بسرعة ، فيزيد من دورانه وتراقصه ، وتنطلق منه نغمة ناعمة ، كأنه يغنّي ، وكلما اشتد دورانه ، ازداد تراقصه ، وعلا غناؤه .

غير أن لعبة الـ «طقّة وإجري» تحتاج الى مكان فسيح أرضه غير مستوية . وهي تتألف من عصا وخشبة مستطيلة قصيرة ، توضع على نتوء في الأرض ، بحيث

يكون طرف منها مرتفعاً قليلاً ، وبالعصا يضربها أحدنا على ذلك الطرف «طقّة» واحدة ، لتقفز في الهواء ، وقبل أن تعود وتسقط ، يضربها بقوة بالعصا مرة أخرى ، لتطير مسافة بعيدة ، وهو يركض في إثرها حيث تسقط ، ويستأنف الكرة . وإذا أخفق في أية «طقة» ، تناول الآخر العصا منه ليلعب بدوره .

يدقّ المعلم الجرس ، ونتجه بعد شتاتنا المنتشر ، نحو الغرفة الكبيرة المتكاملة الوحيدة ، المبلّطة ببلاط بديع التزويق . يجلس المعلّم إلى منضدة في الصدر رُتّبت عليها كتب القراءة والحساب ، وعدد من العصيّ المتباينة الطول والمتانة ، لمعاقبة الكسالى ، والمشاغبين ، ووراءه اللوح الأسود . وعلى اليمين واليسار منه نافذتان طويلتان ، الغربية منها تطلّ على الخرابة ، وترى منها جرسيّة دير أبونا أنطون العالية وساعتها الدقّاقة ، والشرقية ترى منها عن بُعد قباب كنيسة المهد ، والجبال التي وراءها .

ويجلس الصبية على مقاعد مدرسية طويلة رُتبت في صفّين ، بينهما الممشى الذي يؤدي إلى منضدة المعلّم ، وبين المقاعد وبين الجدارين على اليمين واليسار مسافة كافية لاندساس الصبية في أماكنهم . كانت هناك خمسة أو ستة «بنوك ، في كل جانب ، يتسع كل منها لخمسة طلاب وقد يجلس سبعة أو ثمانية ، أو أكثر ، متلاصقين ، إذا اقتضت الحاجة . والكبار منهم يحتلّون «البنوك» الأمامية ، ويتدرّجون إلى الخلف حسب «صفوفهم» .

أعلى الصفوف ، وأقربها إلى المعلم ، هو الأول . وفيه أخي يوسف وعدد ممن الأولاد يكبرونه سناً . ويليه الثاني ، ثم الثالث الذي جُعلت فيه مع عدد من رفاقي يبلغ السبعة أو الثمانية . ووراءنا صفّان آخران من الأطفال ، من سن الرابعة أو الخامسة ، حتى العاشرة ، ممن كنّا نسمّيهم «أولاد الألف باء» . هؤلاء كان المعلم جريس يعهد للأولاد «الكبار» بتلقينهم الأبجدية والصفحات الأولى من القراءة . وجاء وقت كلّفني فيه أنا أيضاً بتعليم مجموعة منهم القراءة - كنت عندها في الثامنة من عمري وكان ذلك أول عهدي بالتدريس ، مما جعلني أحلم لسنين عديدة بعد ذلك بأن أكون معلّماً ، كأفضل ما يمكن أن أكون في الحياة .

صفاً صفاً يتعامل المعلم مع تلاميذه : يُنزل الصف الواحد ليكوّن أفراده نصف دائرة على جانب من منضدته جاعلاً «أشطرهم» أقربهم إليه ، ويرتّبهم حسب «علاماتهم» نُزلاً ، إلى أن يكون أغباهم في نهاية الخط ، ويسمّيه الجميع «الطُشّ» ويقرؤون له ، ويقرأ لهم ، وإذا غضب على كسل واحد منهم ، أنزله درجتين أو ثلاثاً على الخط ، أو قد يرسله إلى نهاية الخط ليكون «الطش» ويضحك عليه الجميع ، هذا إذا لم «يطعمه» أيضاً ضربتين أو أكثر على راحة يده بإحدى العصيّ التي على منضدته . وإذا رضي عن أحدهم ، «رفّعه» درجةً أو اثنتين ، أو أكثر ، بمقدار رضاه .

وقد احتفظ أخي بمكانه في رأس الخط من صفّه طيلة المدة التي قضاها في تلك المدرسة ، في حين أنني كنت أحتل أحياناً المكانة الأولى وأحياناً المكانة الثانية من الخط في صفّي ، لأنّ الذي يضعه المعلم بين آونة وأخرى في الرأس هو ابن الرجل «الوجيه» الذي خصّص للمعلم غرفة لسكناه مع زوجته مجاناً قرب المدرسة . وقد كان بقاء أخي الأول في صفّه أشبه بمعجزة : فالمعلم جريس يقول دائماً ليوسف : «آخ! إنك تذكّرني بابني إبراهيم! لك وجهه وحركاته! ذهب مع عمه إلى أمريكا ، ولن يعود . . . .» وقد كان يوسف عن حق «أشطر» أولاد صفه ، غير أن المعلّم لم يكن في حقيقة الأمر يتبع «علامات» الطلاّب ، كما كان يزعم ، بل أهمية آبائهم ، ومكانتهم في حياة الطائفة ، وكلهم أميون . ورزقه ، فضلاً عن راتبه الشهري ، يعتمد على رضاهم .

قد يفاجئ الواحد منهم المدرسة بالزيارة ، فيرحّب المعلم به ، ويجلسه في الصدر على الكرسي الآخر الذي يبقيه احتياطاً قرب كرسيه ، وينزل بعض التلاميذ ، ومعهم كتب القراءة ، أمام الضيف ، ومن ضمنهم بالطبع أحد أبناء هذا الضيف ، ويرفعه فجأة إلى رأس الخط ، كأنه الأول فيهم ، ويطلب إليهم أن «يسمّعوا» الدرس – وهي طريقته في التعليم . فيُبدي الضيف إعجابه بالفصحى التي لا يفهمها . وبالطبع ، يُدعى المعلم إلى العشاء ذلك اليوم ، أو اليوم التالي ، عند الأب الفخور بابنه . . . وكان المتعارف عليه أن العشاء يجب أن يكون

«الدجاج المحشي» جزءاً منه - أيام كان لحم الدجاج أثمن اللحوم - وإلاّ «زعل» المعلم، لأنه سيعتبر غياب «الدجاج المحشي» غمزاً من قيمته.

أما أبي فلم يخطر له يوماً أن يحلّ ضيفاً على المدرسة. كما أنه لم يحاول يوماً أن يحتلّ مكانةً من الطائفة تلفت النظر اليه، لأنه لا يدّعي الوجاهة، ولا يطلبها،. ويوم دعا المعلم جريس إلى العشاء عندنا، انتشر الخبر بسرعة، وبخاصة بين النسوة، وجاءت إلى أمي إحدى صديقاتها وقالت لها: «إذا عرف المعلم أنك لم تطبخي له دجاجاً، فإنه قد يذهب للعشاء عند أناس آخرين!»

غضبت أمي لذلك الكلام السخيف - الذي أنكره المعلم، فيما بعد، حين جابهته به أمي بصراحتها المشهورة - وقالت لها: «سنقدّم له ما فيه النصيب، وهو حرّ، جاء أم لم يجئ، أكل أم لم يأكل!»

وقد أقلقني ذلك، كما أقلق أخي، عندما سمعناه، لأن زيارة المعلم لنا كانت وسيلة لتأكيد مكانتنا في المدرسة، غير أن أمي، بعد قليل، طلبت إلينا أن نمسك بالدجاجة الحمراء من دجاجاتنا، تلك الي كفّت عن وضع البيض، لذبحها. والباقي عليها...

وفي المساء، وقد عاد أبي من العمل، جاء المعلم. ورغم رهبتنا أنا وأخي منه، فقد سررنا حين وجدناه منطلق الكلام، كثير المرح، على عكس ما توقعنا. وبعد أن جلسنا جميعاً على الحصيرة، وجلس هو على وسادة، واتكأ على أخرى، أنزلتهما أمي له من المعزل، ووضعت أمامه بزر البطّيخ المحمّص ليتسلّى به، قال لأبي: «ابنك هذا، وابنك ذاك، أضعهما كليهما في الحبة من قلبي... سيصبح كلاهما معلّماً تفاخر به بيت لحم كلها. أي والله!»

وقدّمت له أمي الدجاجة المحمّرة المحشوّة راضية، مستبشرة، ولم يمدّ أحدٌ من العائلة يداً إليها... وعندما غادرنا، بعد أن شرب القهوة، قالت أمي لأبي: «ما ألطف هذا الرجل! والله لو طلب مني أن أعطيه دجاجتين حيتين من دجاجاتنا، لفعلت! صوته إذا تكلّم يسحر اللب، فكيف إذا رتّل؟ سأبكّر صباح الأحد القادم للقدّاس معك، لكي أصغي إلى تراتيله».

في اليوم التالي كان المعلم في المدرسة في أبهج حالاته . والصفوف تنزل إليه ، ويلقّنها دروس القراءة ، آخذاً اللغات الثلاث بالتناول . ولكن أحد الطلاب الكبار - وكان لطوله أقرب شكلاً إلى الرجال - واسمه جليل ، حين أمره المعلم بإعادة قراءة إحدى الجمل من كتاب القراءة العربية ، قرأها متلعثماً ، وبأخطاء كثيرة ، فلم يغضب المعلم . بل أمره بأن يترك مكانه وينزل الى رأس أحد المقاعد «السفلى» ، حيث «أولاد الألف باء» ، ليراجع درسه . فامتثل الولد لذلك ، واستمرّ المعلم في تدريسه . غير أنه انتبه إلى أن جليل يلاعب «جيرانه» الجدد ، ويضحكهم . فنهره ، وهو وراء منضدته البعيدة ، وهدّده بأنه إذا لم يكفّ عن إضافة الشيطنة إلى كسله ، سيعاقبه بأربع عصيّ . . . وانصاع جليل مؤقتاً للتهديد . غير أنه سرعان ما راح يثير ضحك الصبية بحركات تهريجية ، جعلت المعلم يصيح به :

«جليل! تعال ، وخذ قصاصك!»

غير أن جليل لم يتحرك من مكانه .

«جليل! قلت لك تعال ، وخذ قصاصك!»

وإذا هو يقول متحدّياً ، بصوت عالٍ : «والله مش جاي!» وأضحك صبية المدرسة كلهم .

عندما نهض المعلم ، وبيده إحدى العصي الغليظة ، وسار باتجاهه ، وكاد أن يبلغه ، عندها تراجع جليل ، واندفع نحو المعلم لكي يمسك به ، فركض الولد ، واحتمى بالفسحة الضيّقة بين الجدار والمقاعد . وثارت لذلك حفيظة المعلم ، ولحق به ، وانطلق الولد من زقاقه باتجاه المنضدة ، والمعلم وراءه ، ثمن دخل بسرعة الفسحة الضيّقة بين الجدار الآخر والمقاعد ، والمعلم يكاد يمسك به ولا يمسك ، وقد علا ضحك الصبية وصخبهم ، وجليل يدور بين المقاعد ، والمعلم يطارده بالعصا ولا يصيبه ، إلى أن انطلق الطريد من باب المدرسة ، واختفى . . . .

تمرّد مثل ذاك كان نادراً ، لأن آباء الطلبة كانوا في الأغلب مع المعلم على أبنائهم . ويقول له الواحد منهم ، على مسمع منا ، وهو يشير إلى ابنه : «هذا الولد مش ابني ، يا معلم جريس . هذا الولد ابنك . إذا غلط ، أو أساء التصرّف ، اضربه

بالعصا ، إلى أن يستقيم .» فيكرّر المعلم بصوتٍ رخيم مقولته التي يفرح الأب لسماعها : «العصا لمن عصى . . .»

والعُصاة بين الصبية كانوا حقاً كثيرين . فالعديدون منهم لا يأتون إلى المدرسة إلاّ مكرهين ، ويفضّلون اللعب بين أرجاء الخرابة ، أو الانسراح بين الناس في سوق البلدية القريب . إلاّ أن المعلم كان يعرف تلاميذه : يعرف من يستحق المداراة والعناية ، ومن يستحق الضرب والإهمال . وكان هناك من اشتهر بأنه لا يخاف العقاب ، من أمثال حنّا «أبو الحرادين» . فحنّا هذا ، الذي كان أخوه في صفي ، كان لا بدّ له ، لكسله وشيطنته معاً ، من عدة عصيّ على كفه كل يوم . «يأكلها» عند منضدة المعلم ، وحالما يدير ظهره عائداً إلى مكانه من المقعد ، يضحك للأولاد متباهياً ، ويُلعِّب عينيه وحاجبيه ، دلالةً على عدم شعوره بالألم ، لأن المعروف عنه أنه يتصيّد الحراذين ، ليمسح كفّيه بدمائها . ودم الحرذون ، كنا نقول ، يكثّف جلد راحة اليد ويقويّها ، فلا تحسّ بأي ألم عندما يهوي المعلم عليها بعصاه ، مهما تكن غليظة .

ولكن لم يكن الصبية كلهم مثل حنا بارعين ، أو جريئين ، في تصيّد الحراذين ، رغم كثرتها . ففي ساعات الظهيرة ، عندما تغمر الشمس سلاسل الحواكير ، قد نرى حرذوناً يخرج من بين الحجارة ، ويستقرّ على صخرة ليواجه الشمس الدافئة ، ويهزّ رأسه عالياً سافلاً ، فنردّد له ، ويخيّل إلينا أنه يستجيب لكلماتنا بحركات رأسه :

«صلّي صلاتك يا حردون
أمك وأبوك في الطابون
أبوك راح ع الجبل
وغمّس لحيته في اللبن . . .»

وكنت أنا أفرح عندما أرى الحرذون ، بعد أن يفرغ من «صلاته» ، ينسلّ مسرعاً عائداً إلى جحره قبل أن يصيبه أحد منّا بأذى .

نحن أيضاً كنا نصلّي . فاللغة السريانية التي علّمنا إياها المعلم جريس ، كانت

في معظمها أناشيد وتراتيل تعود إلى أزمان سحيقة في القدم ، لحّنها آباء الكنيسة الأوائل في أنطاكيا ودمشق والقدس والرها ومدن وادي الرافدين ، وفق مقامات كان الشمامسة يتقنونها . وقد لقّننا المعلم ، يساعده في ذلك أحياناً رهبان شباب من دير مار مرقس بالقدس ، أو من الموصل ، التنويعات السبعة لكل لحن يُنوَّع بها ، حسب أيام الأسبوع ، ومواسم الصيام ، والأعياد . وكان علينا أن نحفظ ذلك كله سماعاً ، بدون التدوين الموسيقي الذي عرفته ألحان الكنائس فيما بعد . وكان المعلم يشرك منّا من رخم صوته وحسُنت أذنه في إنشاد الألحان في الكنيسة .

وفيها يقام ، على القاعدة الأمامية من الهيكل ، محملان ، الواحد إلى اليمين والآخر إلى اليسار ، وعلى كل منهما مخطوطة ضخمة ، لا يتذكّر أحد متى خُطّت لقدمها . كانت هذه الكتب السريانية القديمة كنزاً تحتفظ به الكنيسة بعناية خاصة واعتزاز كبير . أوراقها سميكة جداً ، وبعضها من رقّ الغزال ، ولا تُرفع إلا بشيء من الجهد العضلي ، لثقلها وحجمها . وخطوطها بالحبر الأسود بالنسبة للمتن ، وبالحبر الأحمر بالنسبة للإرشادات والعناوين التي تتخللها . ولو ضاع كتاب منها ، لاستحال التعويض عنه ، لندرة الخطاطين بالسريانية في عهود متعاقبة من الأمية المتزايدة .

يقسم الكورس إلى نصفين ، وكل نصف يلتفّ حول محمل ، لتكون التلاوة المرتلة بالتناوب بينهما ، ولشدّة ظلام الكنيسة (لم تكن بعد قد زُوّدت بالكهرباء) ، كان أحد المرتلين يمسك شمعةً يضيء بها النصّ الذي ينغّمه نصف الكورس ، والمرتلون يتحلقون حول المحمل ، وبالتالي تكون الكتابة بالنسبة لبعضهم ، المقابلين لهم ، مقلوبةً تماماً . ولذا كان علينا أن نستطيع القراءة بالمقلوب ، إذا اقتضى الأمر ، وبأقل ما يتيسّر من ضوئه . وكثيراً ما وجدتني أدفع من الآخرين - لأنني في الأغلب أصغر أفراد الكورس - لأخذ مكاني حول المحمل حيث يتوجّب عليَّ أن أقرأ بالمقلوب!

وكان أنني تعلّمت أن أقرأ أي نص ، بالسريانية أو العربية ، عدلاً ، أو بالمقلوب ، ولا فرق! ولكن ، لا فخر . فرفقتي المرتلون كلهم تعلّموا أن يفعلوا ذلك

أيضاً . والقليل النادر منّا من كان يفهم تلك النصوص ، أو حتى بعضها . لقد كنّا في الواقع نصلّي بلغة مغلقة في معظمها دوننا ، رغم قدرتنا على قراءتها عدلاً ، جانبياً ، أو بالمقلوب ، في الضوء أو في العتمة .

- ٦ -

يا حمَلَ اللّه الحاملَ خطايا العالم

ارحمنا !

كان حملُ الله يحمل عنّا خطايانا وخطايا العالم كله صباح كلِّ يوم أحد ، وفي كثير من أماسي الأسبوع ، غير أنه كان يبدو مرهقاً بآلامه وأحزانه ، وبشكل مراسيمي كثير التراتيل والموسيقى ، لأسبوع كاملٍ كل سنة ، وهو أسبوع الآلام . فيه يُضحّى بحمل الله . يُعذَّب ، ويهان ، ويضربُ بالسياط ، ويحمل صليبه الثقيل ويصعد به إلى قمة الجلجلة ، ليُصلب أخيراً بين اللصوص . وتسيل دماؤه من على الخشبة على جمجمة آدم ، المحكوم عليه وعلى أبنائه بالهاوية الأبدية ، فتنقذه الدماء الفادية ، وتنقذنا جميعاً معه إلى الأبد .

وأسبوع الآلام تسبقه ستة أسابيع من الصيام والصلاة . فكان علينا أن نحرص على الصيام والصلاة طيلة خمسين يوماً ، نستعيد فيها كل يوم ، ظهراً وعشية ، ذكرى الصَّلب وأحزانه المريرة . لم يكن أبي ليرضى بأن يرى أحدنا ينهض من نومه ، طيلة أيام «الصوم الكبيرة» إلاّ مبكراً ، ليصلّي ويركع ركعتين أو ثلاثاً ، ثم

ينصرف كل واحد منا إلى شأنه دون طعام أو شراب . وفي المدرسة ، التي كانت مجاورة لسطح الكنيسة ، يركّز المعلم جريس على تعليمنا تراتيل الصوم الكبير وأسبوع الآلام القادم قريباً ، وتتصف كلها بمقاماتها الحزينة ، الباكية . وقبيل الظهيرة ، ننزل جميعاً إلى الكنيسة ، حيث يكون القسّ حنا أو أحد القُسُس الآخرين ، قد حضر ، وننخرط في الصلاة ، التي تتميّز عن صلوات بقية السنة ، لا بأنغامها الحزينة حسب ، بل بما يرافقها من ركعات . كان الكاهن الشيخ ، ولحيته البيضاء الطويلة ترتعش على جبّته السوداء العتيقة ، يقوم بثلاث ركعات أو أربع ، فيأخذ منه الإعياء . فيستدير نحونا ، نحن الصبية الصغار ، وحفنة من المصلين الذين يكونون قد حضروا الصلاة لأنهم عاطلون عن العمل ، ليتأكد من أننا نركع ، ونحن نرتل على إيقاع الركوع ، مرة بعد أخرى في توالٍ منتظم - أربعين ركعة ، أمام ستارة الهيكل المسدلة ، التي تحمل في وسطها صورة يسوع مصلوباً ، والدم ينزف من كفّيه وخاصرته وقدميه على جمجمة استقرّت عند قاعدة الصليب .

كنا نتباهى فيما بيننا بأن أحداً منا لا يتقاعس ، ولا يغشّ (والبعض منا كان ، لإعيائه ، يتقاعس ويغش) ، وينجز الركعات الأربعين وحنجرته لا تكفّ عن التهدّج والإنشاد ، والمعدة خاوية ، والحلق جاف إلاّ من رطوبة الكنيسة التي لا تكاد الشمس تعرف دواخلها . وبعد ذلك ، والقس لم يكد ينتهي من بركات الختام ، ننطلق إلى الخارج ، وقد استبدّ بنا جوع رائع ، يدفعنا إلى الانتشار في الطرقات ركضاً إلى بيوتنا . ويومئذ أدركتُ أن الجوع لذيذ إذا كنت تعلم أن بعد الجوع طعاماً ينتظرك ، وأنه رهيب إذا كنت تعلم أن بعد الجوع ليس ثمة من طعام في انتظارك .

وكانت أمي تعلم ذلك جيداً . فهي أيضاً تصوم نصف النهار - وقد تصومه كله حتى الغروب - وكذلك جدتي ، وأبي ، وأخي ، وكانت أمي بارعة في تهيئة طعام الغداء البسيط الحارّ ، الذي كان العدس أبرز ما يتكرر فيه . ولكنها كانت تطبخ أنواعاً من الخضار بزيت الزيتون . كان اللحم والسمك والبيض والحليب

والجبن والسمن كلها محظورة . وعلينا أن نترقب عيد الفصح ، الذي يتوّج الصوم الكبير ، يوم تغدو كلها حلالاً ، إذا توفّرت القدرة على شرائها .

وكان هناك شيء واحد أعرف أنه سيتوفّر صباح يوم أحد الفصح : البيض . وأنا موكلٌ بجمع البيضات التي تضعها يومياً دجاجاتنا النشطات في الربيع ، وأحسب على طريقتي كم بيضة سيتجمّع منها في السلّة الكبيرة المخصصة لها : هل ستكون مئة وعشرين أم مئة وخمسين بيضة؟ وكم لوناً سنجعلها حين تسلقها أمّي يوم ، سبت النور ، الذي يسبق عيد القيامة؟

وعيد القيامة يأتي دائماً مع الربيع . تخضرّ الحواكير المهملة ، وتنثر فيها الزهور من كل شكل ولون . هناك الحنّون الأصفر ، والحنون الأزرق ، والحنون البنفسجي . وهناك ذلك الحنون الأحمر ، القاني ، بلون الدم : شقائق النعمان . ترفع رؤوسها الشقائقُ للشمس ، والندى يتلألأ على وريقاتها ، من بين الحجارة ، والأشواك ، والأعشاب الغريبة . وهي ترفع رؤوسها مختالةً حتى عند قواعد الجدران التي ينتشر عليهاالصبّار بعتوّه الشائك ، مطلقاً زهراته الصفراء الرقيقة قبل أن تتحول إلى فاكهة مصفّحة بالشوك . في ظلال أشجار التوت ، والتفاح ، والمشمش ، واللوز ، والرمان ، تنبثق الشقائق كالجروح الضاحكة من التربة الحمراء . وبين زيتونات وادي الجمل ، على مدّ البصر ، بين الحنّون الأصفر والأزرق والبنفسجي ، تنقّط الشقائق المشهد المترامي بدم النعمان . وفي حقول القمح والشعير ، طوال الطريق إلى بيت ساحور ، وفي الأراضي الممتدة حولها ، تتمايل الشقائق مع السنابل الخضراء ، وتتلقّى أجنحة آلاف العصافير وهي تهبط عليها من السماء الزرقاء ، لتعود فتحلّق وتغيب في الفضاءات التي لا تحدّها إلاّ الجبال الزرقاء .

وفي العشيّات تعبر الفضاءات اللازورديّة رفوف السنونو ، وقد وفدت من جديد إلى الأرض التي تحبّها . . . عشيّات الربيع في بيت لحم ، أينما كنا نلعب ، أو نغنّي ، أو نروي الحكايات ، كانت تصخب بصيحات السنونو وهي تعبث وتلهو وتدور ، تسف على أسطح البيوت ثم تعلو في السماوات الرحاب ، نتابعها وهي

تُغير وتنعطف وتستدير ، ثم تغيّر وجهة طيرانها ، لأسباب لانعرفها ، ولا يصطدم واحد منها بآخر ، وتملأ الأجواء فرحاً وبهجة نتلقى فعلهما في أنفسنا دونما وعي . فيشتدّ صخبنا . ونمعن في الركض والقفز . ونرفع أصواتنا في الغناء ، والصياح . وقد أستلقي لوحدي على الأرض المعشوشبة ، لألاحق بعينيّ حركة أسراب السنونو ، وهي تتقاذف بين غيمات السماء المتباعدة ، كالأمواج ، وأحاول أن أعدّها! أخفق ، فأعيد الكرّة ، وأحاول من جديد .

والغيوم الآن باتت بيضاء . كقطعان الخراف ، وأتابع تحوّلاتها السحرية ، وإذا هي تتمدّد ، وتستطيل ، وإذا الخراف حيتانٌ هائلة ، وإذا هي نسور عجيبة تنشر قوادمها عبر المسافات الزرقاء القصيّة ، ولا تتحرّك . . . وقد أبقى أرقب هذه السحب الرقيقة ، وقد احمرّت حوافّها بشمس المغيب ، ثم تتحول إلى بُركٍ مدهشة من الذهب المسفوح . وإذا طلع البدر ، وصعد في ساعتين أو ثلاث إلى إحدى قممه العلوية ، اصطفت الغيوم البيضاء حوله في دوائر منداحة مذهلة ، وكأنها آلاف الخراف مرة أخرى ، أو كأنها الآن ، اذ تتألق في بعضها ، نثار الأصداف التي نصنع منها الصلبان والصور والتماثيل .

ولكن لم تكن المتعات كلها متعات البصر . كنا نصطاد العصافير ، ولا سيّما الحسّون والدوري ، بالنقّافة . وأي ولد ليست لديه نقّافة؟ أي ولد لم يصنع شيئين اثنين ، وببراعة : النقّافة وطيّارة الورق؟ وكلتاهما موسمها الربيع والصيف . بطيّارة الورق ، وذيلها الذي نتفنن بأشكاله وألوانه وأطواله ، تصعد خيالاتنا إلى حيث الطيور والعصافير قد لا تستطيع الصعود ، من سطح الدار ، حيث أمسك بخيط الطيارة - إذا نجحت فعلاً في إطلاقها ، ولم يخذلني ذيلها فأسعفها في التحليق والبقاء في الفضاء متهاديةً كعروس ترفرف الزخارف (كالحليّ) على صدرها ، مسموعة من على ذلك العلوّ الشاهق - استمرّ بإعطاء المزيد من الخيط لهذه الحاملة أحلامي وفنتزاتي الشاردة .

ولا أنكر أنني كنت في صنع الطيّارة وإطلاقها ، أبرع مني في الصيد بالنقافة . كنت لا أشعر بأي فرح إذا أصبت عصفوراً ، فوقع ، وأسرعت إليه لأراه يفرفط في

دمه . كلما أوقعت عصفوراً ، ركضتُ إليه راجياً أن أجده قد سقط من دون أذى . ولم يكن ذلك يحصل إلا فيما ندر .

وفي الصباحات الباكرة ، كنا نسرع إلى مكان قريب من «آبار النبي داود» ، لننكش التراب الرطب ، ونخرج منه ديداناً نضعها في علب الكبريت الفارغة ، لنستعملها طُعماً في فخاخ معدنية صغيرة نجعلها تحت الأشجار . . . وإذا واتانا الحظ ، وقع لنا في الفخ عصفور في يومين أو ثلاثة . ونفتح علب الكبريت ، ونجد أن الديدان المسكينة قد ماتت . . . وفي المرة التالية نملأ كل علبة بالتراب النديّ ، ونضع الدودة الواحدة فيه ، فتبقى حيّةً ، إلى أن ننساها ، أو نضيعها . وأعود مرة أخرى إلى متابعة الأسراب الطائرة والغيوم كالخراف التائهة في حقول السماء . وأرفض أن أصطاد أي عصفور .

وتتردّد في نفسي بقايا من أنغام الصوم الكبير وأسبوع الآلام - يا حمل الله الحامل خطايا العالم ، ارحمنا! ارحم الناس ، وارحم الأزهار والأطيار! أنقذنا من الموت والهاوية الأبدية ، لنبقى جميعاً نتأمل في الكون الذي خلقته لنا بهذه الروعة ، وهذا التنويع ، وهذا الجمال الذي لا حدّ له ولا نهاية .

- ٧ -

في بيت لحم أديرة كثيرة ، وهو أمر متوقع في مكان ولد فيه السيد المسيح . والأديرة هذه تنتمي إلى طوائف دينية شتّى ، وتعكس بعض التنوع الذي عرفته المؤسسات الدينية في الأقطار الأوروبية منذ أن جعل الإمبراطور قسطنطين النصرانية دين الدولة والناس في القرن الرابع للميلاد . وهي في تواريخها تعكس كذلك الصراعات الطويلة التي عرفتها المذاهب المسيحية فيما بينها عبر القرون - صراعات كانت العوامل القومية فيها لا تقل فاعلية عن العوامل العقائدية ، هذا فضلاً عن الصراع القديم بين الشرق والغرب ، وبخاصة بين العرب وأوربا ، لفترة طويلة من الزمن ، وهي فترة تدخل فيها غلبة العرب على البيزنطيين ، وإخراجهم من فلسطين وسوريا ولبنان ومصر وشمال إفريقيا ، كما تدخل فيها الحروب الصليبية بعد ذلك بحوالي قرون ثلاثة ، وهي التي انتهت بخروج القوى الأوروبية من فلسطين وسوريا لحوالي سبعمئة سنة ، قبل أن تعود مجدّداً في صيغة أخرى ، صيغة الانتداب البريطاني والفرنسي في نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ .

غير أن الصلة الدينية مع «الأرض المقدسة» بقيت قائمة، بشكل أو آخر، ورُتّبت في أنساق متباينة عبر القرون الأربعة التي حكم فيها العثمانيون فلسطين، وهي أنساق كانت فيها القوى الكبرى أطرافاً دائمة، من روسيا القيصرية (التي اعتبرت نفسها خليفة بيزنطية في الاستمرار «بالإمبراطورية الرومانية المقدّسة») إلى إنكلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا (ولكل منها مؤسساتها الدينية) والسلطنة العثمانية نفسها، التي كانت تقرّ بهذه الأنساق على نحو تتجنب به اندلاع الصراع المسلّح حول هذه المؤسسات. غير أن اندلاع الصراع خارج فلسطين، بقي أمراً وارداً بين حين وآخر، وظهر على أشدّه (مع تعقيدات سياسية كثيرة لم تكن المسألة الدينية إلا عنصراً واحداً من عناصرها) في حرب القرم، في منتصف القرن الماضي، بين الروس من ناحية، والعثمانيين والإنكليز والفرنسيين من ناحية أخرى. وعندما جاء الإنكليز إلى فلسطين باسم الانتداب، تمسكوا بمبدأ «القديم على قدمه» - ولكن فيما يخص المؤسسات الدينية فقط، لسوء الحظ، ولسوء النية، معاً.

في أوائل العشرينات من هذا القرن، كانت الأديرة المهمة التي تعطي بيت لحم الكثير من شخصيتها العمرانية والاجتماعية هي أديرة الروم الأورثوذكس، المتمثلة بشكل رئيسي في القسم الأصلي من كنيسة المهد التي شيدها الإمبراطور قسطنطين عام ٣٢٦م فوق المغارة التي ولد فيها السيد المسيح؛ وأديرة الفرنسيسكان، المتمثلة في دير نجمة الشرق (وكان الأهلون يسمّونه «دير شرقا»)، وهو كنيسة القديسة كاترين، اللاصقة بكنيسة المهد، وفيها المغارة التي عاش فيها القديس جيروم حين أكبَّ على ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللاتينية في أواخر القرن الرابع للميلاد؛ وأديرة السالزيان، وأكبرها دير بُني في القرن الماضي على مرتفع يبعد قليلاً عن كنيسة المهد، يدعى دير دون بوسكو، ولكن الأهلين يعرفونه باسم «دير أبونا أنطون».

والفرنسيسكان يمثلون نظام الرهبنة الذي أنشأه القديس فرنسيس الأسيسي، وهو في الأغلب فرنسي الطابع واللغة، رغم كونه مؤسسة إيطالية في الأصل. في

حين أن السالزيان يمثلون فئة إيطالية من الرهبان أسّسها أنطونيو دي ساليز في أواسط القرن التاسع عشر . وكانت هناك بالطبع فئات مسيحية أخرى ، لها كنائسها صغرت أم كبرت ، كالروم الكاثوليك ، والسريان الأورثوذكس ، والسريان الكاثوليك ، والأرمن ، والبروتستانت اللوثريين ، وغيرهم ، . ولكل من هذه الأديرة والكنائس مدارسها ، رغم بدائية الكثير منها يومئذ ، غير أنها على الأقل عممت أوليات القراءة والكتابة على الجيل الذي بدأ ينشأ في مستهل العشرينات من هذا القرن .

وكان من أجمل ما حققته بعض أديرة الراهبات الكاثوليك ، مدارس ابتدائية للبنات (كانت ولا ريب من أولى المدارس المخصصة للإناث في العالم العربي) . وكانت الطالبات فيها يلبسن الزي الموحّد الأنيق - وكان في الأغلب مزيجاً من الأسود والأبيض ، ربما بإيحاء من مسوح الراهبات - فتكتسب شوارع بيت لحم بهجةً خاصة ، كلما انتشرت فيها ساعة الغداء ، أو ساعة انتهاء الدوام المدرسي عصراً ، أو كلما انتظمن صفوفاً متجهة إلى إحدى الكنائس أيام الآحاد والأعياد . ورغم التأكيد على اللغة الفرنسية في هذه المدارس ، فإن الوقت كان قادماً ، وبسرعة ، حين يتحوّل التأكيد إلى اللغة العربية .

كانت مؤسسات الروم ما زالت تنمّ عن الأثر اليوناني فيها ، باستعمال اللغة الإغريقية في الصلاة ، أما المؤسسات الكاثوليكية ، فرنسيةً كانت أم إيطالية ، فكانت لغة التعبّد فيها اللاتينية ، بحيث كان الكاثوليك العرب من أهل بيت لحم يُسمّون باللاتين ، وكانت الفئات الدينية الأخرى تستعمل لغاتها الخاصة في صلواتها هي أيضاً . غير أن الشعور القومي الذي كان قد اشتدّ بالتعبير عن نفسه منذ أواسط القرن الماضي جعل المسيحيين العرب يصرّون على إدخال المزيد من العربية في هذه الصلوات جميعاً ، وشهدت العشرينات والثلاثينات تعريب معظم خدمات القداس في فلسطين كلها - ولو أن اللاتينية واليونانية بقيتا مكرّستين في الكثير من الأديرة القديمة الكبرى ، إلى جانب اللغة العربية . كما بقيت اللغة السريانية تمازج العربية : وكان هذا حالها منذ أكثر من ألف سنة ، وكان الدير

الذي يحفظ لهذه اللغة استمرارها قائماً في مدينة القدس القديمة ، وهو دير مار مرقس ، الذي يعود بتاريخ تأسيسه إلى القرن الخامس أو السادس الميلادي ، ويفخر بأنه مبني على أنقاضٍ أقدم منه للكنيسة التي أنشأها «مار مرقس» في المكان الذي تناول فيه المسيح العشاء السرّي الأخير ، عشيّة صلبة .

كان المسلمون المقيمون آنذاك في بيت لحم نفسها أقلّ عدداً من المسيحيين بكثير ، وكانوا في معظمهم ينتمون أصلاً إلى بعض القرى المجاورة ، وكان بعضهم ينتمي إلى عشيرة شبه بدوية أخذت تستقر شيئاً فشيئاً في مضاربها شرقيّ بيت لحم ، عشيرة بني تعمر . وقد أدّت بهم مصالحهم المعيشية مع سكان البلدة إلى تحويل خيامهم إلى منازل حجرية ، وأقام الكثير منهم فيما بعد في بيت لحم نفسها . وكان جامع بيت لحم ، المطلّ على ساحة باب الدير ، معْلماً قديماً مهماً من معالم البلدة ، يعود تاريخه إلى العهد العثماني ، ولعله في الأصل يعود إلى ما هو أقدم من ذلك بكثير .

وكان الفقر المدقع الذي عصف بفلسطين في أواخر القرن التاسع عشر سبباً في هجرة أعداد كبيرة من شباب بيت لحم إلى أقطار أمريكا الجنوبية ، وأمريكا الوسطى . وزادت الحرب العالمية الأولى من فقر الأهلين وبؤسهم . وكان أثر الهجرة بادياً بوضوح ، في مطلع العشرينات ، في خلوّ الكثير من البيوت والمباني من أصحابها ، وفي حالة الإهمال أو التداعي التي تعاني منها مئات المنازل والكروم المحيطة بالبلدة .

غير أن مركز بيت لحم كحاضنة لمهد المسيح أعطاها تميّزاً من نوع فريد ، وهيأ لعدد كبير من أهلها مورداً سياحياً من الصناعات اليدوية المقرونة بمقدّسات المسيحيين والمسلمين . فكانت تستورد كميات كبيرة من الأصداف الخام ، لتحوّلها في عشرات من «الوُرش» الصغيرة ، المنبثة في الشوارع الرئيسية ، إلى مسابح وصلبان ومصغّرات لكنيسة المهد وقبة الصخرة ، إضافة إلى العلب والأُطر النفيسة التي كانت ترصّع بالصدف ، ويقبل على شرائها الزوّار الأجانب . ولكن لم يكن في البلدة كلها فندق واحد ، ربما لقربها من مدينة القدس . وإذا اضطر الأجانب

إلى الإقامة ليلتين أو ثلاثاً فيها ، حلّوا في نزل خاص بهذا الدير أو ذاك . (وبقي الأمر كذلك حتى أواخر الخمسينات) .

وكان التميّز الآخر سوق السبت فيها . فهي مركز من المراكز القديمة جداً للبيع والشراء وتبادل السلع لمنطقة كبيرة جنوبيّ القدس ، إذ يجتمع آلاف القرويين والبدو كل يوم سبت - بدءاً بساعات الفجر - في سوقها المشهورة ، التي كانت تسمى ، لسبب ما ، بسوق البلاّعة ، ثم سُمّيت رسمياً بعد إعادة تنظيمها بسوق البلدية . كان يوم السبت يوماً أشبه بالمهرجان ، تمتلئ فيه طرقات البلدة بالوافدين ، من باعة ومشترين . أما السوق فيختلط البشر فيها بالأغنام والماعز والخيل والحمير والجمال ، بكثافة تكاد تجعل السير من خلالها مستحيلاً . وتختلط سلال البيض والدجاج بسلال الخضار وأكياس القمح والشعير والذرة والتبن ، وتنكات الدبس والعجوة و «الكسبة» ، والزيت والسمن والسيرج . والكثير من الباعة والمشترين من النساء ، بفساتينهن الزرقاء والخضراء والحمراء والفضفاضة ، وتطريزاتها الزاهية المنوّعة ، وهن يملأن الجوّ بالصيحات والضحكات التي تضيف وهجاً خاصاً إلى هذا المهرجان الأسبوعي . بل إن أشهر المسيطرين على السوق ، أيام طفولتي ، كانت امرأة قوية الشخصية من عائلة «قراعة» ، قوامها ضخم ، وصوتها كالرعد ، وتتصرف في المكان تصرّف المستبد العادل ، ويرجعون إليها عند تفاقم المشكلات . والويل لمن لا يرضى بحكمها من لسانها اللاذع!

في هذا اليوم الواحد كانت حوانيت البلدة تكسب ما لا تكسبه طوال أيام الأسبوع الأخرى : إنه يوم البقال ، والحلاق ، والمبيّض ، والسمكري ، وبائع الحلاوة الطحينية (التي يشتريها الوافدون القرويون بكمّيات كبيرة) ، وصانع الجلود - وكان من حرفيّي البلدة البارزين . ويتنوّع ما يصنعه : من «الوطأة» (وهو أقرب في شكله إلى الخفّ العربي القديم ، ولكنه مصنوع ببساطة وخشونة تجعلانه شديد التحمّل ، وأثيراً لدى أفراد العشائر) ، إلى أحزمة الرصاص ، والسروج ، وأرسان الخيل والحمير .

وكان حرفيّو الجلود يتاجرون أيضاً بالخناجر من مختلف الأحجام والأشكال .

ولن تجـد بدوياً أو شـبـه بدويّ لا يعلّق برسـغـه نبّـوتاً مـرصّع الرأس بالرصـاص والمسامير ، ولا يضع في وسط حزامه «شبريّة» يحتمي بها ساعة الحاجة ، بقدر ما يتـبـاهى بـهـا . وهو حـالما يرفع النبّوت أو يشـهـر الشـبـريّة على أحـد يقع في أيدي الشرطة ، وينتهي به الأمر إلى تعقيدات القضاء و «الصُّلحة» و «العطوة» ، التي تجرجر به وبأهله أشهراً لا تنتهي!

- ٨ -

كان لدير «أبونا أنطون» ميتم كبير للأولاد ، يتعلّمون فيه ، إلى جانب الدروس الدينية ، حرفاً أساسية ، فإذا لم يتخرّج الأحداث فيما بعد رهباناً ، تخرّجوا حدادين ونجّارين وطبّاعين وخياطين ومصلحي سيارات وصانعي أحذية : فقد كان التأكيد في مؤسسات الساليزيان على الحرف التي تلبّي حاجات المجتمع بشكل عملي مباشر .

وكان الرهبان المشرفون على شؤون الدير ، في تلك الآونة ، مولعين بالفنون – وبخاصة الموسيقى والتمثيل المسرحي . فكانوا ينشئون تلاميذهم على حب هذه الفنون ، على غرابتها النسبية في المجتمع التلحمي أيامئذٍ ، ويختارون ذوي الأصوات الجميلة للكورس الكنسي ، ويعلمونهم أصول النغم والصولفاج ، ويجعلونهم ينشدون باللاتينية أناشيد متعددة الأصوات تعود إلى عصر النهضة الإيطالية والعهد الباروكي .

وأنشؤوا كذلك فرقة موسيقية تجمع بين النحاسيات والهوائيات ، كانوا يستوردون لها الآلات من إيطاليا . وتعزف هذه الفرقة ألحانها الفرحة في المناسبات

العامة ، وقد تزيّا أفرادها بزيّ موحّد ، وحمل كل منهم أوراق «النوطة» في قرّاصة مثبتة على الآلة التي يعزفها ، ويسيرون في طرقات البلدة في صفوف منتظمة ، يتقدمهم قارعو الطبول بإيقاع مثير ، وهم ينفخون مرحين في «الكونيتة» ، و«الكلارينت» ، و «التوبا» الملتفة بنحاسها البرّاق حول العنق . وكان بعض أفراد هذه الفرقة من أبناء البلدة الذين لا يقيمون في الدير .

فقد كان للدير«ملعب خارجي» مفتوح لمن يريد أن يؤمه من صبية البلد ، على اختلاف طوائفهم ونزعاتهم . ويشرف عليه الأب دوماجي بحب عجيب . فهو بين آن وآخر يضيف إلى الأراجيح القديمة أراجيح جديدة ، وإلى الألعاب والنشاطات القديمة ألعاباً ونشاطات طريفة تجعل الصبية يقبلون على الملعب بحماسٍ مستمر وأعداد كبيرة . وهو يعرف الأولاد واحداً واحداً ، وبأسمائهم ، وله مساعد شاب لا يقلّ عنه اهتماماً بهم .

كان الملعب يفتح بوابته الحديدية السوداء في الرابعة بعد الظهر ، أي بعد خروج الأولاد من مدارسهم . وكثيراً ما كانوا يتجمهرون عند البوابة الكبيرة ، قرب دار بدّور ، قبل موعد فتحها ، ويقرعونها بإلحاح ، لعل أحد الرهبان يفتحها . أو يتسلّق بعضهم الجدار العالي ، وهو سور الدير الخارجي ، ليهبط إلى الملعب في غير حينه . مما اضطر الأب دوماجي إلى زرع حافة السور العليا بالزجاج المكسّر لمنع التسلّق . ولم يردع ذلك البعض منا . والسور من الداخل مكسوّ طولاً وعرضاً بمدادة خضراء كثيفة الانتشار ، مرصّعة بزهور ذهبية نسميها بالساعة ، لأن الواحدة منها على شكل قرص ملوّن في وسطه ما يشبه العقربين المتحركين ، ننزعهما ، ونرشف من قلب التويج أسفلهما نقطة عطرة لذيذة ، مذاقها كالعسل .

أما يومي الجمعة والأحد ، فالملعب مفتوح من الصباح حتى المساء . وكان على الصبية اللاعبين ، إذا ما دقّ الجرس مساءً ، أن يدخلوا إلى الكنيسة التي يعلو هيكلها تمثال للسيدة العذراء ، ويحضروا قداساً قصيراً ، يتلون فيه التراتيل باللاتينية والعربية ، بمصاحبة أرغن صغير يعزفه مساعد الأب دوماجيّ . ثم يختتم الراهب الصلاة بموعظة قصيرة ، بعربيّة مكسّرة تغلب عليها اللكنة الإيطالية ،

تُضحك الصبية سراً ، ولكنهم مع التكرار جعلوا يفهمونها . وكانت الموعظة في الأغلب تدور حول قضايا الملعب نفسه ، مع التأكيد على حب مريم العذراء ، ورعايتها لنا ، وأهمية الصلاة لها كلما أحسّ أحد منا بخوف أو اضطراب ، لأنها تشفع لنا عند الله ، والله لا يرفض لها شفاعة . وكان الأب دوماجي في بعض أيام الأحد ، في القداس عصراً ، يستضيف راهباً عربياً فصيح اللسان ، اسمه أبونا عودة ، يتحفنا بموعظة بلغة عربية جميلة نطرب لها ، ونخرج لنطالب الأب دوماجي بأن يكرّر استضافة هذا الراهب في المناسبات القادمة .

وقد عدت ذات مساء إلى الدار ، بعد إحدى هذه المواعظ ، مثقلاً بهمّ من نوع لم يكن يخطر ببالي : إنني - ككل الناس ، حسبما قال الواعظ - أحمل على كتفيّ ملاكين ، أحدهما ملاك الخير ، والآخر ملاك الشر . على كتفي اليمنى ملاك الخير ، وعلى اليسرى ملاك الشرّ ، وهما في همس متواصل في أذنيّ . هذا يحذرني ، وذاك يحثني . ملاك الخير يردّد : ما أجمل التقوى والعمل الصالح! وملاك الشرّ يؤكد : ما ألذّ الخطيئة والعمل الآثم! وأنا الذي كنت أحلم برؤية الملائكة . وجدتني الآن أحمل اثنين منهما ، شئت أم أبيت ، أينما ذهبت ، ولا أراهما . . . أحدهما يريد اقتيادي إلى الجنة ، والآخر يدفع بي إلى الجحيم .

ولكن الواعظ طمأننا في موعظة لاحقة : إن الولد لا يعدّ مسؤولاً عن خطاياه ما دام هو لم يبلغ التاسعة من عمره . وأنا كنت يومئذ في السابعة ، أو الثامنة . فليختصم الملاكان فوق رأسي ! أبي وأمي هما المسؤولان تجاه الله ، إن هو حاسبني على ما أفعل أو أقول!

ولكن الخطيئة - ما هي الخطيئة؟ وما الذي أفعل أو أقول مما قد يحاسب الله والديّ عليه؟ لم أعرف بالضبط . غير أن الأمر كان خطيراً ، فيما بدا . وعليّ أن أصغي إلى ملاك الخير بعناية - هذا إذا سمعته فعلاً يهمس في أذني (اليمنى؟) . وعليّ أن أصدّ ملاك الشرّ عن همسه - أو أشتكيه إلى ملاك الخير إذا همس ، أو وسوس .

وحين سألت أبي : «ما الخطيئة؟» ضحك أولاً لسؤالي ، ثم قال : «مالك

أنت والخطيئة؟»

قلت : «أبونا الراهب يقول : ابتعدوا عن ا لخطيئة ، هل هي كلام ملاك الشر؟»

قال أبي : «الخطيئة يا بنيّ هي السرقة ، والكذب . لا تسرق ، ولا تكذب . إذا لم تسرق ولم تكذب كنت بمنجى من الخطيئة . وهناك شيء آخر : لا تكرّر اسم الله عبثاً . لا تكثر من القسم باسمه المبارك .

ثم : لا تشتم . . . الشتيمة في نظر الله خطيئة» .

صعبة كانت وصايا أبي ، ولكنني لم أنسها قط .

وكان للدير فريق كشافة مؤلف من أولاد الملعب الخارجي ، انتمى إليه أخي يوسف ، وكذلك أخي الأكبر مراد لفترة قصيرة . أما أنا ، فقد انتميت إلى فريق الأشبال : أعطيت بدلة خضراء ، وقبعة خضراء على مقدّمتها شارة الذئب ، وجوارب صوفية طويلة تمتد حتى أسفل الركبة ، وحذاءً صفيقاً ألبسه أيام التدريب وأيام الاستعراض (كانت هذه كلها تحفظ باسمي في خزانة مقفولة في غرفة خاصة بملابس الكشافة) . وبعد أن شاركت رفقتي في بضعة تمارين ، اختارني الأب دوماجي قائداً للفصيل . فكنت أقف على رأس مجموعتي ، أراوح أمامه على إيقاع صفيره وهو يدرّبنا ، ويشقّ أذنيّ بصافرته لأنني واقف تحت لحيته مباشرة ، أرى شعر منخريه وهو يصعد وينزل فوق شاربه مع شهيقه وزفيره الصاخبين . . .

وكان من نشاطاتي التالية مع الفصيل أنني دُرّبت على قرع الطبل - كما أنني دُرّبت لفترة على عزف الكلارينت . غير أن رئتيّ لم تكونا بالقوة المطلوبة ، لصغر سنّي ، وربّما لهزالي ، فتخلّيت عنه - فأقود مجموعتي على دقّة الطبل المعلّق بكتفي (يتنازعه في الأرجح ملاكا الخير والشر) . وفي الاستعراضات التي كان بعضها يقام على مسرح الدير الداخلي ، كنت الصبيّ الذي يشكّل رأس الهرم البشري ، إذ أقف على كتفي الولدين الكشّافين الواقفين على أكتاف الشباب الثلاثة المصطفين على المسرح أمام الجمهور! وكنت دائماً شديد الفزع لئلا أسقط

من عليائي تلك فوق الأكتاف ، وأنا «أضرب السلام» بإصبعين ، على طريقة الأشبال ، وأدعو في سرّي إلى الله والعذراء أن يبقياني صامداً منتصباً في تلك الثواني الحرجات المعدودات ، ريثما يسدل الستار . . .

إلى هذا كله ، كان لدى الأب دوماجي سينما . فالردهة التي فوق الكنيسة ، حولّها الأب الراهب إلى قاعة للحفلات ، وأهمها العروض السينمائية التي كان موعدها عادة مساء يوم الأحد ، بعد الخروج من القدّاس . ولا يسمح بحضور السينما لمن لم يحضر الصلاة . فكان الإقبال على الكنيسة ، وعلى الملعب بصورة عامة ، على أشدّه عصر يوم الأحد . وحالما يقرع جرس الصلاة ، تُغلقُ البوابة السوداء الكبيرة ، لكي لا يتسلل إلى السينما من الصبية من لم يؤدّ واجبه تجاه ربه .

في تلك الردهة ، كنا نجلس متراصّين على الأرض ، لنرقب مفتونين تلك الصور المتحركة الصامتة - فيما عدا هدير الآلة العارضة التي في مؤخرة القاعة . وفي تلك الردهة الصغيرة قضيت ساعات من أبهج ما أعرف ، وأنا أتابع تشارلي شابلن وماتشيست ، ومهرّجين آخرين لا أعرف أسماءهم ، وأرى المرة بعد الأخرى مشاهد «الزولو» مع «توم» و «كوب» وهم يصيدون الأسود والنمور والفيلة في أدغال أفريقيا ، وأشاطرهم بخيالي إثارة الصيد وركوب الخيل والسفن التي تقلع بهم الى المدن الكبيرة . . . أي عالم رائع كان ذلك الذي تنفتح عليه فجأة تلك الردهة الصغيرة ، ونحن متربعون على بساط رث على الأرض!

وكان الأب دوماجي ، الذي يشغّل الآلة العارضة ، يقوم بدور «المفسّر» أيضاً . فقد كانت تظهر على الشاشة ، بين حين وآخر ، كتابات لا يستطيع أن يقرأها أحدٌ سواه ، فيفسرها لنا ، لكي نتابع القصة . ولو أن «التفسير» لم يكن ضرورياً بعد عرض الفلم نفسه للمرة الخامسة ، أو العاشرة ، لأننا نكون قد حفظنا القصة بحذافيرها وكل حركة أو إيماءة فيها ، فنتمتع برؤية أحداثها تتكرر بالضبط كما نتوقّع . . . وكان من أروع ما يفاجئنا به الأب دواجي في أمسيات أيام الأسبوع ، غير الأحد ، أن ينهي موعظته بعد الفراغ من الصلاة بقوله ، وقد التمعت عيناه

ببريق الغواية اللذيذة : «والآن ، يا أولاد ، سنصعد كلنا معاً ، إلى السينما . . . .»

ولعله كان من أثر ما رأينا من أفلام أننا ، أنا وجورج وسليمان ، ونحن ربما في السابعة من العمر ، نتسلّق شجرة توت كبيرة في حاكورة دار جورج ، وقد دققنا فيها مسامير معوجّة ، نلويها يميناً ويساراً ، فنتصور أن الشجرة طائرة ، وأننا طيارون ، وأن الطائرة بتحريكنا المسامير تعلو بنا في الأجواء نحو النجوم . وكلما ازداد ارتفاعنا ، ارتفع غناؤنا بأصوات تملأ الدنيا . ثم «نهبط» بالطائرة ، ونقفز من على الشجرة ، ونبدأ البحث عن الأسود والنمور بين أشجار التين ووراء سلاسل الحواكير ، ونصطاد على الأقل واحداً منها قبل العودة إلى «الطائرة» .

كان ذلك كله ممكناً ، خيالاً . غير أن خيالنا كان يتوق إلى ما هو أبعد وأصعب . لم أكن قد رأيت البحر قط ، إلاّ في أفلام الدير . وكانت فكرة المياه الفسيحة المتلاطمة تسحرني . وبيت لحم ليس فيها نهر ، ولا جدول ماء – فيما عدا عين «القناة» ، كما كانت تُسمّى . وبُرك سليمان كنت أسمع عنها ، ولكنها بعيدة ، والدخول إليها محظور . ولم يكن لي ولأصدقائي بد ، إذا أردنا البحر ، من أن «نصنع» بحراً . . . .

وصنع البحر شغلنا كثيراً ، لأننا قررنا أن نحفر في أحدى الحواكير بحراً تقلع فيه المراكب . فجاء كل واحد منا بفأس ، أو قدّوم ، وأخذنا نحفر . ولم يكن الحفر سهلاً ، غير أننا بعد عدة أيام من جهود مضنية ، وقد كتمنا السرَّ عن أصدقائنا الآخرين لئلاً يفسدوا علينا المشروع ، أنجزنا حفرة لا بأس بطولها وعرضها ، وبقي علينا أن نرى الحفرة وقد امتلأت بالمياه «المائجة» . وإذا الطبيعة تُسعفنا ، وتهطل الأمطار بغزارة رائعة ، حبستنا جميعاً في بيوتنا . واستمرّت الأمطار طيلة الليل ، وأنا أكاد أعجز عن النوم لشدّة ما انتابني من رؤى «البحر» الذي سنملؤه بالمراكب .

وصبيحة اليوم التالي ، والمطر لم ينقطع بعد تماماً ، أسرعت إلى مكان الحفرة ، وإذا بها طافحة بالماء ، ولو أنه ماء طينيّ . وصحت : البحر! وركضت إلى بيت جورج لأبشّره بالمعجزة . . . وقضينا ذلك اليوم في صنع زوارق من الورق ، أخذناها

إلى «بحرنا» وألقينا بها جميعاً في الموج الكدر . . .

كثرة الأمطار ، في ذلك الشتاء ، كانت لنا نعمة ونقمة ، أعطتنا بحراً لعدة أيام ، ولكنها فيما بعد جرفته حتى كاد يستوي مع الأرض التي حوله . وقد غاصت أقدامنا في الطين مرات عديدة ، ونحن نلعب على ضفاف بحرنا ، فنعود إلى بيوتنا لنتلقّى التقريع على قذارة أرجلنا ، وكنت عندها ، خارج باب الدار ، أكبّ طاسات الماء على قدميّ حتى تنظفا من الطين ، ثم أدخل إلى حيث قد هيأت أمي كانوناً من النار ، ووضعت عليه قدْر الطبيخ ، وبخاره يشيع الدفء حوله . وأمي منهمكة بالخياطة بيدها ، وجدّتي تغزل الصوف الذي جززناه من خرافنا - فأحدّثهما عن الرحلات التي سأقوم بها في البحار عندما أكبر وأبلغ مبلغ الرجال .

* * *

لكل صبي يتردد على ملعب الدير دفتر صغير كتب عليه اسمه ، يحفظه مساعد الأب دوماجي ، وهو عازف أرغن الكنيسة : شاب إيطالي كثير الدعابة يدعى جوزيبي ، ونسميه للتحبب «بيبي» . كان يحفظ الدفاتر في صندوق صغير رُتبت فيه الدفاتر أبجدياً . وهو عند دخولنا الكنيسة يوزعها علينا بأسمائنا ، وعندما نخرج ، نمرّ به ، ومكانه وراء الأرغن قرب الباب ، ونقدّم له الدفتر فيأخذه ، ويختمه بكلمة «حاضر» . ومع مرور الأيام والأسابيع ، يمتلىء الدفتر بطبعة هذه الكلمة ، في حقول مرتبة حسب الأسابيع والأشهر . وكل من تجمّع لديه سنوياً ، أو فصلياً ، عدد أكبر من هذه الكلمة ، في عيد الميلاد أو المناسبات الاحتفالية الأخرى ، حظي بهديّة أفضل من هدية غيره .

واقترب موعد عيد الميلاد ، وطلب إلى الأولاد قبله بيومين الحضور إلى الملعب عصراً . واجتمعنا في الكنيسة في قداس قصير ، ثم أمرنا بالصعود إلى الردهة العليا . فتسابقنا ركضاً على الدرج ، لنفاجأ بمشهد رائع : ففي وسط المنصة المنخفضة شجرة كبيرة مزدانة بالنجوم ، والكرات المتلألئة ، والكهارب الوامضة والشرائط الملونة ، وقربها مغارة ، فيها الطفل يسوع راقد في المذود ، وأمه مريم

جالسة بجانبه ، ومار يوسف واقف قربها يتأمله ، مع بقرتين وحمار تتأمل كلها معجزة الطفل الذي تشعّ منه هالة من النور ، وقد انتظمت الملائكة في حلقة ترفرف فوق رؤوسهم جميعاً . وحول الشجرة والمغارة رُتِّبت عشرات الهدايا ، على أرضية من الأوراق الزرقاء والحمراء والصفرا ، في صفوف متصاعدة .

جلسنا على الأرض ، وحدّثنا الأب دوماجي عن سروره بوجودنا في الدير ، ومثابرتنا على الحضور إلى الكنيسة ، حتى باتت سيدتنا العذراء تعرفنا جميعاً ، وتصلّي من أجلنا واحداً واحداً ، وتمنحنا بركاتها كل يوم .

ثم نهض الأب عودة ، وقال بعربية فصحى إن زميله دوماجي قد استلهم حياة السيد المسيح في مكافأة كل ولد منا على المجيء إلى الدير ، لكي نستمر في المجيء . أو ليس يسوع هو القائل : «دعوا الصغار يأتون إليّ ، فمن مثل هؤلاء الأنقياء يتألف ملكوت الله» . ويسوع ، مثلنا تماماً ، كان فقيراً ، معدماً . انظروا كيف أنه ولد في مغارة تعتلف فيها الحيوانات في الشتاء . كان البرد قارساً ، والثلج يتساقط . فوضعته أمه المسكينة المتعبة في المعلف ، ليدفأ ، وعندما كبر ، كان يمشي في طرقات بيت لحم والناصرة والقدس مثلنا حافياً ، وبثياب قليلة ، وممزّقة ، نهباً لزمهرير الشتاء وقيظ الصيف . إن الطبيعة قاسية ، ولا نقدر جميعاً على تحمل قسوتها كما فعل السيد المسيح ، ولكن علينا ، رغم كل شيء ، أن نقتدي به . وطوبى للفقراء ، لأنهم سيرثون جنّة الله . . .

بعد ذلك صعد «بيبي» إلى المنصة لتوزيع الهدايا ، وبيده قائمة يقرأ فيها أسماءنا واحداً واحداً ، واللهفة تعصف بنا ، فنذهب إليه ، ويناول كلاً منا الهدية المقررة . وكانت هديتي زوجاً من الأحذية ، من نوع «البوتين» .

طرت بهديتي إلى البيت ، فرحاً بهذا البوتين الذي لم ألبس مثله في حياتي . وكان أخي يوسف معي ، وقد نال هو أيضاً هدية نسيناها بسرعة . فالفرحة في البيت ذلك المساء كانت بحذاء البوتين ، الذي غطّى بروعته وقوته ومهابته على كل ملبوس آخر في البيت! ولم يكن فرح أبي وأمي وجدتي بأقلّ من فرحي . بل إن أبي ، وهو الذي يدّعي خبرة بصنع الأحذية ، ولديه في البيت صندوق عدّة

فيه السندان والسكّين الحادة والمطرقة والمسامير لتصليح أحذية العائلة ، راح يقلّب الحذاء بين يديه ، ويتشمّم الجلد ، ويتفحّص النعل والخياطة تفحّص الخبير ، وأخيراً نطق بحكمه على جودة صنعه ، ثم أضاف : «إنه ولا شك من عمل أيتام الدير الماهرين» .

وضعت الفردتين على عتبة الشباك ، الواحدة لصق الأخرى ، لأتملّى من منظرهما ، ولا أكتفي ، وأتحرّق لمجيء الصبح ، لكي ألبسهما .

في الليل ، والكل نيام ، فاجأني خاطر أقلقني : من قال إن الحذاء سيكون من حجم قدميّ؟ قد يكون أكبر ، وقد يكون أصغر . . . تركت مكاني الدافئ في الفراش بحذر ، لئلاّ يستيقظ أبي الذي أنام لصقه ، وفي الظلام تحسّست طريقي إلى الشباك ، وتناولت فردةً من الحذاء ، ودست قدمي فيها . ثم أخذت الفردة الأخرى ، وأدخلت فيها قدمي الثانية ، ومشيت خطوتين قصيرتين ، وأحسست بعضّة الجلد الصفيق البارد على أصابعي : عضة لذيذة . . . إنه على قدر قدمي تماماً . واطمأننت . أعدت الحذاء إلى عتبة الشبّاك ، وتسللت إلى الفراش ، ونمت قرير البال حتى الصباح .

عندما أفقت ، وأردت لبس الحذاء ، قالت أمي : «لم لا تتركه حتى يوم العيد ، فتلبس فيه شيئاً جديداً؟»

قلت : «ولكن يوم العيد ما زال بعيداً» .

قالت : «أسبوعين ، أو أقلّ» .

فعيد الميلاد عند الطوائف الأورثوذكسية يتبع التقويم الشرقي ، وهو يتأخر عن التقويم الغربي بثلاثة عشر يوماً . ثم إن عيد الميلاد لدينا يسبقه صيام خمسة وعشرين يوماً . وأهلي يتمسكون بمواسم الصيام تمسّكهم بمواسم الأعياد . والصيام عندنا يحلّ إشكالاً على نحو يرضي الله والإنسان معاً : فلا لحم يؤكل فيه ، ولا سمك ، ولا زفر ، ولا بيض ، ولا ألبان من أي نوع . وهي التي لا بد لشرائها من نقود لم تكن لدينا . فالصيام نرضي به ربنا ، ونجعل من حاجتنا فضيلة . ما دام هناك خبز ، وزيتون ، وخضار ، مهما شحّت ، وهي دائماً الطعام الأرخص ، فإننا

قانعون وسعيدون .

ولكن إذا جاء العيد ، فلا بد من شيء من اللحم ، والحليب ، والجبن ، نكسر به الصيام بعد حضور صلاة منتصف الليل في كنيسة المهد . أي إذا جاء العيد ، لا بد من بضعة قروش مهيأة للصرف . وأمي تحسب لكل يوم حسابه ، أكثر من أبي . فقد كان أبي يعمل في تلك الأيام فاعلاً في البناء : يحمل الحجارة على ظهره من «الدقّاق» (الذي ينعّم بإزميله صفحة الحجر ويسوّي زواياه في حجم معيّن) إلى البنّاء ، مقابل خمسة أو ستة قروش في اليوم . ويعطي ما يجنيه أسبوعياً لأمّي ، لتتصرّف به هي بحكمتها ودرايتها . ومهما تكن حكيمة ودارية في إنفاقها ، فهي تعلم أن عليها ، بعد أن تتكفّل بإطعامنا ، أن تخيط ثيابنا بيديها ، وترقّعها ، وتدبّر أمرها من قطع القماش القليلة الميسّرة . والمجتزأة أحياناً من ملابس أخرى قديمة . وإذا جاء الشتاء ، تعقد الأمر . إذ تقل أعمال البناء ، ويقضي أبي أياماً وهو ينتقل من «ورشة» إلى أخرى ، بحثاً عن الشغل ، ويعود إلى الدار منهكاً ، وجائعاً . ولا يتذمّر . وقبل النوم ، يقف في ركن الغرفة ، ويصلّي ، ويحمد الله على نعمته ورزقه ، ولن يرقد في فراشه إلا بعد أن يتأكد من أننا ، أنا وأخي صلّينا نحن أيضاً قبل أن ننزع ثيابنا للنوم ، وذلك بتلاوة «أبانا الذي في السموات» عدة مرات ، حمداً لله على نعمائه .

من أين كان لي أن أدري أن الحذاء الجديد سيبرز مشكلات بقائنا اليومي بشكل حاد؟ أبي بلا عمل ، ورغم الصيام ، فالعيد قادم ، والقروش لا تكفي لشراء العدس الذي نأكله في معظم أيام الصوم ، ناهيك عما هو أعزّ وأطيب . ولذا ، عندما عدت من المدرسة ظهيرة ذلك اليوم ، كانت أمي قد اتفقت مع أبي على . . . بيع الحذاء! وهي تعرف بعض الجيران ممن هم ميسورو الحال ، سيتحمّسون لشرائه بسعر معقول . فتوفّر نقود البيع لشراء بعض حاجيات العيد .

لم أفرح كثيراً لذلك المنطق . ولكن الجدل كان صعباً مع أمي وأبي معاً . لم يفرحا هما أيضاً لمنطق الحاجة . ولكن ، قالت أمي ، «سنستطيع أن نبيع الحذاء ، ونضمن لك حذاءً آخر» .

قلت باكياً : «كيف؟ كيف؟»

قالت : «سآخذك الى المدينة ، وأشتري لك حذاءً على حجم قدميك من حارة اليهود . يقولون إن الحذاء هناك لا يكلّف أكثر من قرشين» .

باعت أمي الحذاء في اليوم التالي بخمسة عشر أو عشرين قرشاً ، وبعد يوم أو يومين ،وقد انقطع المطر وصحت السماء ، أخذتني معها إلى ساحة باب الدير ، وركبنا في عربة . وأصرّت أمي على إجلاسي كطفل في حضنها لكي لا تدفع عني القرش ، أو نصف القرش ، أجرة النقل . وقمت بأول رحلة لي إلى المدينة الرائعة - القدس . ورأيت باب الخليل لأول مرة ، وقد ازدحم بالبشر والدواب ، ونزلنا في «السويقة» ، وأنا أكاد لا أصدّق أن في الدنيا حوانيت وأناساً بهذه الكثرة وهذا الصخب!

سرنا في الطرقات المعقودة الضيّقة ، وكلما انعطفنا ، تغيّرت المرئيات شكلاً ، وتغيّرت الأصوات . إلى أن دخلنا زقاقاً ، فيه الدكاكين المفتوحة على مصاريعها متلازّة على الجانبين ، وكلها - فيما بدا لي - ملأى بالأحذية المستعملة ، وقد صُفّت أزواجاً على رفوف يعلو بعضها بعضاً إلى ما لا نهاية! كان ذلك أول حارة اليهود ، والرائحة فيها نفاذة : عفن وعطن غريبان . وبعض الأبواب المفتوحة أرى منها دواخل الدور ، وفيها رجال يلبسون السواد وقبّعات فرائية عجيبة ، ونساء وأطفال كثيرون يعبث بين أرجلهم الدجاج . ورائحة روث الدجاج طاغية في كل مكان .

دخلنا دكاناً جلس صاحبه بالباب وراء آلة خياطة الأحذية ، مرتدياً مريلةً من الجلد . وعندما طلبنا منه أن يرينا ما لديه من أحذية تناسبني ، أخذ يتكلم بلهجة غريبة لم أفهمها . غير أن أمي تفاهمت معه ، وأخبرتني أنه يتكلم بلهجة اليهود المغاربة . وفي تلك الأيام كان يكفي أن يقال عن شخص ما إنه «مُغربي» (بضم الميم وفتح الراء) لأن نتصوّره ساحراً مليئاً بالأسرار ، ولا يضمر إلاّ الشرّ - لأن المغربي في أقاصيصنا كان دائماً هو الغريب الذي يريد اقتحام حياة البطل بأفانين مكره وسحره . . . ولذا فقد تهيبت من هذا اليهودي ، وهو ينزل حذاءه بعد آخر

لكي أجرّبه ، وأمي لا ترضى عنه ،إلى أن رضيت بحذاء قال صاحبه إنه ثمنه : قرشان بالضبط .

ولكن الحذاء كان مرقعاً ، والبائع يؤكد أن ترقيع الحذاء أضاف إلى متانته ، وأنني سأستطيع أن ألبسه لسنوات! وقالت أمي ، على طريقتها : «يلاّ ، يلاّ ، بلا مسخرة . . . ألا تراه طفلاً ، ستكبر قدمه على حذائك المرقّع بعد ستة أشهر؟»

لم نجد حذاءً بذلك الثمن لم يكن مرقعاً . فسلّمنا أمرنا لله - وسلّمت قدميّ للفردتين البائستين . وعدنا إلى باب الخليل ، وركبنا عربة انتظرنا فيها ساعة ريثما جاءنا ركّاب آخرون ، وأنا أقرع بحذائي أرضيّة العربة ، لكي أتعوّد عليه .

لم يُعجب أحد في البيت بحذائي «الجديد» . ونفضته من قدميّ ، كمن ينفض قيداً يكبّله ، وانطلقت حافياً في اتجاه «البحر» - ولم يكن قد انجرف كلياً بعد . وأحسست أن ملاك الشرّ يتنحنح ويتململ فوق كتفي اليسرى ، وأنه سيقول كلاماً يجب ألاّ أسمعه . وبقي ملاك الخير صامتاً ، وأنا أطرطش الماء بقدميّ الحرّتين .

في اليوم السابق لعيد الميلاد الأورثوذكسي ، قامت الاحتفالات الصاخبة في ساحة باب الدير ، ترحيباً بمجيء بطريرك الروم من القدس في موكب كبير ، وقد استقبلته فرقة من عازفي الآلات النحاسية ، وأرتال من الشرطة والخيّالة ، وصفوف من الكشّافة ، وأجواق من المرتلين والكهنة ذوي الشعور الطويلة ، وحاملي البيارق ، ومئات الصبية بملابسهم الجديدة ، أو أسمالهم القديمة ، يشاطرونهم فرحة العيد وضوضاءه . وعلى جوانب الساحة انتشر العديد من باعة الحلاوة البيضاء ، والسمسمية ، والغُريبة ، والمعمول ، يجتذبون الصبية بصيحاتهم المعسولة . وأنا ورفقتي لا نتعب من الفرجة واللعب في هذا المهرجان .

وليلة العيد ، رغم السهر ، لم ننم إلا ثلاث أو أربع ساعات ، في لهفة انتظارنا الفجر . أيقظت أمي أفراد العائلة ، ورفعت فتيلة «اللمبة» ، وهي تقول : «ألا تسمعون جرس الملاك؟» وهو الذي يُقرع من جرسيّة المهد ، مالئاً أجواء الليل ،

مؤذناً بهزيعه الأخير .

ودونما تردّد نهضنا من الفراش أنا وأخي يوسف وأبي ، وارتدينا ثيابنا - وجعلتني أمي ألبس معطفين ، الواحد فوق الآخر - وخرجنا إلى الظلام - ونحن ننفخ في أيدينا من شدّة البرد ، وأسرعنا إلى المهد .

في نثيث المطر المتقطّع ، كانت الساحة تتلألأ بالأضواء الكهربائية القليلة ، وانعكاساتها المشعشعة في تجمّعات المياه بين البلاطات الكبيرة ، وباعة الحلاوة ما زالوا على جوانبها يتّقون البلل بالجدران الحجرية العالية ، وباعة المشويّات يهفّون بمراوح يدوية على نيران الفحم في كوانينهم التي أضاءت وجوههم بوميض أحمر وهم يتصايحون ، وباعة الكستناء ينفخون في جمراتهم التي يصطلون بها مع كستنائهم الثمينة . وهناك رجال طاعنون في السن يحملون أباريق ضخمة تكاد تكون بارتفاع القامة منهم ، رُكّبت في قواعدها مواقد تتوهّج نارها ، وهم يرددون : «سحلب سُخُن . . . . سحلب سُخُن . . . .» والناس في حركة دائبة في أرجاء المكان ، كأن أحداً منهم لم يأوِ إلى فراشه تلك الليلة .

عندما دخلنا من الباب الصخريّ الضيّق المنخفض إلى كنيسة المهد الفسيحة ، الرفيعة السقوف ، المعتمة رغم مئات القناديل الزيتية الملونة التي تتراقص فيها الشعلات الدقيقة كوميض النجوم بين الأعمدة الرخامية الملساء الكبيرة ، كان الهيكل السامق في الصدر يشتعل بالشموع ، وقد ازدحم أمامه آلاف المصلّين و«الزوّار» ، والترتيل البيزنطي يردده الكورس عالياً ، متناغماً مع دقّات الأجراس المسترسلة في قرعها على سطح الباسيليكا .

والتقينا الكثير من معارفنا الذين جاؤوا مثلنا لحضور قدّاس ما بعد منتصف الليل . . . ومن خلال حشد كثيف من الرجال والنساء والأطفال ، نزلنا الدرجات الرخامية الزلقة إلى المغارة التي ولد فيها المسيح ، وقد عبقت بسحب البخور ودخان الشموع ، ودفئت بأنفاس المصلّين ، حيث أقيم قدّاس آخر . وقرأ الكاهن الجليل ، بصوت مخدّش أخذت منه السنون ، قصة الميلاد في فصل من الإنجيل ، وكأنه يقرؤها لأول مرة ، وذكر الرعاة الذين كانوا يطلبون الدفء مع أغنامهم ذات

ليلةٍ كست فيها الثلوج مراعيهم في السهول والتلال ، وإذا الملائكة تفاجئهم بأجواقها ، وقد أضاءت السماء بأشعتها النورانية ، وتبشّرهم بميلاد مخلّص لهم في بيت لحم ، وهي تنشد وتردد : «المجد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام ، وفي الناس المسرّة!»

عند خروجنا من المهد ، وقد تباعدت وراءنا التراتيل ، وخفّ قرع النواقيس ، كانت الشمس الطالعة تغالب الغيوم في الأفق الأزرق البعيد . ورحت أنظر إليها متلذذاً ، متخيّلاً الأجواق السماوية وهي تملأ الكون بصدحها وبشراها ، وكأنني أخيراً شاهدتها بعينيّ .

في البيت وجدنا أمي وجدتي قد شرعتا في طبخ أكلة العيد . كان البخار ينطلق من قدر كبير على البريموس ، شذيّاً برائحة اللحم ، الذي اشترته أمي بما تبقّى لديها من ثمن البوتين الجميل . . . البوتين الذي نسيته في ضجيج العيد وموسيقاه .

ورضي الجميع عما أكلوا ذلك الصباح ، بعد صيام قاسٍ دام خمسةً وعشرين يوماً . غير أن أبي ، بعد أن انتهينا من الطعام ، وراحت أمّي تسحب شرشف «السُّفرة» عن الأرض ، وتلمّه ، قال وهو يتراجع إلى متكئه على المخدّة :

«ليتك يا مريم لم تبيعي ذلك الحذاء . حرمنا الولد منه ، ونحن في عيد» .

فقالت أمي :

«الذي صار ، صار . والبركة فيك يا أبو يوسف ، غداً نشتري له ألف حذاء!»

لسنوات بعد ذلك ، كلما جاء عيد الميلاد ، كنت أتذكر ذلك البوتين الذي لم ألبسه ، ثم ما ألبث أن أنساه في غمرة أفراح العيد- أو في غمرة الأشجان التي كان العيد في بعض السنين يجيء بها ، قاسياً ، ودون رحمة .

- ٩ -

كان نعّوم من شخصيات الحارة . بالنسبة للأطفال ، وبالنسبة للكبار . الأطفال يحبّونه ، يرافقهم ويلاعبهم ، ويبادلهم المقالب . والكبار يجدونه دائماً «بين أرجلهم» في الطريق ، في الدور ، مع الصبايا ومع العجائز .

كان كبير الجثة ، ووجهه رغم سنيه الأربع عشرة أقرب إلى وجه الطفل . ذراعه اليسرى شبه مشلولة ، ويرتفع الساعد فيها إلى خصره دائماً ، وتبدو يده كأنها مجرّد عالقة بمعصمه ، تنثني أصابعها نحو الكف متشنّجة ، وهي أصغر حجماً من يده اليمنى السليمة . يرتدي قنبازاً مقلّماً بقي هو هو على تعاقب الأيام وتوالي الأشهر ، يبلغ كاحليه ، ويكتسب بين الحين والآخر رقعة جديدة . يمشي بشحط القدم اليسرى ، التي لم تكن بنشاط اليمنى أو سلامتها ، فيترنّح مكرهاً ، ولكنه يتقدّم رغم ذلك بسرعة غريبة . بل كان من ألعابه المحببة أن يتحدانا للسباق . ويفوز في معظم الأحيان .

كنت في السابعة أو الثامنة من عمري عندما انتبهت له - أو عندما بدأ يخالطنا أنا ورفاقي . كثيراً ما كان يأتي إلى المدرسة ، وبين ضحك الصبية

وصيحاتهم ، يطلب إلى المعلم جريس أن يعلمه القراءة . فيجلسه المعلم على أحد المقاعد ، ثم يسهو عنه . وإذا سئم قام ، وضحك له الصبية مرة أخرى ، وخرج إلى الطرقات . ولما كانت المدرسة على مقربة من السوق ، فإنه يذهب إليها ، فيجد من النسوة من تحمّله سلّتها ، بما فيها من مشتريات الخضار ، إلى أن تبلغ به دارها ، وتعطيه نصف قرش ، أو شيئاً من الطعام . و «حوش دبدوب» على طرف من الحارة ، وهو كثير الغرف ، في كل غرفة منها عائلة يختلط فيها الكبار والصغار ، النساء والأطفال ، الدجاج والأرانب . وإذا ذهب إلى إحدى تلك العائلات ، وتناول شيئاً من الطعام ، راح يتسكّع من عائلة إلى أخرى : يحمل طفلةً هنا ، ويشاكس طفلاً هناك . وتتضاحك النسوة ، ثم ينهرنه . «يلاّ يا نعّوم ، يلا يا مقصوف ، تحرّك ، بدنا نشتغل .» فهنّ يتحرّجن أمامه إذ يقرفصن على مقاعد منخفضة لغسل الثياب ، أو تهيئة الطعام ، وتتكشّف سيقانهن وأفخاذهن . ولكنه لا ينصرف بسهولة . أو أنه ينصرف من دار ليدخل أخرى . ويتجمّع بعض الأطفال حوله ، وتحرّضهم أمّهاتهم عليه مزاحاً ، ويقولون له : «يلاّ أرقص يا نعّوم! يلاّ ارقص يا نعّوم!» ويصفّقون له ، فيرقص ، ويغنون : «قام الدبّ ليرقص ، وقتلُ له سبعة أنفس . . . . قام الدب ليرقص . . . .»

جاءني مرة مسرعاً إلى البيت ، وأخذني من يدي قائلاً وهو يلهث : «أتريد أن ترى دبّاً؟ يلاّ معي ، أسرع ، قبل أن يذهب بعيداً» .

وركضعت معه إلى مقهى «أبو شمعون» ، حيث وجدنا جماعة من الصبية والرجال والنساء قد سدّت الطريق ، محيطةً بغجري يُرقّص دبّاً ، وقد أمسك دفاً بيده وأمسك بالأخرى عصا وطرف حبلٍ متصلٍ بخزّامة اخترقت أنف الدب ، يدوران وسط الجمهور ، ويأمر الغجري الدّب بأن يقف! فينتصب على قائمتيه الخلفيتين . ثم يناوله العصا ، فيمسك بها الدب من طرفيها خلف عنقه الغليظ وقد أسندها على كتفيه . وينقر له الغجري على الدف ، فيتمايل ويرقص ، بين ضحكات المتفرجين وتعليقاتهم .

وخامرني إحساس غريب بأن الدب فعلاً يشبه نعّوم! نظرت إلى صديقي ،

ولكنه كان مأخوذاً بالحيوان المتمايل أمامه ، والغجري يهزّ الحبل بين حين وآخر ، فيهتز معه رأس الدب ، ويستمرّ في رقصه الثقيل على إيقاع الدف . وفجأة يسقط إلى وضعه الحيواني ، ويدور في وسط الحلقة ، وقد قلب صاحبه الدفّ وأخذ يديره بين الضاحكين ، لينال بضع قطع نقدية ، بينما يبدأ الجمهور بالتفرّق .

لم يكن نعّوم ليفوّت عليه مشهداً من تلك المشاهد المسلّية . إنه من ثوابت الحارة ، يعرف عنها على طريقته الساذجة كل ما يحتاج أن يعرف ، وليس ثمة صبي أوصبية ، رجل أو امرأة ، لا يعرف هو اسمه ، وأين يقيم ، ومن هم أقاربه . ومنذ أن انتقلنا إلى دارنا في «حوش دبدوب» ، وبوّابتها الكبيرة تكاد تكون على شارع رأس افطيس مباشرة ، لا يريد لي نعّوم أن تفوتني فرصة لمشاهدة دب يرقص ، أو قرد يمثّل . والقرود والسعادين كانت أكثر قدوماً إلى بيت لحم من الدببة ، وأوسع حيلة في إضحاك الناس – واستدراراً لقروشهم الشحيحة . كان القرداتي فناناً من طراز خاص ، ويبدو أن بينه وبين سعدانه (أو سعادينه) ، تفاهماً حقيقياً . وكان نعّوم يقول للقرداتي : «قل للسعدان كيف بتنام الـ . . .»

فيسكته القرداتي بإشارة تمثيلية من يده ، ويناغي القرد قائلاً : «والآن يا قرد يا همّام ، فرّج هالجماعة الكرام ، العجوزة الختيارة كيف بتنام . . .»

فينكفئ القرد على جانبه ، ويحني رأسه إلى صدره ، ويلمّ ركبتيه الخلفيتين إلى بطنه ، و «يغطّ في نومه» . ويقهقه الجميع ، بينما يدور القرداتي دورة درامية في وسطهم ، ويلوّح بعصاه الرفيعة ، ثم يعود ويناغي القرد قائلاً : «والآن يا قرد يا همّام» فرّج هالجماعة الكرام ، البنت الصبية كيف بتنام . . .»

فينقلب القرد على ظهره ، ويحرّك رأسه ببطء يميناً وشمالاً ، وقد فرج ساقيه الممدودتين . . . فيقهقه الجميع من جديد ، ويكون أعلاهم قهقهة نعّوم نفسه . وأنا لا أفهم بالضبط لماذا يضحكون .

لا يمر فصل من فصول السنة إلا وتزور البلدة جماعات تجتذب الناس في حلقات كبيرة حولها ، وقد تستمر ألعابها ساعة أو ساعتين ، وبخاصة إذا كانت من فرق لاعبي السيمياء . «إيدي في الهوا فاضية بوش . . .» يقول الساحر ، وإذا

هي فجأة تخرج بيضاً ، أو كراتٍ ملونة ، أو أرانب . يضع منديلاً في فمه ، وبعدها بقليل يبرز من بين شفتيه طرفاً من خيط ، يمسك به زميله ويجرّه ، وإذا هو يجرّ من فم الساحر مناديل ، وأعلاماً ، وحدائد ، وشفرات صدئة . ويمتدّ الخيط ويمتد ، والأشياء العالقة به ، الخارجة من جوف الساحر ، لا تنتهي . وبعدها يبلع سيوفاً ، وينفث لهُباً من النار . وكان في تلك الأيام أن سمعت الكبار يتحدثون عن سليم العشيّ (صديق أخي الأكبر مراد حينئذ) ، الذي يعمل مؤجّراً ومصلّحاً للدراجات في دكان صغير في ساحة باب الدير . وقد جعلوا يسمّونه بسلّيم السحار ، بسبب الحيل المدهشة التي كان يقوم بها في السهرات لإمتاع شيوخ البلدة . وقد رأيته فتى قصير القامة له وجه ضامر لا يبتسم ، تشعّ منه عينان واسعتان مذهلتان[١] .

وقد سحرت عندما شاهدت فرقة من الغجر - ثلاث راقصات ، مع عازفين - يرقصن ويغنين أمام مقهى أبو شمعون . ورغم أنني كثيراً ما رأيت أناساً يرقصون ويعزفون في الأعراس ، فإن هؤلاء الغجريات ، بفساتينهن المبهرجة الفضفاضة ، كنّ يتحركن بحرية وطراوة وغنج ما كنت شاهدت مثلها ، وعازف الطنبور يطلق من معزفه أنغاماً رنانة ، هادرة ، تملأ الشارع كله مرحاً وبشراً . وكان نعوم ، بالطبع ، أول من يحضر «الحفلة» وآخر من يتركها . وأكثر من مرة ، حين يرشُّ المتفرجون الغجريات بالملاليم وأنصاف القروش ، فتساقط على الأرض ، يلتقط بعضها نعّوم بخفة ، رغم حركته العرجاء ، ثم يسقطها عند أقدام الراقصات كأنه هو الذي يسخو بها ، وهن ينحنين إلى الوراء ما استطعن ، هازّاتٍ أكتافهن ، مبرزات صدورهن الكبيرة ، ومرسلات شعورهن الغزيرة إلى الأرض ، والقفاشات بين أصابعهن في دق متواصل ، وصوتهن الرفيع لا ينقطع عن الغناء . وبين الجمهور

---

(١) سرعان ما تحول هذا الشاب ، الذي علّم نفسه بنفسه ، إلى أسطورة بما يقوم به من «خوارق التنويم» المغناطيسي ، واستحضار الأرواح بواسطة أخته ، وذلك بعد رحيله إلى القدس ، ثم إلى بيروت حيث دعا نفسه «داهش بك» ، ثم «الدكتور داهش» ، وأسس «طريقة» عرفت بالداهشية .

يدور أبو شمعون ، وهو ما يزال يلبس «القلبغ» والشروال العثمانيين ، ليقدّم للطالبين القهوة والليموناذة والفوّار .

أما الحدث الكبير الذي امتلأت به بيت لحم في أحد المواسم ، فكان السيرك الذي قدم إلى البلدة ، واحتلّ الساحة الكبرى من سوق البلدية . كان أخي يوسف يأخذني ، ونصطحب معنا نعّوم وعبده وجورج وسليمان وغيرهم إلى السوق ، لنرى ضروباً من الأساقيل تقام ، وحبالاً تشدّ من سارية إلى سارية ، وسط هرج ومرج . وبعد يومين أو ثلاثة حضرنا حفلة أدهشني فيها مشي رجل وامرأة على حبل عالٍ مشدود في الفضاء عبر ساحة السوق . وقد قاما بألعاب بهلوانية على الحبل ، وأنا أخشى عليهما السقوط - كأنني أنا الذي سأسقط في هاوية لا قرارة لها! - ولا يسقطان . وقال أخي : «انظر ، كيف شدّ الماشي على الحبل لوحاً من الصابون النابلسي تحت كل من قدميه ، ومع ذلك ، لا يتزحلق ولا يقع!» وكانت الفتاة تلحق به على الحبل خفيفة القدمين ، وتضحك ، فأرى لها سنّاً ذهبية تومض بين شفتيها ، وتنهّدات المتفرجين المعجبين من الرجال تُسمع حتى باب الدير!

وأقسم نعّوم أنه ، لو سمحوا له ، لصعد إلى الحبل ومشى عليه كأحسن بهلوان! فقلنا له : «صادق يا نعوم ، صادق . بس خلّينا نتفرّج هالحين» .

بعد ثلاثة أيام أو أربعة جاء ليأخذني لرؤية الحاوي طويل اللحية الذي كانت حلقة من المتفرجين قد بدأت تتكامل حوله . كان قد وضع عنه جرابه ، وبدأ ينفخ في مزماره ، وإذا حيّة كبيرة تبرز رأسها من طرف الجراب ، ثم تمدّ عنقها وتبدأ بالتمايل على النغم ، وإذا برؤوس حيات تبرز إلى جانبها - ونعّوم يمسك بذراعي خائفاً ، متلذذاً ، وأنا لا أقلّ عنه خوفاً ولذة .

كانت هذه الإثارات التي يهتز لها الشارع ساعةً أو ساعتين ، قليلة عدداً ، ومتباعدة زمناً . ونعّوم يعي ذلك . ومهما تحسّر على فرجة فجائية يزدحم فيها الشارع ، فهو راضٍ من الحارة بهدوئها ودفئها ، ولا يخشى إلا أيام البرد والمطر . كانت أماكنه المفضّلة عتبات مداخل البيوت الضخمة على الطريق . وهي من

حجارة كبيرة صقلها الزمن ، وبعضها عالٍ علوّ المصطبة ، وأبوابها قليلاً ما تفتح . فيجلس على طرف من العتبة ، ملتصقاً بالزاوية ، يحكّ قدميه الحافيتين الواحدة بالأخرى ، ويرقب المارّة في انتظار أصدقائه من الصبية عند خروجهم من المدارس ، ومعه دائماً شيء من الحلو حامض ، أو حفنة من «البزر» أو «القضامة» ، أو أقماع السكاير - «الدراديم» - التي يتلقطها من الطرقات ويجمعها في علبة قديمة ، ويقدّمها هديةً لهذه العجوز أو تلك من النسوة اللواتي قد يُعنين أحياناً به . وعنده من علب الصفيح أنواع وأحجام ، يأتي بها من المزابل . وهناك مزبلة بجوار مدرسة «الفرير» يذهب إليها على فترات ، كالذاهب بحثاً عن كنز ، ويعود حاملاً من النفايات واللّعب والقناني ما يقدّمه بسخاء لأصدقائه ، لقاء لعبهم معه .

في يوم حارّ ، بعد الظهر بقليل ، لقيته قابعاً في زاوية مظلّلة من بوابة كبيرة ، انطلق منها متمايلاً نحوي ، وقال : طلعت روحي وأنا في انتظارك ، ألا تخرج من البيت أبداً؟»

قلت : «كنت في المدرسة هذا الصباح . وما عندنا مدرسة اليوم بعد الظهر» .

قال : «إلى أين أنت ذاهب الآن؟»

قلت : «إلى بيت جورج ، لكي نخرج إلى الحواكير» .

قال : «والخرفان ، أين هي؟»

قلت : «أبي باعها في الأسبوع الماضي . وهو الآن يبحث عن خروفين صغيرين جديدين» .

أخذ بيدي وقال : «سآتي معك إلى بيت جورج ، فنأخذه معنا ونذهب إلى المزابل» .

قلت : «الدنيا حارّة ، وعيناي تؤلمانني» .

قال : شفت لك مزبلة جديدة غير مزبلة الفرير . أمّا شو ، بتجنّن! قريبة من القبّة ، ومليانة لباب دينها بالأشياء . . . يلاّ» .

رحنا نركض إلى بيت جورج ، ووجدناه جالساً على الأرض أمام أبيه ، وبين يديه كتاب ، وأبوه يحثّه على القراءة فيه ، وغليونه الكبير متدلٍ من تحت شاربه

الكثّ يطلق حلقات الدخان ، والحطة بدون عقال تحيط برأسه ورقبته . وما إن رآنا جورج من خلال الباب المفتوح في فناء الدار ، حتى وضع الكتاب عنه ، وخرج إلينا .

واتجهنا نحو خندق على حافة الفناء ، هبطنا فيه ، ومنه قفزنا إلى الطريق العام ، وسرنا باتجاه «القبة» . والقبّة معلم بارز من معالم بيت لحم ، وكانت لي الحدّ الفاصل بين المعلوم والمجهول . فما دمت أنا في هذه الناحية منها ، فأنا ضمن تخوم البلدة التي أعرفها وتعرفني . أما إذا تخطيتها إلى الطرف الآخر ، حيث تمتد الطريق إلى القدس ، فأنا مجازف في عالم كله غوامض وأسرار . وعلى مقربة من المكان حجر كتب عليه : «حدود بلدية بيت لحم» ، وهو يؤكد لي حسّي بالخط الفاصل بين الألفة والغربة .

كان هذا المعلم مبنى صغيراً مربعاً ، تعلوه قبّة بالفعل ، وفي جداره المنخفض القائم على حافة الطريق نافذتان صغيرتان مفتوحتان دائماً إذ لا درفات لهما . والاسم الكامل لهذا المبنى «قبّة راحيل» . كان أخي قد أخبرني أن راحيل هي أم يوسف الحسن ، وإذ كانت على سفر مع زوجها يعقوب ، ماتت في الطريق ، ودفنت هناك . وتركت طفلاً ابن يومين ، فسمّي بنيامين .

كنّا أحياناً نرى رجالاً غريبي الأشكال ، يلبسون معاطف سوداء طويلة ، وقبعات فرو أو برانيط سوداء ، لهم وجوه جهمة وسوالف لولبية مخيفة ، ولحى طويلة ، نسميهم الحاخامات ، يأتون إلى «القبة» بالسيارات ، ونسمع لهم ولولة غريبة إذ يصلّون في داخلها . ولا نكاد نقترب من النافذتين ، حتى نتراجع عنهما وفينا شيء من خوف غامض . فأمهاتنا يوصيننا بالحذر من أولئك اليهود ، ويقلن إنهم يسرقون الأطفال في أعيادهم ، ليذبحوهم ويمزجوا دماءهم في عجين خبزهم الفطير . وقد أدهشنا أننا رأيناهم عدة مرات ، ولم يجرؤ واحد منهم على مد يده إلينا . ونحن بالطبع لن نهيئ لهم المجال لذلك بالاقتراب منهم أكثر مما ينبغي . . . .

كان الحر شديداً ذلك اليوم ، . وعيناي رمداوان منذ يومين أو ثلاثة ، وأشعر

بحكّة في أجفاني تؤذيني . أحسست بأن الطريق إلى القبّة هذه المرة طويل جداً ، وباهر على أكثر من عادته ، بترابه الأبيض الساطع ، والعرق يتصبب من جسمي ، وأحسّ به يسيل على صدغيّ وحول عنقي ، وعلى ظهري ، وبين إليتيّ . ونعّوم يحدثنا عن كنوز مزبلته التي اكتشفها مؤخراً . إلى أن بلغنا ، قبيل وصولنا القبة ، كوخاً عتيقاً تزدان واجهته بعريشة خضراء تتدلّى منها عناقيد الحصرم وفجأة صاح نعّوم : «الدبّة! طلعت الدبّة! ديروا بالكم!»

امرأة بدينة شوهاء خرجت لتجلس تحت العريشة ويبدو أنها تخشى على أعنابها . فإذا اقترب أحدٌ منها بادرته بالشتائم . وكان علينا أن نمرّ من أمام عريشتها ، لننعطف عن الطريق العام الى كنوز نعّوم . غير أن نعّوم صاح بها : «كيف حالك يا دبّة!» وقذفها بحصاة ، وانطلق راكضاً على عرجه ، ورحنا نركض وراءه . وخرجت المرأة في إثرنا تقذفنا بالحجارة ، حجراً تلو الحجر ، وتصيح بصوت أجش : «يا حرامية! يا حرامية يا أولاد الكلب!» وجعلت أتخيّل شفتيها الغليظتين وهما تلحقان بنا ، وهما من تحت شاربها المخيف تطلقان ذلك العواء المتواصل المجنون .

بلغنا المزبلة لاهثين ، وبين إليتيّ من الحرّ والعرق ألم حكّاك بغيض ، وعيناي تدمعان من الالتهاب . وكان عليّ أن أتجنّب بقدميّ الحافيتين كِسَر الزجاج والقطع المعدنية الحادّة كالسكاكين ، ونحن ننبش القمامة بحثاً عن شيء نأخذه إلى البيت . الروائح كريهة ، وسحب الذباب تعلو وتحطّ علينا وعلى كل شيء . وعلى بعد منّا تبدو أشجار الزيتون نظيفة رغم ما عليها من غبار ، نعسانةً في الشمس اللاهبة . ورفيقاي يقفزان من كومة إلى كومة ، ويصيحان بين حينٍ وآخر . «هه! ها! شوفوا! شوفوا!» .

غير أنني سئمت ذلك كله ، إذ لم أعثر على شيء يروق لي ، وسرت من بين الحدائد والخرق والعظام إلى إحدى الزيتونات التي في الطرف الآخر ، وألقيت بنفسي على الأرض الحمراء في ظلّها . ما أبرد الظلّ! وتمنيت لو أنام على التراب ، لولا أن نعّوم وجورج كانا في هتاف مستمر ، والحرقة في أجفاني وبين إليتيّ تشتد

بي أذىً يمنعني حتى عن الإسترخاء .

كانت العودة الى حارتنا ، والشمس آذنة بالمغيب ، رحلة عذاب بالنسبة لي . تركنا جورج عند داره ، وفي حوزته عدة كعاب ومرآة مكسورة ، وغادرت نعوم عند البوابة الكبيرة التي يبات الليل أحياناً على عتبتها ، وقد حشا عبّه بأنواع من النفايا ، وبلغت البيت وأنا أكاد أعجز عن السير .

قالت أمي : «أين ذهبت يا حبيبي ، وعيناك ملتهبتان؟ ما هذا الاحمرار الغريب؟ تعال ، لأغسلهما لك» . واتجهت نحو جدتي قائلة : «يمّه ، اجلبي لي القطرة» . وغسلت عينيّ ، ثم جلست على الأرض واضجعتني أمامها ، وجعلت رأسي في حضنها ، وقطرت عينيّ .

ثم ذكرت لها الألم الحارق الذي في مؤخرتي . فنزعت عني بنطلوني ولباسي ، وبعد نظرة واحدة إلى موضع الألم ، صاحت : «ما هذا الاحمرار؟ أين كنت طيلة غيابك منذ الظهر ، وأنت في هذه الحال؟»

وأتت بطاسة من الماء البارد وجعلت تدلقها على دفعات بين فخذيّ وإليتيّ ، وألحقتها بطاسة أخرى ، ثم قذفت إليّ بقطعة من الخام وقالت : «يلاّ ، نشّف حالك . . . مثل السعدان ، مسمّط وداير في الشوارع . . . وشوف ساقيك ، وقدميك! كأنك لا تلعب إلا في المزابل! قم ، واغسل رجليك مثل البشر» .

لم أعرف الألم كما عرفته في تلك الليلة . نام أفراد العائلة كلهم ، وأنا أتقلّب على الفراش ، قرب أبي . فانتبه إلى أرقي وسألني في الظلام همساً . «ما بك؟ لماذا لا تنام؟»

قلت : «عيناي تؤذيانني جداً ، بابا ، عيناي ، عيناي . . .» واستبد بي البكاء .

فاستيقظت أمّي ، وقالت : «هس ، حبيبي ، هس! سأقطّرهما مرة أخرى ، فترتاح . دقيقة!»

ونهضتُ ورفعت قليلاً فتيلة اللمبة المنوّسة ، فأحسست كأن النور بعيني . ومرة أخرى أخذتني في حضنها ، وأسقطتْ القطرة في عينيّ . وقامت ونوّست اللمبة

من جديد . ولما كانت ما تزال ترضع أخي عيسى ، فإنها بعد ذلك ، عندما لاحظت أنني لم أستطع النوم ، أخذتني بجانبها ، وأخرجت نهدها ، وقطّرت من حليبها في عيني . فشعرت بشيء من البرودة والراحة .

ولكنني ما كدت أغفو قليلاً على صدرها ، حتى استيقظت مرة أخرى ، وألم كالنار يسري بين إليتيّ ، وفي عينيّ ، والأنين ينبثق عن حلقي رغماً من إرادتي . ودار حديث في الظلام بين والديّ وجدتي . أبي يقترح الانتظار حتى الصباح . وأمي تقول : «ولكن الولد تعبان» ، وجدتي تقول : «لا بدّ من دواء غير هذه القطرة السخيفة» .

وعندها تمّ قرارهم بالإجماع . قال أبي : «أتقدر أن تشخ؟»

قلت : «سأجرّب» .

وناولتني أمي طاسة ، وقالت : «شخْ بها!»

وفعلت .

وجاءت أمي بالقطارة ، وملأتها من بولي ، وقطّرت البول في عينيّ ، وبكثرة ظاهرة .

ثم مسحتُ عينيّ وخدّي ، وأرقدتني مرة أخرى بجانبها ، وعلى جانبها الآخر سرير أخي الطفل ، وراحت تربت على صدري ، وتترنّم لي ، كأنني رضيع آخر . ونمت .

لما استيقظت في الصباح التالي ، وجدتني وحدي على الفراش الملقى على الأرض . كان الباب مفتوحاً ، رأيت من خلاله أرض الحوش تتألق ، ومن ورائها رأيت الجبال البعيدة زرقاء ، مشرقة . وبحذرٍ تحسّست عيني . كان الألم قد زال ، كما بمعجزة ، وسمعت جلبة عند الجيران . وإذا النسوة تطلق الضحكات ، ويصفّقن ، ويغنين : «قام الدب ليرقص ، وقتلُ لهُ سبعة أنفس . . .» ونهضت مسرعاً ، ولبست بنطلوني ، وخرجت لكي أنضمّ إليهنّ ، وأصفّق معهنّ لنعّوم .

كان عبُّه ، وهو يرقص ، محشوّاً بحصيلة بحثه يوم البارحة . ووجهه الملوّث ، على بلاهته ، ينضح بالعافية . وفجأة ، توقف عن الرقص ، وراح يركض في اتجاه

الشارع . فقالت أم شكري ، جارتنا : الله وكيلكم ، سمع غناء النَّور ، فأسرع إليهم . لا ينقصه إلا أن يزوِّجوه من نوَريّة مثله!»

سمعتُ ذلك ، فانطلقتُ أركض وراءه . غير أن أمي رأتني ، فصاحت بي قبل أن أبلغ البوابة الخارجية ، وأمرتني بالعودة فوراً . . . وعلمت من لهجتها الصارمة أنها جادّة فيما أمرتني به . وعدت .

- ١٠ -

في عـام ١٩٢٧ وقع زلزال في فلسطين أرعب النـاس ، وكـان أشـد وقـعـه في مدينة نابلس ، حيث سقطت من جرّائه بيوت كثيرة ، وراح العديد من الضحايا .

وبيت لحم كذلك تهدمت فيها منازل لا تحصى ، ولا سيما القديمة المتداعية ، وتصدّعت مبانٍ كثيرة ، وانشقّت الأرض في أماكن مختلفة ، مما أوقع الهلع في القلوب ، وراح الأهالي يصلّون صباحاً ومساءً كل يوم ، عسى أن يغفر الله لهم ويدفع عنهم شدته وغضبه[1] .

في أعـقـاب ذلك جاء إلى بيت لحم البطريرك إليـاس الثـالث من مـقـرّه من ماردين بتركيا (الذي جعله بعد ذلك في حمص بسوريا) ليتفقد أحوال رعيته . وكان مجيئه بيننا أشبه بمجيء رسول من السماء ، يشعّ وجهه المستدير المُلحّى بطيبةٍ عجيبة . زارنا في المدرسة ، بكل هيبته ووقاره في ثيابه الكهنوتية السوداء

---

(١) كان هذا الزلزال تجربة مرعبة ، وصفت بعض آثارها في الفصل السادس من روايتي «البحث عن وليد مسعود» ، مما يغنيني هنا عن إعادة الكلام فيها .

والقرمزية ، وعلى رأسه قلنسوة سوداء تلتمع ، وعلى صدره قلادة فخمة عُلّق بها صليب كبير مرصّع بأحجار كريمة حمراء وزرقاء . وتحدّث لنا ، نحن الصغار المشدوهين ، عن طبيعة المسيح الواحدة ، ورفض مزاعم «المارقين الذين شوّهوا تعاليم الآباء الأوائل حين قالوا إن للمسيح طبيعتين اثنتين» . وخيّل إليّ في تلك اللحظات ، وأنا أصغي إلى صوته المخملي الجميل ، إنني جعلت أدرك أموراً خطيرة ، مهما تكن عسيرة على عقلي الطفلي .

وقيل لنا بعد ذلك أن البطريرك سيقيم القدّاس بنفسه صباح اليوم التالي ، الذي اتفق أنه يوم أحد ، وسوف يلقي على المصلّين «موعظة رسولية» راح الجميع يتطلّعون إلى سماعها متلهّفين .

وفي فجر اليوم التالي نهض أبي ، وأيقظنا أنا وأخي ، لنتهيأ لحضور القدّاس الموعود والخدمة فيه . ودون أن نتبلّغ بلقمة من طعام ، كالعادة ، ذهبنا نحن الثلاثة قبل طلوع الشمس إلى الكنيسة ، والشموع لم توقد بعد . فاشتركنا مع القندلفت بإشعالها ، وجاء القسيس والشمامسة والمرتلون ، وأخذت الكنيسة تمتلئ بالقادمين . ثم جاء البطريرك محفوفاً بالرهبان والمطارنة ، وجلس على كرسيّ أشبه بعرش منقوش مذهّب ، جُلب خصيصاً له ذلك الصباح ، أمام الستارة الكبيرة التي تفصل الهيكل عن بقية الكنيسة ، وقد رُسم عليها المسيح مصلوباً ، والملائكة تحمل كؤوساً تجمع فيها الدم النازف من راحتيه المسمّرتين ، والجنديّ الروماني من على حصانه يطعن بسنان رمحه خاصرة المصلوب ، فتسيل منها الدماء . وشرع الحوقان بتلاوة الترانيم ، والمرنّمون - وأنا وأخي بينهم - يقرؤون صفحاتٍ من الكتب المخطوطة الضخمة التي يحملها محمل على اليمين من أمامية الهيكل ، وآخر على اليسار منها .

وبعد أكثر من ساعتين من الترانيم والقراءات والأدعية ، بدأت مراسيم القداس . ذهبنا إلى وراء الهيكل ، وارتدينا قمصان المنغمين ، وارتدى البطريرك حلّته المقصّبة ، المزركشة ، الباهرة ، كما ارتدى الكهنة عباءاتهم الملوّنة الجميلة ، وسحبت الستارة جانباً لتكشف عن المذبح وقد وقفنا جميعاً ، نحن الذين نخدم

القداس ، في صفين متقابلين ، إذ راح الحبر الكبير يقوم بواجبه الطقسي ، بمعونة الكهنة والمرتلين ، وحاملي المباخر .

كانت الكنيسة مكتظة بمن فيها حتى الاختناق ، ومعظم المصلّين الخاشعين يمسكون بأيديهم شموعاً موقدة ملأ دخانها الجو . وكان قد مضى عليّ ، وأنا واقف على قدميّ ، قرابة الساعات الأربع ، عندما جاء دور الموعظة . وجعلت أحسّ بتعب لم أعتده ، رافقه مغص في أحشائي أردت أن أتناساه لأنني أنتظر الموعظة ، التي سأنتبه إلى كل كلمة تقال فيها . وتقدّم غبطة البطريرك من المحمل الأوسط ، حيث يستقر الإنجيل في مخطوطة كبيرة غلافاها من فضةٍ نقشت فيها صور من حياة المسيح .

ولسبب ما ، طُلب إليّ ، وإلى اثنين من رفاقي ، أن نصطف أمام هذه المنصّة ، والشموع في أيدينا . وعندها رفع البطريرك بيسراه العصا التي تعلوها أفعى النبي موسى (التي كل من نظر إليها عادت إليه الحياة) ، ولوّح بيمناه التي تحمل صليباً كبيراً ذُيّلت قاعدته بمنديل جميل ، ورسم به في الفضاء إشارة الصليب وهو يقول بصوت جهوري رنّان : «باسم الأب ، والابن ، والروح القدس» - وإذا أحشائي تتلوى ، وتنطلق من حنجرتي آهة طويلة ، وأرى نفسي أتهاوى مكرهاً على الأرض . وغبت عن الوجود .

يبدو أن سقوطي المباغت أمام البطريرك ، وعيون المصلّين كلهم شاخصة نحو الواعظ الجليل الذي ينظرون إليه نظرتهم إلى قدّيس من الأيام الخوالي ، أوقع ارتباكاً في الموقف ، جعل بعض الرجال يسرعون إليّ ، والتقطني أحدهم ، مستبقاً أبي ، ورفعني إلى صدره ، وخرجوا بي إلى الهواء الطلق .

أفقت لأجد نفسي محمولاً على ذراعي رجل لا أعرفه بين أناس يلغطون ، وهم يصعدون بي الدرج ، وأنا لا أدرك ما الذي يجري . إلى أن أدخلوني قاعة «الجمعية» ، ومدّدوني على الكنبة . غير أنني كنت عندئذ قد استعدت بعضاً من وعيي ، فجلست ، وقبل أن أقول شيئاً ، تقلّصت معدتي ، وقذفت القليل الذي فيها على الأرض . . . وسألني أحدهم ، وهم ينظفون البلاط : «ماذا أكلت اليوم ،

يا ولد؟»

تمتمت : «لا شيء . . . أبداً» .

ولكنني تذكرت فجأة أنني في الليلة السابقة ، إذ جعت ، التهمت عدة خيارات خضراء وصفراء دون تقشيرها ، وأويت إلى الفراش دون أن أتناول أي طعام آخر ، وكانت النتيجة ما حدث هذا الصباح .

أحسست بإعياء شديد ، ولم أقل شيئاً . ورأيت أبي جالساً إلى جانبي ، يعتذر عما فعل ابنه .

عاد الرجال ، بعد أن اطمأنوا عليّ ، إلى الكنيسة ، ليستمعوا إلى ما تبقّى من الموعظة . أما أبي ، فرغم مقاومتي ، حملني على صدره ، ونزل بي الدرج وصوت البطريرك يصل إلى آذاننا ، قوياً ، ساحراً ، من باب الكنيسة المفتوح .

فأغرى ذلك أبي بالتوقف برهتين عند الباب ، والصوت يحمل كلمات غريبة ، أصغيت إليها وصدري مستقر على صدر أبي : « . . . وكما قال مار أفرام في رسالته إلى نسّاك الرها : تمسكوا بالإيمان والصلاة ، وكونوا كالمسيح في البريّة ، دونما خوف من الجوع أو الضواري ، فلن تتلوثوا بأوحال الخطيئة ، لأنكم ألقيتم عن كواهلكم نير العالم ، وطغيان المقتنيات . . .»

عندها أسرع بي أبي إلى الطريق ، وأنا أسأله : «ما معنى طغيان المقتنيات؟»

فقال : «والله يا ابني مش فاهم ولا كلمة . . . بس أنت أرعبتني ، وضيّعت عليّ موعظة رائعة» .

في الدار قامت أمي ، وهي منهمكة في تحضير الغداء : «لماذا لا تأكلون شيئاً قبل الذهاب إلى القداس؟»

أجاب أبي : «العياذ بالله! أتريدين أن نتصرف كالكاثوليك؟ يفطرون ويشبعون ، ثم يتهادون إلى الكنيسة في الساعة التاسعة ، والشمس في الضحى . . . ألا تعلمين أن الله ، سبحانه وتعالى ، لا يقبل الصلاة إلاّ ممن كان جائعاً ، أو صائما؟»

فردّت أمي بقولها : «والله يا إبراهيم ، كلامك كله صحيح» .

تحولنا إلى بيت آخر . لم أكن أعرف أول الأمر لماذا يقرر والدي مثل ذلك التحول بين حين وحين . ولكنني أدركت فيما بعد أن رسم الإيجار كان العامل الأهمّ - كان أقلّ من الإيجار السابق - وربما كان اتساع البيت عاملاً إضافياً . فمن الخشاشي ، انتقلنا إلى دار في «حوش دبدوب» ، وبعد ذلك بفترة ، انتقلنا إلى «دار فتحو» . وذلك أن رجلاً اسمه فتح الله استأجر بيتاً قديماً من طابقين ، احتل منه هو طابقه الأعلى ، فأجّر لنا الطابق الأسفل الذي يُنزل إليه بدرج متّسق مع هبوط الأرض الطبيعي في اتجاه حاكورة كبيرة ، يقوم باب الدار على حافتها . وقضينا يومين مضنيين في نقل الأمتعة والأفرشة على رؤوسنا وظهورنا مع مساعدة من بعض الأصدقاء والجيران ، إلى البيت «الجديد» . وهو يتألف من غرفة كبيرة بعض الشيء يفصلها عن بيت الخراف وقن الدجاج حاجز خشبي . كان للدجاج كوّة في الجدار الخارجي على مستوى إحدى الدرجات ، فيدخل ويخرج منها على هواه . أما الخراف ، فندخلها إلى غرفتنا ، ومنها إلى بيتها ، ونغلق عليها الباب الذي في الحاجز الخشبي - والبقّ يعشعش فيه بكثرة رهيبة ، ولا ينتهي مهما حاولنا القضاء عليه ، ويغزو فراشنا في الليالي الحارّة ليمتصّ من دمائنا بإلحاح حقود .

ولكن كان لهذا البيت مزاياه . فبما أنه في الطابق الأسفل من المبنى ، كان سقفه معقوداً ، ومحمياً بواسطة الغرفة التي هي الطابق الأعلى ، من مشكلات الدلف والخرير أيام المطر . وكان في ركن من السقف فتحة مربعة لها باب يصلنا مباشرة عند رفعه بالغرفة العليا ، وعن طريقها قد نتخاطب أو نتواصل مع آل فتحو ، ولا سيما بعد أن أصبح سليمان ، ابن فتح الله الأصغر ، من أعزّ أصدقائي . وكنا على اتصال مباشر بالمنطقة المشرفة على «الطريق الجديدة» ، والوادي الذي يليها ، والتلال التي تتصاعد وراءه . فنرى الآفاق البعيدة ، المنتهية شمالاً بالمرتفعات ، التي تعلوها «رامات راحيل» ودير مار إلياس بقبته المتميّزة ، وتحجب وراءها مدينة القدس ؛ وشرقاً بالجبال الزُّرق ، وهي التي تطلع الشمس من ورائها . هذا الانفتاح اللانهائي على الدنيا كان لي متعة هائلة : فنحن نرى

الشروق كل يوم بألوانه الصاخبة ، ونرى كل ليلة ، في الناحية الشمالية ، وقد جلسنا نسهر على الدرج الحجري ، وهجاً ينتشر على امتدادٍ من الأفق وراء الجبل . ولما سألت أخي يوسف عن ذلك الضياء الغريب ، قال دون تردد : «إنه ضياء مدينة القدس . يريد الله لها أن تتوهج في وسط الظلام الذي يملأ الدنيا . . .»

وكانت ثمة شجرتا لوز كبيرتان على حافة الحوش الذي ننزل منه إلى الدار ، نتقاسم ثمرهما مع جيراننا . والأهم من ذلك أنني أتسلقهما ، فأشعر وأنا وسط ذلك الفضاء الفسيح ، أنني علوتُ قمة الدنيا . وتنسرح أخيلتي في اتجاه تلك الآفاق القصية التي أرى السماء مستقرة عليها ، وأتمنى لو أستطيع الذهاب إليها ، والصعود إلى قممها ، ومنها أفتح كوّة في رقعة السماء ، أدخل منها إلى حيث قد أرى الله والملائكة . . . .

ولكن كان هناك منغّص صغير ، علينا أنا وأخي يوسف أن نتدبّر أمرنا معه كلما تأخرنا في العودة إلى البيت بعد حلول الظلام . ففي أول الطريق الترابية النازلة من الشارع العام إلى حوش الدار ، ثمة شجرةُ تينٍ ضخمة ، متشابكة الجذوع والفروع ، علينا أن نمرّ بمحاذاتها . قيل لنا إن هذه التينة يبيت تحتها ، أو بين أغصانها ، مارد قديم . وما حكاية هذا المارد؟ قالوا إن رجلاً قُتل ذات ليلة تحت هذه الشجرة طعناً بالسكاكين . وانتشر دمه على التراب ، وشربته الأرض . ومرّت بضعة أيام قبل أن يأتي إلى القتيل من تعرّف عليه ، ونقله إلى أهله ، ولكن لم يعرفوا من قتله ، ولم ينتقم له أحد . ولذا نهض من دمه المراق مارد ، يستيقظ في الليل ، ويتربّص بمن يمرّ تحت الشجرة أو بمحاذاتها ، ليمسك به ، ويطالبه بالانتقام له - هذا إذا لم يخنقه في سورة من الغضب . . . فكنّا إذا عدنا إلى البيت في الظلام ، وبلغنا التينة ، نرتعب خوفاً من خروجه إلينا ، ونغرق مروق السهم ونحن نرسم إشارة الصليب ونكرّر رسمها ، لأن المردة كالشياطين ، تخاف إشارة الصليب ، فتتحجّر إزاءها ، وتعجز عن الأذى . . .

وكانت دار صديقي جورج على مقربة منا ، وهي مجاورة لدار خليل زميريّة ،

صاحب معظم الحواكير المحيطة بنا ، والتي كانت ملأى بأشجار الرمّان ، والتوت ، والتين . والعم خليل من صانعي الصلبان والمسابح الصدفية التي يصنعها هو وزوجته في البيت ، وتبيعها له حوانيت «السوفنير» في ساحة المهد . وكثيراً ما يدعونا ، أنا وجورج وسليمان ، للجلوس على الأرض في مشغله ، لنساعده في تخريم الخرز أو مسح ظهور الصلبان الصغيرة بمادة شمعية زرقاء ، فتظهر من خلالها كلمة «بيت لحم» أو «جيروسالم» (بالأحرف اللاتينية) التي يكون قد حفرها في الصدف بسرعة مدهشة . ومقابل ذلك ، يسمح لنا باللعب في حواكيره حتى في أثناء مواسم الرمان والتوت والتين . ولكن إذا أتينا بالمزيد من رفاقنا ، وبالغنا في العبث بالأشجار ، فاجأنا بالصراخ والسوط في يده ، فنركض هاربين ، وهو يركض في إثرنا ، صائحاً بالشتائم ، ومطرقعاً سوطه في الهواء . . . غير أنه ، بعد يومين أو ثلاثة ، يغفر لنا ، وينسى ما حدث ، ويدعونا مرة أخرى لمساعدته في عمله اليومي .

كانت الحاكورة الكبيرة ، التي يقوم باب دارنا على حافة جدارها ، منخفضة جداً عن مستوى الدار . وبما أن عبورها يختصر المسافة إلى «الطريق الجديدة» ، التي نهبط منها عادة إلى وادي الجمل وحقول الزيتون ، في بحثنا الدائب عن الأزهار والنباتات البرية ، عن الجنادب والزيزان ، عن الحلزون والحراذين ، فقد غدا من عادتنا أن نقفز إلى الحاكورة قفزاً دون أن نحاول تركيب أربعة حجارة أو خمسة بما يشبه الدرج لتسهيل نزولنا إليها . كنّا في اللعب في عجلة دائمة ، وشيمتنا القفز والركض والتسلّق بأقدامنا الحافية . كرة القدم أيضاً كنا نلعبها ونحن حفاة .

قفزت ذات صباح ، للّحاق برفقتي ، إلى الحاكورة ، ووقعت قدمي اليمنى في الوسط من كعب زجاجة مكسورة ، كانت كأنما قد نُصبت لي كالفخّ ، وكادت الزجاجة اللئيمة أن تشقّ قدمي وسط أخمصها شقين . تكوّمت على التراب والحجارة ، وسحبت قدمي والدم ينسكب منها ، وتسلّقت الجدار بأحسن ما أستطيع عودةً إلى البيت ، وأنا أعيط . وأدركتني أمّي بالعلاج ، مع التقريع الذي لا بد منه على شيطنتي وحركتي التي لا تهدأ . وكان العلاج ، بعد مسح الدم ، سدّ الجرح البليغ بالطريقة المألوفة - بالشعشبون ، أي نسيج العنكبوت ، وهو كثير حول

الدار ، والحمد لله . وبقيت طريحاً على الحصيرة ثلاثة أيام ، كانت لي كالجحيم ، لولا ملاعبتي لأخي الصغير عيسى ، وقطتنا الأثيرة فلّة . وبعدها ، إذ عصبتُ قدمي بخرقة بالية ، ورغم الألم ، وتحذير أمي وجدتي ، عدت إلى القفز والركض مع رفقتي . وعدت إلى المدرسة .

وخطر لي ، وأنا أمر إزاء التينة المسكونة . أن ماردها له علاقة بما وقع لي . لقد سفك دمي الماردُ اللعين ، فلم يبق له حقّ عليّ! وقلت ذلك لأخي . فضحك يوسف وقال : «ما لك أنت والمارد؟ أنت بريء . والمارد في انتظار المجرم الحقيقي» .

سألته : «إذن لماذا تخاف أنت أيضاً عندما نمرّ بالتينة في الليل؟»

هزّ رأسه وقال : «لست أدري . يجب ألا نخاف ، أنا وأنت ابتداءً من هذا المساء لن نخاف! اتفقنا؟»

قلت : «اتفقنا! لن نخاف!»

في دار خليل زميرية كنا أنا وجورج نساعد العم خليل في نظم خرز «المسابح الوردية» ، عندما مرّ أبوه ليخبرنا أن جماعة من الأولاد ، الأكبر منا قليلاً ، كانوا يتهيؤون للذهاب إلى القدس بصحبة المعلم جريس ، لكي يرسمهم المطران ميخائيل شمامسة في صباح اليوم التالي في دير مار مرقس . وقال لابنه : «لماذا لا تذهب معهم أنت أيضاً ، وتبات الليلة عند عمتك في القدس ، وتعود غداً بعد الصلاة؟»

نظر إليّ جورج وقال : «ما رأيك؟ أتذهب معي؟»

قلت : «أسأل أمي أولاً» .

وركضت إلى الدار لأخبر أمي بأنني سأذهب إلى القدس للرسامة في الدير ، وأبات مع جورج عند عمته . غير أنها لم توافق على هذه النزوة الفجائية :

- «كيف تذهب إلى القدس؟»
- «مشياً على الأقدام» .
- «وكيف تعود؟»

- «مشياً على الأقدام» .

- «لا! لن تذهب» .

ولكن لهجتها في الرفض لم تكن قاطعة ، كعادتها عندما تكون جادة . وانصرفت إلى شؤونها دون أن تكرر الرفض . وبعد قليل جاء جورج ، وقد لبس حذاءه ، فلبست حذائي . وكانت أمي ذلك اليوم ، على دأبها معظم أيام السبت ، قد حمّصت كمية من بزر البطّيخ ، فملأتُ به أحد جيوب سترتي . وكنا نعلم أن الصبية سيمرّون ، حين يتوجهون نحو القدس ، من الطريق التي تشرف عليها دارنا .

ولم يطل انتظارنا قرب اللوزتين : رأينا المعلم ، بقامته الطويلة ، مع أربعة من الأولاد يسيرون بشيء من السرعة ، وصحت لأمي : «يمة! أنا رايح عالقدس مع الجماعة!» وقفزنا أنا وجورج إلى الحاكورة ، ومنها إلى الطريق ، وانضممنا إليهم ، وبي اندفاع غريب لأنني سأرى القدس مع أصدقائي - ولم أكن قد رأيتها من قبل إلاّ مرة واحدة ، يوم أخذتني أمي إليها لشراء حذاء كنت أبغضه وأريد التخلّص من ذكراه .

كم كان رائعاً عصر ذلك اليوم أن أتجاوز أخيراً قبّة راحيل ، بلوغاً إلى شجرة الخرّوب الكبيرة التي على يسار الطريق - تلك الشجرة المستوحدة ، المتفجّرة من الأرض بين أشجار الزيتون الغبراء ، كقبّة خضراء فسيحة ، وهي التي كثيراً ما آوينا إلى برودة الأفياء تحت أغصانها وأوراقها المتراصّة كلما ابتعدنا عن البيت أيام الصيف القائظة بحثاً عن أعناب الدوالي . وهي محطتنا الأثيرة في الذهاب إلى دير مار إلياس والعودة منه - والدير حتى تلك الساعة أقصى مكان بلغته سيراً على القدم باتجاه القدس .

مررنا بالخرّوبة الجميلة ، ومررنا ببوابة الدير القديم وبئره المهملة ، متجهين نحو البقعة التحتا ، ومنها نحو الطوري . ثم نزلنا إلى مشارف بركة السلطان ، وأطلّت علينا أسوار المدينة القديمة ومئذنة النبي داود ، وقد غمرها شفق بنفسجي من الشمس الغاربة . وصعدنا بعد ذلك إلى باب الخليل .

كنا نعلم أن المسافة هي ثمانية كيلومترات . وذلك من المعالم المثبتة على جانبي الطريق - تلك الأحجار المستطيلة التي نُقرت فيها أرقام الكيلومترات ، والتي كان يروق لي أن أجلس عليها قليلاً ، كلّما بلغت حجراً منها ، زهْواً بما قطعت من مسافة سيراً على القدمين . ولسوف تمرّ السنون بعد ذلك ، وأقطع تلك الطريق جيئةً وذهاباً عشرات المرّات ، حتى لأعرف محاجرها كلها ، وكل صخرة على جوانبها ، وكل زيتونة ودالية ، وكل دار تطلّ عليها - والدور أيامئذ قليلة - فأعرف كل باب ونافذة فيها ، أشكالها وألوانها .

كانت الشمس قد غابت عندما دخلنا «سويقة» باب الخليل ، ونزلنا درجاتها الحجرية الملساء العريضة ، والدكاكين على الجانبين قد بدأت تشعل فوانيسها . ولما بلغنا أول قنطرة تتفرع عندها طريق تصعد وتنعطف باتجاه الدير ، وأخرى تتجه إلى اليسار نحو حارة النصارى ، وثالثة تستمر باتجاه باب خان الزيت ومنه إلى الحرم الشريف ، تركنا الجماعة ، على أن نلتقي صباح اليوم التالي في الدير . وصعدنا أنا وجورج بضع درجات انعطفنا منها إلى زقاق ضيق . كانت البيوت تتراكم على البيوت ، والنوافذ تقرفص على الأبواب ، والأدراج لاصقة بزوايا الأزقة ، وأضواء خافتة تنير مساحات صغيرة هنا وهناك ، فتزيد من كثافة الظلام في الأجزاء التي لم تحظ بالإنارة . وأحسست ، وأنا مُثارٌ وقلق معاً ، بنشوة لذيذة مشوبة بالخوف .

قلت لرفيقي : «أتعرف الطريق إلى بيت عمتك؟ متأكد؟»

جرّني من ذراعي ، داخلاً بي تحت قوس منخفض إلى زقاق آخر ، وقال : «مش بس في النهار . في الليل كمان» .

وبعد قليل كنا في فناء تطل عليه عدة أبواب مشرعة ، والأطفال والنساء في كل مكان . وأسرع جورج إلى امرأة عجوز كانت في تلك اللحظات تشعل «اللمبة» ، وهو يهتف : «عمتي! عمتي!»

استدارت إليه فرحة بالمفاجأة ، واستقبلته بأحضانها ، وقدّمني لها ، ورحبت بنا بكلام كثير . أجلستنا على مرتبة رقيقة فرشتها لنا على الأرض . وجاءتنا ببطيخة على صينية نحاسية وضعتها أمامنا ثم جاءت بسكّين ، وشقت البطيخة

وهي تقول : «يا رب ، اجعلها حمراء!» وكانت حمراء ، شهية ، بزرها شديد السواد ، وقد أخذ الإعياء منا بعد مسيرتنا الطويلة ، فكانت البطيخة ألذّ ما في الدنيا منظراً ، ورائحةً ، وملمساً . ولما جاءتنا العمّة بالجبنة النابلسية والخبز ، وقسمنا البطيخة إلى حزوز ، قالت ، وأنا أتمعّن في تجاعيد وجهها العطوف ، المليء بالغصون : «يلاّ يا حبايب ، كلوا ، وبعدين احكوا لي شو جابكم عندنا اليوم . . .»

لم تكن الشمس قد طلعت عندما أيقظتنا العمّة أم يعقوب . وقالت : «لا تعملوش صوت . يعقوب نايم ، ومش رايح يروح عالصلاة . حضّرت لكم شاي وزيتون وجبنة . . . افطروا ، وبعدين روحوا عالدير . . . القداس راح يكون طويل كتير» .

كنا قد نمنا في ملابسنا ، ولم نخلع إلاّ الأحذية . فلبسناها ، ويعقوب (تبيّن أنه رجل يقارب الثلاثين على الأقل) ملقى على ظهره مفتوح الفم في نوم عميق . وأفطرنا . وخرجنا في طريقنا إلى الدير ، والعمة تودعنا وتقول : «أشوفكم هناك بعدين» .

في الدير ، أدهشتني الكنيسة بهيكلها المنقوش بالزخارف المذهّبة ، وشمعداناتها الضخمة ، وقناديلها المتلألئة ، ولوحاتها الثلاث أو الأربع الكبيرة المعلّقة عالياً على الجدران ، التي كانت عيناي ترتفعان باتجاهها مفتونتين ، شئت أم أبيت . وشاركت في خدمة القداس ، ولو أنني في الواقع ضعتُ تماماً في حشد المرتلين والشمامسة والرهبان الذين كانوا أبرع بكثير مني ومن رفاقي في الترتيل والدعاء .

ثم جاء دور الرسامة ، ولم أدرك منها إلاّ أنها تعني «وضع اليد» ، الذي تسلسل من السيد المسيح إلى بطرس الرسول ، ونزولاً منه إلى آباء الكنيسة منذ قرابة ألفي سنة حتى اليوم . إذن ، سيضع الأسقف يده على رأسي ، ويصلني ببركة يسوع المسيح نفسه . . .

قصّ الأسقف خصلة من شعري ، وصلّى بالسريانية ورؤوس أصابعه على

رأسي ، وألبسني فوق ثوب المنغّمين «هراراً» (وشاحاً) على نحو يرمز بشكله إلى أولى درجات التدشين - وأنا لا أصدّق ما أرى . لقد حسبتني في حلم مستحيل .

لقد حسبتني في حلم مستحيل .

أخيراً خرج المصلّون ، ونزعت الثوب الأبيض والهرار في المشلح المجاور للهيكل ، وتهت بينهم في الباحة المكشوفة . وصعدت درجاً إلى الطابق الأعلى مدفوعاً بفضولي ، وتجولّت بين فوضى البناء القديم المتناثر على غير هدى ، متذكّراً أن المسيح تناول في إحدى غرفه عشاءه الأخير قبل أن يُخان ويصلب . رأيت الرهبان ينسحبون إلى «قلاّياتهم» ، ولا أحد يعيرني أي اهتمام . ووجدت عندما نزلت إلى الباحة أن أحداً من جماعتي لم يبقَ في المكان . حتى جورج اختفى . وخرجت إلى الأزقة التي لا أعرفها جزعاً ، مضطرباً ، لولا أن متعتي برؤية الطرق الصاعدة النازلة ، المتفرعة دوماً ، المنعطفة دوماً ، الملأى بالأطفال في ملابس يوم الأحد ، كانت تغالب اضطرابي وجزعي . وأدركت أنني لن أهتدي إلى بيت عمة صديقي في تلك الشعاب مهما حاولت .

وجدتني فجأة في «السويقة» الضاجّة بالحركة . صعدت أدراجها الملساء في اتجاه باب الخليل ، وقررت النزول إلى الساحة المجاورة حيث تنتظر السيارات والعربات مجيء الركّاب القاصدين إلى بيت لحم والخليل .

مرّ بي بائع السوس ، وهو يحمل جرّته الضخمة على صدره المسربل بوزرة حمراء طويلة ، وقد أثبت قطعة ثلج كبيرة في فم الجرّة ، وراح بيسراه يصفق بصحنين نحاسيين صفقاً بديعاً ، بإيقاع يتكرّر ويرنّ ، وعلى وسطه حزام جلدي صُفّت فيه عدة كؤوس نحاسية ، ويردّد منغماً «بارد يا سوس . . .» وإذا وقف أمامه المشتري ، أخرج بيمناه كأساً من حزامه ، ومال بصدره منحنياً قليلاً برشاقة ليصبّ من ميزاب الجرّة المعدني سيلاً بنّياً رفيعاً يستقر في الكأس في فورة من الحبب حتى تطفح به . . . .

كان منظراً شهيّاً ، اكتفيت منه مكرهاً بمتعة العين . وتمشّيت بين السيارات

والعربات ، متطلّعاً إلى السّواق بشيء من اللهفة ، عسى أن يعرفني واحد منهم . ولكن من في المدينة يعرف طفلاً غريباً في الثامنة من عمره ، لا يحمل في جيبه سوى حبّات قلائل من بزر البطيخ؟

وضعت يدي على رأسي ، وتحسّست مكان خصلة الشعر التي قصّها الأسقف : لعلّ بركة السماء تنزل عليّ من خلال الفراغ الذي تركته الخصلة الفقيدة؟

ما كان لي إلاّ أن أمشي إلى دارنا البعيدة : فلأبدأ مسيرتي . وقد كنت منذ طلوع الشمس واقفاً على قدمي ، ورأيت ساعة سوداء كبيرة معلّقة فوق أحد الحوانيت في منطقة باب الخليل تشير إلى الحادية عشرة .

أسرعت في السير ، لأنسى التعب ، وأول الطريق منحدر . غير أن الشمس كانت تجابهني . ولم أهتمّ . سأعود إلى أهلي ، وأروي لهم عن القدس ، وعن رسامتي ، وامتدت الطريق . وبدت المسافة طويلة جداً بين أحجار الكيلومترات . . . . عرقت ، وعطشت ، وجعت ، وكللت . كنت أنعم النظر في سائق كل سيارة وعربة تمرّ بي ، عسى أن أعرفه ، أو يعرفني ، عبثاً . وبلغت الكيلومتر الرابع . جلست على صخرة أستريح ، ثم استأنفت السير .

كنت على وشك بلوغ الكيلومتر الخامس ، وقد يئست من الإنقاذ ، والشمس تصبّ شعاعها على رأسي ، وما عدت أرفع عيني إلى أية سيارة أو عربة تمرّ ، عندما سبقتني سيارة مسرعة ، توقفت فجأة ، ثم عاد بها سائقها القهقرى حتى وقفت بقربي . وصاح بي السائق :

«ولك وين رايح في هالشوب؟ شو جابك على هالطريق؟»

عرفته في الحال . إنه أبو نعيم . وهو رجل طويل ، ضخم ، أعرفه يتكئ دائماً على عصا غليظة يحرّكها بيده كلما تكلم بصوته العالي ، فتضيف هيبة وإقناعاً إلى كلامه . وكان ابنه نعيم من أصدقائي في المدرسة ، بل نحن في الصف نفسه ، وكثيراً ما ذهبت إلى دارهم ، وجاء هو إلى دارنا .

قلت : «جاي من القدس ، ورايح عالبيت» .

قال بنفرة آمرة : «يلاّ ، يلاّ اركب!»

كانت السيارة ملأى بمن فيها . فقلت : «كيف؟»

قال : «تعال ، اركب جنبي ، بيني وبين هذا السيد المحترم . ولو أنه ممنوع نركّب واحد زايد . . . ولكن ، بتتدبّر .»

فتح الرجل الذي بجواره باب السيارة ، وصعدت ، وحشرت نفسي وجلست على المقعد الجلدي الوثير قرب السائق ، حيث كانت عصاه الغليظة مسندة . وقلت «بس عمي ، ما عنديش ولا قرش» .

فضحك أبو نعيم ، وربت على خدّي مازحاً : «ولك يا ابن الحرام ، أنا طالب منك قروش؟ بس بحرّ : إذا شفنا البوليس في الطريق ، بتنزّل راسك ، وبتخبّي حالك بين الرجلين ، فاهم؟ يا الله . . .»

وانطلق بسيارته .

وسألني عن أبي وأحواله . وحدّثته عما فعلت ذلك الصباح . وأدهشه أن ابنه نعيم لم يذهب معنا إلى قدّاس الرسامة ، وان أحداً لم يخبره بالأمر . كانت السيارة مريحة جداً ؛ رغم اضطراري إلى لملمة نفسي على نفسي ، ورغم رائحة البنزين الفائحة منها بقوة . ووصلنا إلى بيت لحم دون أن يرانا شرطي مرور . ونزلت في أول رأس افطيس ، وركضت الى الدار . ورأيت أهلي يتهيؤون لغداء يوم الأحد . وقال أبي : «قلت لهم ، لن آكل لقمة حتى تأتي أنت . وكنت أتطلع إلى الطريق في انتظار ظهورك عليها . كيف رجعت؟ هات احكي لنا شو سويت» .

قلت : «لحظة ، إلى أن أنزع هذا الحذاء اللعين عن قدميّ . . .»

بعد الغداء ، رحت راكضاً إلى دار جورج ، لكي أعرف ما الذي جرى له . فقالت لي أمه إنه عند الجيران ، عند خليل زميريّة ، فذهبت إليه ، وحالما رآني بالباب خرج إليّ . وبادرني مبتهجاً : «أخذتني عمتي إلى سيارة ، ودفعت عني الأجرة . أين كنت أنت؟ بحثنا عنك في كل مكان . تعال ادخل عند عمي خليل» .

حين دخلت وجدت شاباً يلبس بدلة إفرنجية غريبة الطرز ، وقبّعة ، قال إنه عاد من التشيلي لرؤية أهله بعد غياب طويل . واسمه ميكيل ، وهو أخو زوجة العم خليل . وقد أبدى لنا هذا الشاب لطفاً ، وجعل يحدّثنا عن حياته في سانتياغو ،

بعربية ملأى بالكلمات الإسبانية ، فنكاد لا نفهمه . ولكننا فهمنا منه أنه مشهور بقوته . خلع سترته بغتة ، وشمّر عن ذراعه ، وأبرز لنا عضلات ناتئة كالصخر . ثم قال لي : «عندك قرش؟»

قلت : «لا» .

قال : «طيّب . أنا عندي» .

وأخرج من جيبه قطعة نقدية مستديرة ، وسلّمني إياها وقال : «أتقدر أن تطعجها بين أصابعك؟»

قلت : «هذه حديد . كيف أطعجها؟»

قال : «هات لأريك!»

وأخذها بين إبهامه وسبابته ، وثناها كأنها قطعة من ورق . ثم تناول قضيباً من الحديد ، كان خليل زميريّة يستعمله في أشغاله ، وأمسك بطرفيه بيديه ، وبقوة مذهلة ، طواه حتى ازدوج ، والعم يصيح به : «لا يا ميكيل! ليس عندي غيره! لا يا ميكيل!»

فابتسم ابتسامة الواثق المزهوّ بقدرته ، وقال : «طيْب! خذ!» ودفع طرفي القضيب الواحد عن الآخر حتى استقام مرة أخرى بين يديه .

أعجبنا بقوته ، وجئنا في اليوم التالي بعدد من أغطية قناني «الكازوز» المعدنية ، التقطناها من الشارع ، وطلبنا إليه أن «يطعجها» . ودونما ضحكة أو ابتسامة ، أخذ ثلاثة أو أربعة منها ، وطعجها حتى انثنت كلها ، ورماها عنه . كان قليل الكلام ، والكآبة لا تغادر وجهه لسبب ما .

لما عدت بعد بضعة أيام لأراه وحدي ، وجدت العم خليل في حالة اضطراب شديد ، وزوجته تبكي وتنتحب ، وبدا أنها كانت في بكاء متواصل منذ ساعات . فذهبت في الحال إلى دار جورج ، فأخبرتني أمّه أن ميكيل ذهب في الليلة السابقة إلى نادي الشباب التلحميّ ، وهناك انزوى بأحد الأعضاء ، ثم أخذه باتجاه الباب ، وانهال عليه طعناً بسكّين ، حتى سقط في بركة من الدم ، وهو «يفرفط كالعصفور المذبوح» . وبعدها خرج ميكيل عائداً إلى البيت ، غير أن الشرطة ألقت

القبض عليه في الطريق ، وأوقفته في «نقطة» بوليس باب الدير ، وحبسته هناك .

وتذكرت في الحال المارد الذي نخشى خروجه في الليل إلينا من تحت التينة - وهي لا تبعد أكثر من خمسين خطوة من المكان الذي كنا فيه - وتساءلت : «هل انتقم ميكيل لمقتل أحد من عائلته؟»

أجابت أم جورج : «شو بعرّفني؟ بس يا حرام . بيقولوا راح يشنقوه . . .»

لم يكن نادي الشباب بعيداً عن الأمكنة التي نتردد عليها أنا وجورج مع أصدقائنا في المؤخرة من كنيسة المهد . ولذا ، في الصباح التالي ، قبل الذهاب إلى المدرسة ، أسرعنا إلى مكان النادي ، ووقفنا عند بابه ، مقابل مطبعة جريدة عيسى البندك «صوت الشعب» . فوجدناه لأمر ما مفتوحاً ، ومهجوراً . وبعد تردد ، خطونا فوق العتبة ، وإذا في ركن قريب من المدخل بركة دم يابسة ، داكنة ، مرعبة ، وقد تناثرت اللطخات الحمراء في مساحة كبيرة على البلاط ، وعلى الحائط ، دلالة على الانتفاضات العنيفة التي لا بدّ انتفضها الطعين .

انسحبنا في الحال ، وكلانا يرتجف . وتخيلت ميكيل ، بعضلاته الفولاذية ، وهو يطعن الضحيّة ، ويكرّر الطعن ، والقتيل يتخبط في دمه المسفوح على الأرض . وازددت رجفتي ، وشعرت بأحشائي تنقلب .

قلت : «نعم . قوياً جداً . . .»

لم نقل شيئاً بعد ذلك ونحن نسير إلى المدرسة . ولم أفهم شيئاً من دروسي في ذلك اليوم ، وبركة الدم واللطخات الحمراء لا تفارق مخيّلتي . هل جاء ميكيل من أقاصي الدنيا ، من التشيلي ، لكي ينفّذ إرادة المارد المقيم في تينتنا ، وانتقم؟ أم أن مارداً آخر سينهض الآن من تلك الدماء في مدخل النادي ، ليتربّص بالداخلين في الليل ، ويطالبهم بانتقام جديد؟

ما مررت يوماً بباب النادي فيما بعد ، إلاّ وعادت إليّ تلك الرؤية الفاجعة ، وذلك الشعور بالفزع . لم أرَ ما حدث ، ولكن بركة الدم التي رأيتها ذلك الصباح أقنعتني بأنني رأيت القتل ، وتمنّيت لو أنني ما رأيتها قط . وما كنت أدري أن تلك البركة كانت بعد سنوات قلائل ستتسع وتتسع ، حتى تُغرق العالم كله فيها .

- ١١ -

كـان يا مـا كـان ، في قـديم الزمـان ، وسـالف العـصـر والأوان ، كـان في بلادنا ناسك اسمه مالك .

هجر هذا الناسك مباهج الدنيا ولذاتها ، وابتعد عن المدينة ، واستقرّ في كهف على الجـبل ، يعـيش على القليل من الخـبـز والتـمـر والماء ، يأتي بهـا بين أسـبـوع وأسبوع من أقرب قرية في الجبل .

في ذلك الكـهف كان يصوم ويصلي من الصـبح حـتى المسـاء . يردّد التـسـبـيح لله ، ويطلب غفرانه ورضاه ، والأيام تمرّ ، وهو لا ينقطع عن التسبيح والصلاة .

وفي إحـدى الليالي ، وقـد طرد عنه كل خـيـال يغـويه ، وفي يده حجـر يدقّ به صـدره كلمـا ارتاب في أن الشـيطان يوسـوس له ، فـيـمـعن في المزيـد من الصـلاة ، أحسّ أنه لا بد قد أرضى ربه بزهده وتقواه ، وأشعل شمعة أنارت الصخرة المشفقة التي كان راكعاً أمامها ، والأعشاب الغريبة المتدلية منها .

ثبت الشمعة في شق في الصخر ، وقال : «رباه! ربّاه!»

وانتظر قليـلاً ، ولكن الله لـم يجـبـه . فـقـال في سـرّه إن الله لم يـسـمـعـه لكثـرة

مشاغله مع البشر ، الصالحين منهم والطالحين . فكرّر النداء ، ولكن بصوت أعلى هذه المرة : «رباه ! رباه!»

ولما لم يأته جواب ، قرع صدره بالحجر ، وصاح صيحة تجاوبت لها أرجاء الكهف : «آه يا رباه! يا ربّاه!»

وإذا الشمعة تنتفض كأن ريحاً هبت عليها ، وكادت تنطفئ ، ثم عادت والتهبت واشتد ضياؤها كنار متأججة ، حين جاءه صوت راعد : «مالك! يا ناسكي المحبوب مالك! هل ناديتني؟» .

وخرّ الناسك على وجهه ، وقال ورأسه على الأرض : «رباه! هل رضيت عني؟ هل قمت بواجبي كما تريد؟»

جاءه الصوت : «رضيتُ ، ولكن بمقدار . لأن هناك على بعد بضعة أميال منك ، من هو أكثر جدارة منك برضاي» .

- «أناسك آخر ، يا إلهي؟»»

وكان الصوت حنوناً هذه المرة : «لا يا مالك . بل رجل فقير الحال ، اسمه إبراهيم ، يصنع الطواحين . اذهب واسأل عنه»» .

- «سأفعل ، رباه ، سأفعل ، لأتعلم منه كيف أرضيك»» .

وفي الصباح التالي أخذ مالك عصاه وخرج من كهفه ، ونزل إلى القرية . وسأل عن إبراهيم صانع الطواحين . فدلّه أحدهم على مكانه .

فوجد رجلاً جالساً على الأرض قرب كوخ مهدّم ، في ظل أكياس قديمة نشرها كمظلة على أغصان يابسة مثبتة في حائط الكوخ ، وجعل منها سقيفة تقيه حرّ الشمس . وبين يديه حجر يقارب الاستدارة ، وهو يدقّه بإزميل ومطرقة ، ليجعل منه أحد شقيّ رحى .

سلّم عليه الناسك ، فرفع عينيه عن الحجر وردّ السلام بأجمل منه ، وتوقّف عن الدقّ . وصعّد نظره في هذا الفقير الأشعث الواقف أمامه ، متكئاً على عصاه الطويلة . ولما لم ينطق زائره لبضع لحظات ، سأله : «أتريد أن تشتري رحى؟»»

قال الناسك : «مالي وللرحى ، يا رجل . جئت لأزورك» .

وفي الحال نادى إبراهيم زوجته ، وجاءت تركض إليه ، وقال :
«احضري شيئاً لضيفنا الكريم يتبلّغ به» .

فقال الناسك : «لا ، لا أريد شيئاً ، سوى طاسة ماء .» وريثما أحضرت له الزوجة ما أراد ، قعد على حجر قرب السقيفة ، وسأل الرجل الجالس بين شظايا الحجارة : «ماذا تفعل بهذه الرحى يا إبراهيم؟»

- «كل يومين أو ثلاثة أنجز رحى بشقّيها ، ومقبضها ، وأحملها إلى المدينة ، وأبيعها» .

- «وبعد ذلك؟»

- «أبيعها بأربعة دراهم . أعطي منها درهمين للفقراء . وأشتري لي ولزوجتي طعاماً وحاجات بالدرهمين الباقيين» .

- «أهذا كل ما تفعله؟»

- «ليتني كنت أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك . كلما رأيت الجياع ، قلت يجب أن أكثر من صنع الطواحين ، لأبيع المزيد منها ، من أجلهم . ولكن ربي ، بحكمته ، لم يعطني إلا يدين اثنتين» .

نهض الناسك ، وقال وهو يهمّ بالانصراف : «بارك الله فيك . إنك رجل فاضل» .

فنهض ابراهيم ، وسأله : «ما اسمك أيها الناسك المحترم؟»

- «اسمي مالك . وجئت لأتعلّم منك» .

- «أمثلك يتعلم منّي؟ أستغفر الله . . . عندنا أربع دجاجات ، ثلاث منها بيّاضات . ما رأيك في أن تأخذ واحدة منها؟»

ولما رفض الناسك ذلك ، ألحّ إبراهيم قائلاً : «تجمّعت لدينا ستّ بيضات أو سبع . خذها معك إلى صومعتك ، قد تحتاج إليها .» وطلب من زوجته أن تحضر البيض . غير أن مالك رفضها شاكراً . وادّعى أن عليه أن يذهب إلى المدينة في مهمة متسعجلة ، وحمل البيض أمر مزعج .

فقال إبراهيم : «أتذهب إلى المدينة هكذا حافياً ، يا أبانا الفاضل؟ والله لن

أتركك ، حتى تجرّب الحذاء الذي عندي ، فقد يكون بحجم قدمك» . وركض إلى داخل الكوخ ، وخرج يحمل حذاءً في حالة جيدة .

دهش الناسك لذلك كله ، وقال : «ولكنه حذاؤك؟»

- «ولم لا؟ أنت تحتاجه أكثر مني الآن ، وليس عندك مورد للمال . أنا عندي هذه الحجارة ، أحولّها إلى طواحين ، وأشتري بأثمانها حاجتي» .

فما كان من مالك إلاّ أن استدار ، وأسرع بالانصراف ، وهو يقول : «أستودعك الله ، أيها التقي الكريم . . .»

وعاد إلى مغارته ، وقد أدرك أن غروره كان سيسقطه في عيني الرب لو أنه استمر في الظن بأنه أفضل الناس وأتقاهم ، وصمّم على مخاطبة ربه ذلك المساء مرة أخرى .

في الليل أضاء الشمعة ، وبعد أن صلّى وركع وابتهل ، رفع صوته بانكسار التائب : «ربّاه! ربّاه!»

وجاءه الجواب هذه الليلة بسرعة : «ماذا تريد يا مالك؟»

راح يدقّ صدره بقبضتي يديه : «أطلب صفحك وعفوك ، ربي!

اغفر لي ظنوني وآثامي . . . لقد زرت عبدك إبراهيم ، فوجدته ، كما قلت ، رجلاً لن أدرك فضيلته وتقواه» .

وجاء الصوت يقول : «مغفورة لك خطاياك ، ما دمت تقدّر فضيلة الآخرين وتقواهم» .

وهنا رفع مالك رأسه ، وهو يتأمل النور الفائض الذي تلقيه الشمعة الصغيرة على الصخور التي أمامه ، وقال : «ولكن ، ربي ، لماذا تبقي رجلاً كإبراهيم في فقره؟ لماذا لا ترزقه بخيرٍ أكبر ، فيعمّ خيره على الآخرين أيضاً؟»

أجاب الصوت : «مالك ، أتريد أن تأخذ إبراهيم مني؟ ألا ترى أنه الرجل الورع الأمين الذي قد أخشى ضياعه؟»

غير أن الناسك كان قد عقد النية على محاجة الرب بعد الذي رأى ذلك الصباح . فقال : «رباه ، كثيراً ما أعطيت بسخاء للأشرار ، وما ترددوا في انتهاك

إرادتك ، ورفض حبك . لماذا لا تعطي هذا الرجل الخيِّر ، الذي قضى عمره في طلب حبك ، والعمل بإرادتك؟»

- «مالك ، إنك تجعلني أخشى عليه» .
- «أنا كفيل به ، رباه»
- «ستجعله يضيع مني» .
- «بل ستراه يشتد قرباً منك على قرب» .
- «مالك . . .»
- «جربه ، ربي . وجرّبني معه» .
- «ستجعله يضيع مني . ولكنني سأستجيب لهذه اللجاجة الغريبة منك» .
- «ماذا تريدني أن أقول له ، ربّاه؟»
- «اذهب غداً ، وقل له أن يخطو ، ابتداءً من مؤخّرة كوخه ، إحدى وخمسين خطوة باتجاه التينة العجفاء ، يجد صخرة كستها الطحالب . ليحفر عُمق قامةٍ عندها ، ولسوف يجد كنزاً لن يشاركه فيه أحد . . .

أرضيت؟ ولا تخاطبني بعد هذه الليلة مرة أخرى إلا بعد مرور سنة أو أكثر . . . .»

- «رباه! ما أعظمك!»

وجاءه الصوت أخيراً ، بنبرة لا تخلو من التأفف : «كفى ، كفى! أما إذا انصرف إبراهيم عني ، إذا ضاع مني ، أدخلته النار ، وجعلتك في النار معه! تذكر!»

غداة اليوم التالي فعل الناسك ما أمره الله به ، ولازم صانع الطواحين وهو يخطو إحدى وخمسين خطوة ، ثم وهو يحفر عند الصخرة المكسوة بالطحالب طيلة النهار ، إلى أن ضربت الفأس صندوقاً من الحديد ، ما إن كسر إبراهيم غطاءه حتى رأى ليرات الذهب ، وعقود اللآلئ والماس ، والحجارة الكريمة من كل حجم ولون ، مكدّسة فيه بغير نظام .

كانت الشمس قد غربت ، عندما بدأ إبراهيم وزوجته بمعونة الناسك عملية إخراج الصندوق من الحفرة العميقة . ولم تكن العملية سهلة ، لكبر الصندوق

وثقله ، وساعات الليل تمرّ سراعاً . وقد كاد الفجر يطلع عليهم عندما نجحوا في رفع الصندوق إلى السطح وحمله الى الكوخ .

غرف إبراهيم حفنة ملء يده من ذلك المال البرّاق وقدّمها لمالك : «خذ ، يا مالك ، إنها مُلكك . . . .» ولكن مالك رفض أن يمد يده إليها .

إنما راح ينفض التراب عن جبته السوداء الممزقة ، وجعل يمسح لحيته الطويلة مما علق بها من شوائب ، وقال : «كل ما أريد هو طاسة من الماء . لقد عطشت جداً» .

شرب الماء ، وعانق صديقه وحبيبه ، ورجا له الخير ، والتقط عصاه ، وتركه مع زوجته في حفظ الله . وعاد إلى كهفه مجهداً ، خائر القوى ، ولكن مليئاً بالرضا مما صنع . وشكر الله وحمده ، وافترش الصخر ، ونام نوماً عميقاً .

ومرّت الأيام . وهي في القصص تمرّ مرّ الرياح ، ومرّ الأحلام . كان مالك مطمئناً إلى أن إبراهيم لن يخيّب ظنه في فعل الخير ، ولن يتدخل في شؤونه . وعليه أن يبقى بعيداً عن أمور الدنيا ، ويستمر في الصوم والدعاء ، وإرضاء ربّه ، لعله يستجيب له عندما يخاطبه مرة أخرى . . .

وانقضى الربيع والصيف ، ثم انقضى الخريف ، وجاء الشتاء قاسياً كعادته ، مليئاً بالعواصف والأمطار . ولكنه عندما ولّى خلّف وراءه ربيعاً جميلاً ، اكتست فيه سفوح الجبل بالحشائش والأعشاب ، وانتثرت عليها الأزهار البرية حمراء وصفراء . وقدم الصيف مرة أخرى . وخطر لمالك أن ينزل إلى صديقه وحبيبه إبراهيم ، ليرى أي فضل عمّمه على الناس مما أسبغه الله عليه .

انحدر إلى القرية ، طالباً الكوخ الذي يعرفه . فوجده مهدّما كما كان ، وعلى جانب منه أكياس السقيفة الممزّقة تتدلّى على عيدانها ، وتحتها بضع صخرات مهملات . قرع الباب العتيق ، غير متوقع أي جواب . ولكنه دهش حين خرجت إليه زوجة إبراهيم ، مشعّثة الشعر ، بادية الشحوب ، ممزّقة الثوب .

سألها عما جرى . فقالت : «أتسألني أنا عما جرى؟ هجرني ، ولم يعد إليّ . . . اذهب إلى المدينة ، واسأل عن قصر إبراهيم صديقك ، ثم اسأله هو عما

جرى . . .»

فاضطرب مالك اضطراباً شديداً ، وأسرع الخطى إلى المدينة ، وراح يسأل الناس عن قصر إبراهيم ، صانع الطواحين . فدلّوه على دار كبيرة في ظاهر المدينة ، استقرّت بطوابقها الثلاثة في وسط حديقة باسقة الأشجار ، مثقلة بالثمار ، وأحيطت بسياج حديدي عالٍ أسود اللون ، صُبغت رؤوس قضبانه بالذهب .

قصد البوّابة الكبيرة المغلقة ، وهزّها . فخرج إليه من حجرة جانبية رجل ضخم بقميص مقصّب وسروال مذهّب ، والسوط في يده ، وسأله من خلال قضبان الباب المغلق : «ماذا تريد؟»

قال الناسك : «أريد أن أرى صديقي ابراهيم» .

فحدجه بنظرة مازجت بين الدهشة والاحتقار : «أأنت ، تريد أن ترى إبراهيم بك؟»

أجاب ، بكل بساطة : «نعم . قل له ، صديقك مالك بالباب ، تجده يأتي إليّ في الحال» .

طرقع البواب بسوطه مرتين ، وجاءه خادم يركض ، وهمس في أذنه . فأسرع الخادم إلى قلب الدار . وبعد قليل ، عاد ، وهمس في أذن البواب . ومالك متشبّث بالقضبان المغلقة . وقال له البواب : «يقول إبراهيم بك إنه لا يعرف أحداً اسمه مالك . تفضل بالانصراف» .

- «ولكنني صديقه . ويجب أن أراه» .

ففتح البواب باباً صغيراً في البوابة الكبرى ، وخرج إليه يهدّده بالسوط : «أتنصرف ، أم أشغل هذا على ظهرك؟»

- «اضربني كيفما شئت . لن أتزحزح من هنا ، إلى أن أراه» .

هوى البوّاب بالسوط على ظهر الناسك ، وركله بإليته كالكلب ، وقال : «ابتعد ، يا شحّاذ! بعد قليل سيأتي ضيوف البك ، وسيغضب إذا عرف أنهم رأوا رجلاً حافياً ، بشكلك وأسمالك وعصاك ، واقفاً بالباب . . .» ولسع ظهره بضربة أخرى من السوط .

ابتعد مالك قليلاً، وهو يتأوه، وقعد على صخرة على مرأى من الدار، وقال: «سأبقى هنا، إلى أن يخرج صانع الطواحين إليّ».

توافد الرجال والنساء، من كل شكل ولون، على الخيول المطهّمة وفي العربات المتلألئة، وشُرِّعت لهم الأبواب العريضة، وتعالت أصوات الغناء وأنغام آلات الطرب من داخل الدار... وكلما حاول مالك التسلّل مع بعضهم إلى الداخل، جابهه أكثر من بواب وحارس بالدفع والضرب، وأبعدوه، عودةً إلى صخرته.

انقضى النهار، وانقضى الليل، وقبيل الفجر، خرج المحتفلون وهم سكارى يترنحون، وركبوا خيولهم وعرباتهم، وانصرفوا، ومالك مكوّم على صخرته، وقد أخذ منه الجوع والعطش، ولكنه باقٍ على ما صمم عليه، إلى أن هدأت الدار، وانطفأت الأنوار.

قام مالك، واقترب من أحد جوانب السياج، وقبل أن ينتبه إليه أحد من جلاوزة القصر، صاح بما تبقّى له من عزيمة الصياح، في اتجاه النوافذ المطلّة: «إبراهيم! إبراهيم، يا صانع الطواحين!»

وبعد أن كرّر صيحته عدة مرات، انفتحت إحدى النوافذ، ولمح منها شخصاً عرف أنه صديقه القديم، فقال له: «أنا مالك، يا إبراهيم! جئت لأراك!»

وكان الجواب انغلاق النافذة بقوة.

وبعد قليل خرج إليه البواب البدين، وانتزع منه عصاه وكسرها قطعتين، وألهب ظهره بالسوط وهو يركله ويدفعه أمامه... إلى أن وقع الناسك على وجهه وتمرّغت لحيته بالتراب، وهو يجهش بالبكاء.

ثم قام على قدميه، وانصرف، وهو يلطم صدره، وعبراته تسيل على خديه ولحيته. ولم يصل إلى كهفه، بعد مسيرة شاقّة وجدها طويلة جداً، إلاّ والشمس قد غابت. فارتمى على الأرض منهكاً خائراً، وشرب قليلاً من الماء، ومضغ كسرة من الخبز، وبضع تمراتٍ يابسات، وهو لا ينقطع عن لطم الصدر والنحيب.

أشعل شمعة، وركع، وصلى، وابتهل، وصاح وهو على ركبتيه: «رباه! رباه! إن كنت ما زلت تريد أن تسمعني، أجبني يا ربّاه!»

اشتدّ وهج الشمعة ، وجاءه الصوت الراعد الذي لم يسمعه منذ أشهر كثيرة : «مالك ، مالك! ماذا صنعت بالرجل الذي كنت أحبّ؟»

فقال والدموع تملأ صوته الضارع : «ارحمني يا رباه ! أدخلتُه أنا النار ، وأدخلت نفسي النار معه! أنا الخاطئ ، الجاهل ، الأحمق ، الذي خرجت عن إرادتك ، وحاججت حكمتك ومشيئتك» .

وجاءه الصوت : «يعزّ عليّ أن أراك تُصلى سعير جهنّم ، بعد كل ما عانيت» .

- «ولكنني ، رباه ، تكفّلته ، وحقّ عليّ عقابك» .

- «أحزنني بكاؤك ونحيبك يا مالك . . . كفاك ما لاقيت ، وإياك أن تذهب إليه في قصره مرة ثانية . دع أمره لي ، وانصرف إلى صومك وصلاتك» .

وتمرّ أيام قصتنا مرة أخرى سراعاً ، كالرياح ، كالأحلام . ولكنها تمرّ على إبراهيم مرّ الكوابيس . أصاب الوباء أغنامه ودوّابّهُ بعد يومين ، ونفقت كلها بعد اسبوع . وبعد أسبوع آخر غرقت السفن التي تحمل بضائع تجارته . وبعد ذلك بأسبوعين ، أفلست الشركة الكبرى التي أسّسها ، وجاءه الدائنون من كل صوب ، ولم يجد ما يدفع به رواتب موظفيه ، وخدمه ، وجواريه . فتركوه الواحد بعد الآخر ، وهجره أصدقاؤه ، أصدقاء اللهو والعبث ، وهجرته خليلاته . وما كاد يرهن قصره ، حتى جاءه الحجز عليه . وما انقضت أشهر الصيف ، حتى وجد نفسه مطروداً على قارعة الطريق ، لا مال ، ولا عقار ، ولا أحد يقول له صباح الخير . . . الربّ أعطى ، والرب أخذ .

كانت رياح الخريف تهبّ على الكوخ المهدّم ، وقد خرجت صاحبته إلى الحاكورة لتنثر حفنتين من الذُّرة للدجاجات الجائعات ، عندما رأت زوجها إبراهيم يدخل الحاكورة ، بقنبازه العتيق ، ويتّجه نحو السقيفة القديمة ، ويعدّل من وضع أكياسها الممزّقة على الأعواد المهملة . فركت المرأة عينيها ، وحسبت أنها ترى رؤيا كاذبة . ولكن ، لا! هذا هو إبراهيم ، دون غيره . ودق قلبها دقّاً عنيفاً ، واندفعت راكضة نحوه وصاحت : «إبراهيم!»

نظر إليها نظرة عجلى ، ثم عاد وانحنى على الأغراض المتراكمة على الأرض ،

يبحث بينها عن شيء . وقال : «أين فأسي ، يا امرأة؟ أين المطرقة؟ أين الأزميل؟»

فسألته مندهشة : «وماذا تريد أن تفعل بها؟»

قال : «تركتها هنا . من أخذها من مكانها؟»

فقالت : «ها هي ، هنا . . . . وأأسفاه! لقد خلّفت الدجاجات عليها روثها . . . .»

قال : «لا بأس ، لا بأس ، سأنظّفها وأغسلها» ثم أجال بصره حوله : «وما زالت عندنا عدة صخرات جيدات . الحمد لله . . . أسرعي يا امرأة ، إقلي لي بيضتين ، وسأحضّر أنا العدّة . الناس بحاجة للطواحين ، بعد أن تركت العمل هذه المدة كلها . . .»

بعد ذلك بأيام ، نزل الناسك إلى القرية ، وخطر له أن يعرّج على كوخ زوجة ابراهيم تفقّداً لحالها . وإذا هو يرى إبراهيم متربّعاً تحت سقيفته ، ينقر حجراً بالإزميل . لمحه صانع الطواحين ، فنهض وأسرع إليه ، وعانقه بحرارة ، والعبرات تفيض من عينيه . وامتلأت عينا مالك أيضاً بالعبرات ، وقبّله على خدّيه .

وصاح إبراهيم : «تعالي يا امرأة ، وسلّمي على ناسكنا الحبيب . . .

واقلي له بيضتين .»

فقال الناسك : «لا ، لا . طاسة ماء تكفيني» .

سحبه إبراهيم من يده ليجلسه على حجر على مقربة منه ، وقعد بين شظايا الحجارة ، ومالك يقول : «طال غيابك ، يا إبراهيم» .

قال : «أي نعم . طال غيابي . وها أنا أخيراً . . . قد عدت من جديد» .

تناول الناسك من يد الزوجة طاسة الماء ، وقال وهو يرفعها إلى شفتيه ، «عُدت إذن إلى صنع الطواحين؟»

فأجاب : «نعم . عدت إلى صنع الطواحين ، يا مالك ، وعدت كذلك إلى مخافة الله ومحبته» .

جرع الناسك الماء دفعة واحدة . واندلق بعضه على شاربيه ولحيته الشعثاء

الطويلة . وقال : «ما أطيب ماءكم هذا الصباح ! لن أحتاج إلى شربة أخرى لبقية النهار» .

ثم قام مودّعاً ، وانصرف .

هذه واحدة من حكايات كثيرة كان أبي يرويها لنا ، ويعيد روايتها ، في الأماسي بعد أن يعود من عمله ، ونتناول العشاء كلنا معاً ، وقد شحذنا انتباهنا لما يقول . فإذا لم يكن متعباً حدَّ الإنهاك ، أطال بها ، وزاد من الحوار ، وأسهب في الوصف . والعديد من تلك الحكايات ، إذا لم يكن مستقى في الأصل من «ألف ليلة وليلة» . كما تبيّن لي بعد أن كبرت ، كان في تمجيد الفضيلة والزهد والفقر .

وأغلب الظن ان مالك الناسك كان أحد أبطال أبي النموذجيين دون أن يعي . ولعل بطله النموذجي الآخر كان إبراهيم صانع الطواحين ، قبل أن تفسده الأموال . فهو مقتنع بأن دخول الجمل خرم الإبرة أسهل من دخول الغني إلى الجنّة . وكان يهمه أن يدخل الجنّة ، لكي يرى وجه ربه . ولم يطلب يوماً من الدنيا إلا ما يبقيه هو وعائلته على قيد الحياة ، بأقلّ ما تعطيه . ففي ذلك غنىً له وكفاية .

- ١٢ -

في خريف عام ١٩٢٨ تمرّد أخي يوسف على مدرسة السريان ، وقرر أنه ما عاد يتعلّم جديداً فيها - وقد بلغ الثانية عشرة من عمره ، أو تعداها قليلاً ، وأخذ يقرأ كتباً تقع بين يديه ، أو يرى مجلات تباع في السوق ، فيتحايل مع البائع على قراءة ما يستطيع من مقالاتها قبل أن تباع نسختها القليلة . وكان أخي الأكبر مراد قد ترك دير مار مرقس في القدس ، وأخذ يتعلّم النجارة . وشعر يوسف من زياراته لمراد في المنجرة أن ثمة فيها ما يتعلّمه أكثر مما في المدرسة الصغيرة البائسة ، المكتظة بصبيتها .

غير أنه ، قبل أن يقع فريسة إغراء المنجرة ، عزم على دخول مدرسة الحكومة . فقد عرف من بعض أصدقائه أن التعليم فيها مجاني ، وأن لكل مادة معلّماً متخصّصاً ، وأن من يتخرّج منها يستطيع أن «يتوظف في الحكومة» براتب شهري قد يبلغ ثلاثة جنيهات ، وقد يبلغ أربعة . ودون أن يخبر أحداً في البيت ، قصد يوسف ذات صباح «مدرسة بيت لحم الوطنية» ، ووجد هناك مديراً استقبله في الحال ، وأدخله في الصف الثالث الابتدائي .

وكان ذلك انقلاباً هائلاً ، لا بالنسبة له فقط ، بل بالنسبة لي أيضاً ، إذ كان كل يوم يعود إلى الدار ليريني كتبه ودفاتره ، ويحدّثني بما قال هذا المعلّم وذاك ، فيثير فيَّ توقاً غريباً إلى عالمه الجديد .

وذات مساء أجلسني بجانبه ، وفتح كتابه الإنكليزي ليقرأ لي قصة «علاء الدين والمصباح» . كنا جالسين على الحصيرة ، نتصفّح في ضوء «اللمبة» كتاب «نيوميثود ريدرْز» ، وقد انطلق خيالنا من «لمبتنا» الكابية إلى مصباح علاء الدين السحري ، الذي ما أن يفركه حتى يظهر له الجنّي ، ويحقق له المعجزات .

قلت : «أريد أن أدخل المدرسة الوطنية مثلك» (وكأنني بذلك أكون قد حصلت على مصباح علاء الدين!)

فقال : «لن يقبلوك فيها الآن ، لأن الفصل الأول قد قارب نهايته . عليك أن تنتظر حتى أول السنة المدرسية القادمة» .

وبقيت أنتظر .

ما كاد الفصل الأول ينتهي حتى أتانا يوسف راكضاً ليعلن في البيت أنه طلع الأول في صفه . . . وبعد ذلك بشهر أو شهرين ، قال له المعلم جبّور إنه وُضع خطأ في الصف الثالث ، وإنه ، ابتداءً من الفصل الدراسي الثالث ، سيرفع إلى الصف الرابع لكي يدخل الصف الخامس في مطلع العام الدراسي التالي . ولكنه ، وهو الأول في صفه ، كان يتمنّى لو يرفَع كل شهر إلى صفّ أعلى ، شاعراً بأنه «أشطر» من الطلاب كلهم الذين يحيطون به .

كان شَعْر يوسف طويلاً ، كثيفاً ، يتباهى به بين أقرانه . فلما أعلن المدير للطلاب ذات صباح ، وقد اصطفوا جميعاً في الملعب ، أن تعليمات دائرة المعارف الجديدة تأمر الجميع بحلق رؤوسهم بالماكينة ، بدرجة صفر ، أو واحد على الأكثر ، أحسّ يوسف أن الأمر قد يعني الأولاد الآخرين ، ولكنه لا يعنيه هو قطعاً .

وجعل الأولاد يوماً بعد يوم يقصّون شعورهم ، ولو على مضض ، إلاّ يوسف ، وأخذ المدير يتشدّد في تنفيذ هذا الأمر ، الذي عُمّم يومئذ على مدارس فلسطين الحكومية ، ولم يستجب له الصبية بحرارة . ثم هدّد المدير بطرد كل تلميذ لا

يقص شعره . وبقي يوسف على عناده ، إلى أن قال له المدير يوماً : «غداً إن جئتني بشعرك الطويل هذا ، سأعيدك إلى البيت . فاهم؟»

وفي اليوم التالي ذهب يوسف إلى المدرسة ، مسرّح الشعر ، ككل يوم ، وما أن رآه المدير في الملعب ، وقد بدا الآن غريباً بشعره الغزير المرسل وراء أذنيه بين مئات الأولاد الحليقي الرؤوس ، حتى ناداه إليه ، ولوّح العصا بوجهه . ولكنه كان يكنّ له وداً لأنه الأول في صفه ، والمعلمون يشيدون بذكائه ، فقال له : يوسف! اذهب في الحال إلى الحلاّق ، ولا تعد إلاّ وقد انتهى الحلاّق من قصّ هذه الخصلات من رأسك! سامع؟ وسأكون في انتظار عودتك . يلا ، بسرعة!»

وخرج يوسف في الحال حاملاً كيس كتبه - ولم يعد إلى المدرسة . إنه يرفض أن يقصّ شعره لأنه جعل يحسّ بأنه في غنى عن المدرسة أصلاً . إنه يستطيع أن يعلّم نفسه بنفسه ، هكذا تصوّر ، وعليه في كل حال أن يبحث عن عمل يكسب به بعض المال ، بعد أن بدت بوادر المرض على أبي ، وبعد أن أدرك أن ما يأتي به أبي من نقود في نهاية الأسبوع لا يكفي حاجاتنا اليومية . أصبحت قضية قص الشعر ثانوية لديه . لا ، لن يراه أحد يوماً حليق الرأس ، وليفعل المدير ما يريد بالتعليمات والأوامر التي يريد تطبيقها في رؤوس الأولاد .

وقصد إلى دكان سمّان ، صاحبه أرمني معروف اسمه خوكاز ، كان في أسفل الدرج الصاعد إلى سوق البلدية . وخوكاز رجل كهل ، قصير القامة ، بادي السمنة ، داخله الحسّ بوهن الشيخوخة . وهو يعرف مراد ويوسف منذ زمن ، وكثيراً ما دعاهما إلى العمل عنده في الدكان ، ليساعداه في بيع الحلاوة والمخللات والأرز والعدس . بل إن مراد عمل عنده فعلاً لبضعة أشهر ، قبل أن يبدأ العمل في منجرة أبو عاقلة .

لم يصدّق خوكاز عينيه حين رأى يوسف يقف أمامه ويقول له : «جئت كي أشتغل عندك» .

قال خوكاز : «والمدرسة يا ابني؟»

أجاب : « كنت سأرفع إلى الصف الرابع ، ثم الى الصف الخامس . ولكني لن

أقصّ شعري . ما الذي تريدني أن أفعل؟»

- «تعـال ، ادخل . . . أولاً ، انظر إليّ بانتبـاه وأنا أتعـاطى مع النـاس . راقب كيف أعامل الزبائن . وافعل مثلي . يقولون إنك شاطر في الحساب . . . تذكر ما تبيعه ، وسجّله في هذا الدفتر أولاً بأول . يلاّ ، شدّ حيلك ، وأرني همّتك!»

وكان ذلك آخر عهد أخي يوسف بالمدرسة .

ولكن إذا كانت المدرسة أضيق من أن تتسع لتطّلعه ، فإن دكان خوكاز لم يكن ليغريه بالبقاء طويلاً فيه ، رغم تعرّفه على الكثير من أهل الحي عن طريقه . وسرعان ما انتقل إلى عمل آخر ، فآخر ، وفي سنتين أو ثلاث ، كان قد جرّب مهناً مختلفة إلى أن استقر أخيراً على النجارة ، يحمل المنشار بيد والكتب والمجلات بيد . ولا يأتيه من الأجر دائماً إلا نزر شحيح لا يكاد يكفي ، حين يجمع إلى دخل أبي ، لسدّ رمق العائلة .

أي صباح حاسم في حياتي كان ذلك الذي ارتديت فيه سترتي الجيدة الوحيدة ، وبنطلوني القصير غير المرقّع ، وحذائي الملمّع ، وخرجت إلى شارع راس افطيس ، وكلي توجّس وتوقع لذيذ ، وأسرعت إلى ساحة باب الدير ، ومنها إلى الأزقة التي خلف كنيسة المهد ، المؤدية إلى المدرسة الوطنية . كان ذلك عند افتتاح المدارس في أواخر أيلول من عام ١٩٢٩ .

في الطريق ، قرب الجامع ، عند الحلواني صانع المعمول صادفني صبي يعرفني . شاكسني ، وأراد مني أن أرافقه لنلعب معاً في السوق . ولكنني انصرفت عنه بتصميم ثابت . «أريد أن أذهب إلى المدرسة الوطنية» ، قلت ، وراوغته ، وركضت . وأنا أشعر بأن في الحذاء الذي ألبسه مضايقة لعينة ، ولكن عليّ أن أتحمله وأعتاد عليه من أجل مدرستي الجديدة - إذا قُبلت فيها .

أعجبت بالبوابة الحديدية الواسعة ، وقد علتها لافتة كبيرة كتب عليها بخط جميل : «مدرسة بيت لحم الوطنية» ، وملأني في الحال اعتزاز غريب بأنها تنتمي إليّ ، وأنتمي إليها . دخلت متهيباً إلى الساحة الأمامية ، وفيها أولاد يلعبون لم

أعرف منهم أحداً . اتجهت إلى المبنى ، وقد طُليت أبوابه ونوافذه كلها حديثاً بالأخضر ، فرأيت معلمين في جيئة وذهاب . وتشجعت ، بعد تلكّؤ ، وسألت أحدهم : «أين المعلم جبور ، من فضلك؟»

كان أخي قد أوصاني بأن أسأل عنه ، وأسلّم عليه ، لأنه كان أحبّ المعلمين إلى نفسه ، وأذكر له من أنا .

جاء معلم طويل القامة ، في بدلة أنيقة ، يمشي هيّناً في الرواق ، وفي يده كتاب . وقيل لي : «هذا هو المعلم جبّور» .

تقدمت منه مستحياً ، وقلت ، ولساني يكاد ينعقد في فمي ، وقلبي يضرب ضلوعي بحدّة : «أنا أخو يوسف إبراهيم» .

وأدهشني أنه ردّ بحرارة : «أين هذا الشقي ، المقصوف العمر؟ لماذا لم يعد إلى المدرسة؟»

قلت : «إنه يشتغل الآن . وقد أرسلني إليك ، لتساعدني في دخول المدرسة» .

نظر فيَّ بعينيه الزرقاوين ، وأشعل سيجارة . ثم قال : «تعال» . واقتادني إلى غرفة كتب على بابها «المدير» . وإذا رجل ضامر ، أبيض الشعر ، يلبس نظارة ذات حواف معدنية ، واقف يتحدث مع أحد التلاميذ . كانت الشمس تملأ غرفته الصغيرة ، مما خفّف عني ، لسبب ما ، رهبة اللقاء بذلك المدير الذي طالما حدثني عنه أخي وكأنه يتحدث عن شخص أسطوري .

قال المعلم جبور : «فضيل أفندي ، هذا الولد أخو يوسف إبراهيم . أتذكره؟ كان الأول في صفه ، وكنت تنوي ترفيعه صفاً أو صفين» .

صرف فضيل أفندي التلميذ الذي عنده ، وأجاب بصوت رفيع ، بلهجة غير تلحمية (كنت أعرف أنه من الناصرة ، كما كان المعلم جبور من أم الفحم ، إحدى قرى الناصرة) : «أذكره ، أذكره . . . أين صار هذا الولد؟»

أجاب المعلم : «إنه الآن يشتغل . ليساعد أهله ، ولا شك . أرجو أن توافق على قبول أخيه عندنا؟»

تأملني بنظرة فاحصة ، وأنا لم أنطق بكلمة بعد ، ثم التقط كتاباً من منضدته ، وفتحه كيفما اتفق ، ودفعه إليّ مفتوحاً ، وقال : «اقرأ من أوّل الصفحة!»

بشفتين جافتين قرأت ثلاثة أسطر أو أربعة ، والمدير والمعلم يصغيان ، ويهزّان رأسيهما . ثم قال فضيل أفندي : «يكفي ، يكفي .»

ووجه كلامه للمعلم : «مثل أخيه؟»

فابتسم المعلم : «على الأرجح» .

- «الصف الثالث؟»

- «معقول»

وفجأة استدار المدير حول منضدته ، وجلس ، وأخرج من الدُّرج دفتراً ، وقلّب بعض أوراقه ، ثم أخرج قلم الحبر من عبّه وسألني : «ما اسمك؟»

قلت : «جبرا إبراهيم» .

- «عال . وعمرك؟»

- «تسع سنوات»

سجل ذلك في دفتره ، ثم نهض وقال : «تفضل ، إلى صفك . . الصف الثالث» .

وكنت على وشك الطيران من الباب فرحاً ، حين أوقفني عند العتبة قائلاً بصوت عال : «اسمع! شعرك ما زال طويلاً . . غداً تأتينا وقد قصصته بالماكنة مرة أخرى . سامع؟»

ورافقني المعلم جبّور في الرواق المشمس ، على حافة حديقة صغيرة ارتفعت فيها أشجار الصنوبر ثم انعطفنا إلى رواق آخر توالت فيه غرف الصفوف ، وفي نهايته باب عُلّقت على حاشيته قطعة خشب صغيرة كتب عليها «الصف الثالث» . أدخلني إلى غرفة كبيرة مليئة بالأولاد من كل الأعمار ، وعلى جدرانها خرائط كبيرة زاهية الألوان ، وفيها معلم شاب في يده كتاب إنكليزي - ذلك الكتاب الذي قرأ لي فيه يوسف قصة علاء الدين والمصباح .

- «فهيم أفندي ، هذا طالب جديد . هل لديك له مكان؟»

- «نعم . ليجلس هناك ، قرب شحادة» .

لم أكن أعرف حتى تلك الساعة ، في كل ما ذهبت إليه من مدارس ، سوى المقاعد الطويلة التي يجلس على كل منها خمسة أولاد أو أكثر . أما المقاعد هنا ، فيجلس عليها الأولاد اثنين اثنين . وكان بعضها خالياً . جلست في المكان الذي عيّنه لي المعلم فهيم ، وأنا شبه دائخ من الإثارة والهيبة والفرح . وخرج المعلم جبور ، وقد اطمأنّ إلى أنه سلّمني ليد أمينة . ودفع شحادة كتابه المفتوح أمامي لكي أشاركه فيه ، وأنا لا أفقه شيئاً مما يقوله المعلم . وعندما دقّ الجرس ، وهمّ الأولاد بالخروج ، أشار المعلم إليّ بالبقاء ، ريثما يخرجون .

سألني : «عندك كتب؟»

قلت : «لا» .

قال : «طيب . تعال معي» .

وسرت برفقته إلى غرفة كتب على بابها «المخزن» . وطلب إلى الرجل الجالس فيه إلى منضدة كبيرة كُدّست عليها الكتب والأوراق ، أن يسلّمني كتب الصف الثالث . وبعد قليل ، دق الجرس مرة أخرى ، وعاد الأولاد إلي صفوفهم ، وعدت أنا لأجلس قرب شحادة ، ومعي كتابان أو ثلاثة ، بالعربية والإنكليزية ، مع دفتر للرسم ، وآخر للخط ، شعرت أنها مفاتيح لأبوابٍ هي حتماً أبواب الجنّة . ولم يبقَ إلاّ أن أسرع إليها ، وأفتحها ، فأرى المذهلات التي لم تكن لتخطر لي يوماً على بال .

كل صباح ، وكل ظهيرة ، وكل مساء ، جعلت في طريقي بين الدار والمدرسة أعبر ساحة باب الدير ، الملتقى الدائم لأولاد وبنات المدارس ، والمسافرين والمصلّين والوافدين ، والرهبان والراهبات والسوّاح من كل لون : ملتقى الأزياء والأشكال والأصوات . وفي القسم القريب من مبنى البلدية الذي كانت تظلّله شجرة صنوبر عملاقة ، كانت هناك مطاعم ومقاهٍ لا تخلو أبداً من الجلساء ، أشهرها «مطعم أبو زكي» ، الذي كانت ميزته أن صاحبه الضحوك البدين أبو زكي ، المشغول دائماً

بدقّ الحمّص المدمّس بباب المطعم العريض ، قد علّق على الجدار صورةً في ملصق كبير لوجه شاب له سالفان طويلان يبلغان الفكّ ، وشفتان وارمتان ، وعينان ناعستان ، كتب في أعلاها بخط كبير : مطرب الملوك والأمراء محمد عبد الوهاب . وتقابلها ، في ملصق كبير مماثل ، صورة امرأة بجديلتين طويلتين ، مشدودة الرأس بفوطة سوداء ، نزلت منها خصلة شعر معقوصة على الجبين ، كتب عليها : كوكب الشرق ، أم كلثوم . وعلى طاولة صغيرة قرب الباب غراموفون ، له بوق كبير موجّه نحو الشارع ، تنطلق منه باستمرار أغنية : «يا جارة الوادي» - التي سرعان ما تعلّمناها أنا ورفقتي ، وأخذنا نتبارى بطول النفس في غناء كلماتها الأولى .

كان جو المدرسة ، في الأيام الأولى ، يشعرني بالغربة والحرج . غير أن الغربة والحرج لم يدوما طويلاً ، وبخاصة عندما صادقت ولدين أو ثلاثة بشكل جعلنا ، في الملعب ، نتماسك معاً كشلّة تقاوم الصبية الأكبر منا سنّاً . فالصف الثالث ، ككل الصفوف الأخرى ، لم يكن مجموعة متناسقة شكلاً ، أو سنّاً ، أو ملابس أو لهجة . والأولاد في صفنا ، منهم من هو في سنّي ، ومنهم من هو أكبر ، وقد يبلغ الرابعة عشرة أو أكثر . بعضهم طوال القامة ، لهم أصوات رجالية خشنة ، وكان بينهم من يلبس القنباز ، ومن يلبس البنطلون القصير ، أو البنطلون الطويل . هناك من يلبس الحذاء والجوارب الطويلة ، ومن يلبس الحذاء دون جوارب ، ومن هو حافٍ مغبرّ القدمين ، ملطّخ الساقين . هناك من يلبس الطربوش ، أو الطاقية ، أو الكوفية والعقال ، أو الكاسكيت . وقد أدركنا أن حلاقة الشعر بالماكنة - بدرجة الصفر أحياناً - كانت إجراءً صحياً ضد القمل ، الذي كان ينتعش في رؤوس ذوي الشعر الطويل . وكان علينا حال دخولنا الصف أن ننزع أغطية الرؤوس ، وقد نرى بعض الصبية يتابعون على «الدسك» تقافز البراغيث عنهم باتجاه زملائهم . ويوم ذكر المعلم جبّور أن هناك لغة يسمّيها النحاة بلغة «أكلوني البراغيث» ، كانت الصورة واضحة جداً في ذهني : لقد مرت فترات في حياتي ، وبخاصة أيام كنا نسكن الخشاشي ، رأيت فيها من البراغيث ما كان «يأكلني» بلارحمة كل ليلة ،

ولا أعرف كيف أداري حالي معه .

وكان الأولاد في المدرسة ينطقون بلهجات متباينة ، وإن يفهمها الجميع . فهناك تلاحمة ، وسواحرة ، وبجاجلة ، وخلايلة ، وفواغرة وتعامرة[1] ، ولكل فئة لهجتها المتميزة . هذا فضلاً عن أن الأولاد بعضهم مسيحي ، وبعضهم مسلم . والمسيحيون - وهم الأكثرية - منهم من هم روم ، أو لاتين ، أو سريان ، أو كاثوليكي ، أو أرمن . . . من هذا الخليط الإنساني الكبير كان الأستاذ فضيل نمر ، بمعيّة هيئة التدريس التي يرأسها ، من أمثال جبّور عبّود ، وفهيم جبّور ، وإلياس حماتي ، وحسام اشتيّه ، وغيرهم ، يحاول جاهداً ، كما كان يردد في المناسبات ، أن يوجد مدرسة متناسقة ، تزرع في نفوس الطلاب التحلّي بالأخلاق الفاضلة والمثل العليا ، كما تزرع فيها حب المعرفة والعلم ، لكي يضعوها جميعاً في خدمة العروبة ، وفي المقام الأول عروبة فلسطين .

كان المعلمون يتباهون بتلاميذهم كلما جاءهم مفتش من دائرة المعارف . وكانت زيارات المفتشين أيامئذ كثيرة ، وأسماء بعضهم لا تنسى : كخليل السكاكيني ، وفيما بعد ، إسعاف النشاشيبي ، والشيخ حسام جار الله .

أشد المفتّشين وقعاً في أنفسنا كان خليل السكاكيني ، بطربوشه الأحمر المكوي حديثاً ، والمستقر بإحكام على شعر أسود بادي الكثافة خالطه الشيب ، وسترته الأنيقة التي يضع وردة في عروتها كلما زارنا ، ولغته الفصحى التي يطلقها بصوت رنان رغم بحّته الغريبة ، يتنعّم بمفرداتها ، ويجعلها لا ساحرة للأذن فحسب ، بل مفهومة أيضاً .

أما إسعاف النشاشيبي ، فكان قصيراً جداً ، يلبس حذاءً عالي الكعب . ورغم أناقة مظهره اللافتة ، فإنه «لا يملأ العين» أول الأمر ، إلى أن ينطق : وعندها يتحدث بلغة إيقاعية مدهشة ، تسحرنا بسجعها ، ولكننا لا نفهم من ألفاظها إلا القليل ، ويغادرنا في نشوة نجهل سرّها .

---

(١) أي ، بالترتيب ، من بيت لحم ، بيت ساحور ، بيت جالا ، الخليل ، بيت فاغور ، بني تعمر .

وكان يأتينا من حين لحين مفتش إنكليزي ، رهيب الطلعة ، له حاجبان كثّان يعلوان عدستي نظارته كشجيرتين صغيرتين مزروعتين في جبينه ، اسمه المستر فارل . وقد فاجأ المستر فارل ذات يوم المعلم فهيم وهو يعطينا درساً بالإنكليزية ، ووجّه إلينا أسئلة حول معاني بعض الكلمات ، ثم حول تهجئة كلمات أخرى بسيطة . فأعطيناه عنها أجوبة صحيحة . ثم قال : «والآن ، من يستطيع أن يكتب على اللوح «بيوتيفُل»؟»

فاضطرب المعلم ، وقال إنها كلمة «طويلة وصعبة» . وأجال بصره بين الصبية بشيء من الأمل ، وكثير من اليأس . وحيداً بينهم رفعت أنا أصبعي . ولكن المستر فارل لم يكن مقتنعاً بجرأتي . فقال لي ، بعربية مثقلة باللكنة : «تعال واكتبها على اللوح» .

نزلت إلى اللوح ، وكلي قلق وخشية ، وناولني هو قطعة من الطباشير ، وكتبت beautiful وهتف المعلم فهيم : «رائع!» ودهش المستر فارل ، والتمعت عيناه العميقتان من وراء نظارته تحت حاجبيه الكثيفين ، وقال : «جيد جداً! ما اسم هذا الولد؟» ودوّن ملاحظة في دفتره . وأغلب الظن أن ما دوّنه في تلك اللحظة جعله يتذكر اسمي سنيناً عديدة فيما بعد ، على نحو كان له أثره في دراستي ، وأنا لا أدري .

وضحك المعلم فهيم فرحاً ، وقال : «بيّضت وجهي! بيّض الله وجهك!»[1] .

كانت المدرسة الوطنية بداية خروجي الحقيقي إلى الحياة ، وأنا في التاسعة من عمري . لقد انفتحت لي الأيام فيها ، كما بلمسة من مصباح علاء الدين ، على أناس من كل نوع ، كنت حتى تلك السنة معزولاً عنهم داخل شرنقة صغيرة

---

(١) يوم التقيت الأستاذ فهيم بعد ذلك بزهاء عشرين سنة ، عام ١٩٤٨ ، في بيت لحم - بعد عودتي من الدراسة في إنكلترا . وعملي أستاذاً للأدب الإنكليزي في الكلية الرشيدية بالقدس ، كان أول ما ذكّرني به هو تلك الحادثة الصغيرة التي ، ولست أدري لماذا ، لم ينسها قط ، والتي أنا أيضاً ، مثله ، لم أنسها .

تكاد تكون على الهامش من كل شيء . وكان عليّ أن أجرّب عضلاتي بأثقالٍ عليّ الآن حملها ، ولم يكن لي سابق عهد بها . وكان على ذهني ، الذي ازدحمت فيه الرؤى الحلمية التي تتغذى بتراتيل الكنائس والانسراح بين الأشجار والصخور والوديان والجبال والآفاق البعيدة ، أن يقارع الآن أيضاً التجارب الأليق بالبشر ، تلك التجارب المتجددة كل ساعة أقضيها بين مئات الطلاب المتباينين أعماراً ومشارب ، وأسمع فيها أحاديث المعلمين تأتيني كل لحظة بجديد .

وكان في المختارات الشعرية التي هيأها إسعاف النشاشيبي لطلبة المدارس في كتاب عنوانه «البستان» ، يوزّع علينا مجاناً ، عالم غريب جميل ، من ماضٍ أخذ شيئاً فشيئاً يتشكّل ويتجسّم في خيالي من خلال القصائد القصيرة التي برع جامعها في انتقاء أبياتها وشرحها . ورحت أحفظ العديد من تلك القصائد عن ظهر قلب ، وألقيها بصوت رفيع عالٍ كلما تسلقت شجرة ، أو وقفت على «سلسلة» على حافة الوادي ، وكأني أخاطب بها أشجار الزيتون ، ودوالي العنب ، سواء فهمتُها أم لم أفهمها . كانت اللغة بحدّ ذاتها تهزّني بأصوات كلماتها وإيقاعاتها ، فكيف إذا أدركت معاني بعضها! وكان معلم العربية ، جبور عبود ، يختار منها قصائد الفخر والحماسة ، لكي نحفظها كواجب مدرسي . وما كان أروع أن ترتفع الحنجرة بأبيات تقول : «وإني من القوم الذين هم همُ إذا مات منهم سيّدٌ قام صاحبه . . .» وكم كنت أتمتع بنطق اسم الشاعر عمرو بن معد يكرب ، الذي بقيت على صبى له منذ ذلكم اليوم الذي تخيلته فيه وقد ناهز عمره المئة سنة ، ولكنه رغم ذلك «شاب» يضجُّ بالحيويّة والكبرياء ، يقفز على متن جواده بخفةٍ كلمع البرق ، مردّداً :

لما رأيتُ نساءنا
يفحصن بالمعزاء شدّا
وبدت لميس كأنها
بدر السماء إذا تبدّى

ويهرع إلى ساحة الوغى ليصول بحصانه ويجول ، وسيفه يعلو ويهوي ، وقد أخذ قومه يتساقطون صرعى ، أما هو ، فإنه يقهر الموت والزمن :

مـــا إن جـــزعت ولا هـلعت
ولا يـردُّ بـكـاي زنـــــدا
ذهـب الـذيـن أحـــبـــهـــم
وبقـــيت مـــثل الســيف فـــردا

فأتخيلني كالشاعر ، أصول وأجول في ساحات تتناشب فيها المشرفيات والرماح ، إلى أن أراني ، مثله ، قد بقيت مثل السيف فردا . . .

ولقد غدا التوحّد بالشعراء عادةً لديّ ، على غير وعي مني . إنه يضاعف من متعتي بما أقرأ ، ويجعلني أبحث دوماً عن مزيد . وكنت أفتن بوجه خاص بالشاعر المفاخر بجرأته ، ووحدته ، مما جعل لمالك بن الريب ، في سنوات المراهقة بعد ذلك ببضعة أعوام ، سحره الخاص في نفسي بقصيدته المشهورة «ألم ترني بعتُ الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفّان غازياً» . فأكرّر معه بعضاً من أبياته في رثاء نفسه :

تذكـرتُ من يبكي عليّ فلم أجـد
سوى السـيف والرمح الردينيّ باكـيا
وأشـقـر حنزيـــزٍ يجــرّ عنانـــهُ
إلى الماء لم يتـرك له الدهرُ ساقـيا

وأتصور حصانه ، وقد سقط عنه راكبه أرضاً مضرّجاً بدمه ، ولعل إحدى قدميه ما زالت عالقةً بالركاب وهو يجرُّ عنانه ، ومعه الشاعر القتيل ، إلى الماء . وفي حلم يقظتي المتواتر ، أضع نفسي مكانه ، واستمرّ لأقول :

ولكن بأطراف السمينة نسوةٌ عزيزٌ عليهنّ العشيّة ما بيا

وأطلب إلى رفيقيّ في تلك اللحظات الفاجعة ما طلبه مالك ، حين أدرك أن مغامراته قد انتهت :

وخُطا بأطراف الأسنّة مـضـجـعي
وردًا على عـينيّ فـضلَ ردائيـا
ولا تحـسداني ، بارك الله فـيكمـا
من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذاني فجرّاني ببُردي إليكما فقد كنتُ قبل اليوم صعْبا قياديا ....

كان ذلك أمراً سيأتي في زمن لاحق ، وشيكاً ، أما في عام ١٩٢٩ ، والعام الذي تلاه ، فقد كانت الثورة قد عمّت البلاد من جديد ، وأخذنا نتعلم أناشيد نردّد فيها :

«نحن جند الله شـبّـان البـلاد
نكره الذلّ ونأبى الإضطهـاد»

ونغني بأصوات عالية لا تكلّ ، وبأكثر مِن لحن :

«يا ظلام السـجن خـيّم إننا نهـوى الظلامـا
ليس بعد الليل إلا فجر مجد يتسامى» ...

وتتجسّد الكلمات حادّةً في الذهن الفتيّ ، كالفولاذ المصقول ، وتصطخب معانيها في أنفسنا اصطخاب الرياح .

وكان المدير ، فضيل نمر ، شاعراً يحبّ الموسيقى ، ويعزفها . ونراه أحياناً قادماً إلى المدرسة في الصباح الباكر وهو يحمل الكمان في صندوقه الأسود المستطيل ، فيبدو أقلّ رهبةً مما يحاول أن يوحي إلى التلاميذ كلما راح يتجول بين ا لصفوف ، يتفقد أمورها وعصاه في يده . وقد اختارني ، بعد أن جرّب صوتي ، ووجده رفيعاً قوياً ، لأكون عضواً في جوق الإنشاد المدرسي ، يلقننا فيه أناشيد حماسية ، وأخرى «ترحيبية» ، بعضها من تأليفه وتلحينه ، ويرافقنا فيها على كمانه . وقد أقام أكثر من حفلة ، هيأنا لاستقبال الضيوف فيها بأناشيد ننشد فيها كلمات كهذه :

مـرحـبـاً أهلاً بكم
أيـهـا القـوم الكرام

قــــــــد تجلّـى أنـــسكـم
مـــشـــرقـــاً في ذا المقـــام

ثم يغيّر اللحن ، ونعيد الإنشاد ، وهو أمامنا يقود الجوق ، ويعزف الكمان ، ويحفظ الإيقاع بخبط رأس قدمه اليسرى تكراراً بالأرض بشيء من القوة ، لئلاّ يختلّ بنا النغم . إلى أن يصفق الجمهور ، فيضع الكمان وقوسها جانباً ، ويخرج من جيبه ورقة يقرأ فيها خطاباً «مدبّجاً» بألفاظ رنانة ومجازات فخمة يعوّض بها عن الكلام الباهت «المنظوم» الذي اضطرته إليه المناسبة .

كان المعلم إلياس حماتي يعلمنا الحساب ، ويعدنا باليوم الذي سندرس فيه الجبر والهندسة ، والمعلم عبّاس يعلمنا التاريخ القديم ، ويهيؤنا لدراسة تاريخ العرب في السنة التالية . والمعلم فهيم ، إلى جانب الإنكليزية - وتبيّن أنه كان قد تخرّج للتوّ من دار المعلمين (الكلية العربية) بالقدس - يعلّمنا أيضاً الرياضة البدنية ، ويذهلنا بجسمه الرياضي القوي ، وحركاته الصعبة التي يدرّبنا عليها ، وهو يكاد يكون دائم الغضب لعدم قدرتنا على محاكاته في التوازن والحركة الجماعية ، وذلك لغياب التناسق بيننا شكلاً وهنداماً . ولكنه إذا ابتسم ، طارت قلوبنا فرحاً ، ولو للحظات . . .

والمعلم الوحيد الذي كان يضاهيه غضباً ، إذا غضب ، كان مدرّس الخط ، حسام اشتيّه . يذوب رقةً ولطفاً وإقناعاً ، ويبدو لنا كلامه ، المشوب بلهجة القاهرة حيث كان قد درس الخطّ ، أشبه بالغناء : وإذا هو ينفجر كالبركان لسوء تصرف بعض الصبية ، أو لسوء ما قد خطّوا ، فلا يتردد في استعمال المسطرة العريضة بعنف على أكفّهم ، وقد تكهرب الجوّ لنا جميعاً . وما علمني هذا الخطاط الفنان في تلك السنة عن الخطّ العربي فتح عيني منذ ذلك اليوم على عالم من الرهافة في التكوين البصري ، ووصلني بحسّ للكلمة المرئية ، أغنى كلاهما تجربتي الجمالية طوال سني حياتي فيما بعد .

وقد ساعدني في ذلك أيضاً أن شحادة عبد السميع ، الذي زاملته على مقعد الدراسة ، كان خطاطاً ، رغم حداثة سنه . وهو شديد السمرة ، ولعله يكبرني

بسنتين أو ثلاث ، ومع ذلك فقد مضى فترة يعمل فيها مع خطاط للآفتات في القدس ، قبل أن قررت عائلته الاستقرار في بيت لحم . كان أبوه من بلدة الخليل ، ويحوك الحُصر ، ويصنع أكياس الخيش ، ودكانه الصغير في ساحة باب الدير ، مقابل مبنى البلدية (الذي كان يحوي كذلك «نقطة البوليس» ، وسجناً للتوقيف - يطلّ من نافذته الموقوفون على عابري السبيل ويطلبون منهم أن يقذفوا إليهم «سيكارة ، لوجه الله» - ومستوصفاً يدعى «الصحية» همّه الأول «ضرب الإبر» ضد الأمراض السارية ، وتلقيح الأطفال ضد الجدري ، ومكافحة الملاريا ، بمعالجة مياه الآبار ، وذلك بدلق النفط فيها بين فترة وفترة لقتل ما يتوالد فيها من بعوض ، والقضاء على الكلاب السائبة بجمعها في أقفاص وإعطائها اللحوم المسمومة . فكان من الدعابات الشائعة أن يقول الواحد للآخر : «الأفضل والله لو تأخذك الصحية» . . .) وكنّا أنا وشحادة كثيراً ما نذهب معاً ، عند الخروج من المدرسة ، إلى دكان أبيه ، ونجلس على حصيرة بين لفافات الحصر المتراكمة ، فيطلعني على الآيات القرآنية التي يخطّها ببراعة مذهلة لمن كان في سنّه . وقد علّمني كيف أقص «قصبة» القلم ، وأخط مثله . . . وبينما كان المعلم حسام يؤكد على قواعد خط الرقعة ، علمني شحادة قواعد الخط الثلث والفارسي ، وما كان يسمّيه بالهمايوني .

ولكن شحادة كان مصاباً بالرمد ، ولم يرأف غبار الحُصُر وأكياس الخيش بعينه ، حتى اضطر في نهاية تلك السنة إلى ترك المدرسة . الأمر الذي أحزنني كثيراً ، رغم استمرار صداقتنا لبضعة أشهر أخرى ، عاد بعدها إلى الخليل .

غير أن أهمّ من ذلك كله كان ما علمني إياه من لغة عربية المعلم جبّور عبّود . فقد كان لحبّه اللغة ، يُعدينا بما يُحب ، ولا يقصر درسه على «المقرّر» لتلك السنة . لقد علمني من قواعد اللغة في سنتين ، أو أكثر بقليل ، ما لم أتعلم من أحد سواه ، وما بقي أساسياً حتى اليوم في تعاملي مع الكتابة . كان يهوى إعراب أبيات الشعر الصعبة ، وجعلت أجد مثله متعة في متابعة العلاقات المعقدة بين الكلمات - وهي علاقات منطقية ، عقلانية ، كالعلاقات الرياضية بين أجزاء

المعادلات الجبرية . فإذا قال لي : «اعرب ما يلي :

سائق الأظعان يطوي البيدَ طيّ مُنعماً عرِّج على كثبان طيّ»

وجدت لذة كبيرة في إعرابه . فيقول : «كان هذا بيتاً سهلاً . اعرب لي الآن هذا البيت ، إن كنت شاطراً . . .»

ويملي عليّ بيتاً كله ألغام صرفية ونحوية ، فأحاول الجواب على تحدّيه ، مفكّكاً الألفاظ واحدة واحدة ، لعلني أتحكّم بسرّها وإعرابها ، وهو يسعفني ، إلى أن أخلص بشكل ما من ورطتي .

لم أصدّق ما سمعت من المعلم ، على ملأ من الصف كله : طلعت الأول!

أنا لم أنافس أحداً قط . وبقيت بعيداً عن منافسة الآخرين طوال سني دراستي . بل إن روح المنافسة بعيدة عن تفكيري وطريقتي في الحياة . ولكن المهم هو أنني ، أنا الذي أحسست في الأيام الأولى بأنني أقحمت إقحاماً في حشد من الغرباء ، كنت الأول بينهم . ووزّعت علينا الشهادات الفصلية لتشهد على ذلك . ربما لم يكن المهم بالنسبة للمدرسة أن أعرف أنا هذه النتيجة . إنما المهمّ أن يعرفها التلاميذ الآخرون ، لتذكي فيهم روح المنافسة .

وكان هناك على الأقل تلميذ واحد ، أكبر مني سنّاً ، وأطول قامة ، يلبس قنبازاً يبلغ كاحليه وطربوشاً عالياً حائل الحمرة ، فيضيفان طولاً إلى طوله ، اسمه إلياس . رأيته يحتجّ ويبكي ، ويرفع صوته في الرواق غاضباً ، لأنه كان يتوقع أن يكون هو الأول ، وقد جاء من بيت ساحور محمّلاً بتوصيات خاصة للمعلمين كلهم . ولم يلتحق بالمدرسة متأخراً مثلي . وإذا هو الثاني فقط . . .

لم أهتمّ كثيراً للأمر . راح إلياس يقلّل من اللعب معنا في ساحات المدرسة ، لأنه بات مشغولاً بالدرس - أو ما كنا نسميه بالبصم . وجاءت النتيجة في نهاية السنة كما أراد . لقد بقيتُ صاحب أعلى الدرجات في العربية والإنكليزية والتاريخ - ولكنه طلع الأول ، وكنت الثاني . وفي السنة التالية ، سقطت الحظوة عنه بشكل غريب ، وحلّت على زميل جاءنا جديداً من مدرسة الروم ، اسمه

يعقوب فكان يعقوب الأول ، وبقيت أنا الثاني . أما إلياس فتراجع إلى الرتبة الخامسة أو السادسة .

وتكرر مثل هذا الحدث في سنواتي الدراسية اللاحقة ، مع طلاب كانوا حقاً أذكياء ومبرّزين ، وكان لهم بعد تخرّجهم من الجامعة أثرهم البيّن في الحياة العربية . كانت روح التنافس الطلابي في الصف تدفعهم دفعاً عنيفاً ، في الوقت الذي لم يكن يهمني إلاّ أن أتابع دروسي ومطالعاتي ، على طريقتي وسجيتي ، لا أنافس أحداً ، ولا آبه لمنافسة من أحد .

ربما كان السبب هو أنني جعلت أقول منذ تلك السنة المبكّرة إنني قد أترك المدرسة ، كأخي من قبلي ، في أية لحظة ، فالمدرسة ليست لي ، مهما نعمت بدروسها ، وذلك أن أبي أخذ يشتد عليه مرض أفزعنا جميعاً ، قيل إنه «عرق النّسا» . ولما كان عمله في مستشفى راهبات المحبة يقتضي قوة عضلية فائقة ، جاءت آلام ساقه اليسرى نذيراً رهيباً له ، وللعائلة . فهو بستاني المستشفى ، ولكنه أيضاً الكثير غير ذلك .

كلما كان هناك كيس ثقيل يجب نقله من البوابة ، صعوداً على الدرج وعبر دهليز طويل ، إلى المطبخ ، كان هو الناقل . وكلما كانت هناك قطعة أثاث كبيرة يجب تحويلها من غرفة إلى غرفة ، كان هو المحول . وكلما كان هناك «جبلة» أو حقل يجب أن تحرث تربته ، كان هو حارثها - يبدأ العمل مع شروق الشمس ، ولا يعود إلاّ في أولى ساعات الظلام . ومع أنه كان يفتخر أن «الماسير جانين» كبرى الراهبات المشرفات (وكلهن فرنسيات) ، تعتزُّ به ، ولا تتحرّك بشأن من شؤون المستشفى خارج ردهات المرضى ، إلا وهو على يمينها ، تخاطبه بفرنسية عربية ، أو عربية فرنسية ، أخذ يستحليها منها (ويقلدها في البيت لنا لتسليتنا) ، وإذا غاب يوماً ، أرسلت إلى الدار من يسأل عنه - إلا أنني بدأت أعي أن جهده اليومي لا يتناسب مع القروش العشرة التي كان يحصل عليها أجراً يومياً لقاء ذلك كله . وما فعله يوسف كان لا بدّ منه ، وقد جاء الآن دوري : يجب أن نعمل كلانا معاً ، ونريح أبي من عمله الشاق .

ولكن أخي ، يوم قلت له ، في أول عطلة الصيف ، إنني أريد ترك المدرسة للمساهمة معه في تحمّل مسؤوليات العائلة ، صاح بي صيحة من صيحاته التي اشتهر بها إذا غضب . أمسك بتلابيب قميصي ، وهزّني بضراوة وهو يقول : «والله إذا سمعت منك قولاً كهذا مرة أخرى ، ضربتك إلى أن تسمع الملائكة صراخك! طفل مثلك ، ما الذي يستطيع أن يفعل؟ أتريد أن تحمل سلة على ظهرك في السوق ، لتكون شيّالاً لأغراض الناس؟ ستبقى في المدرسة ، ما دامت هناك مدرسة!»

صحت به بدوري : «وأنت ، لماذا تركت المدرسة؟ ألم تكن الأول في صفك؟»

قال : «وهل من الضروري أن تكون مصيبتي هي أيضاً مصيبتك؟ ثم أنا . . . كبير . . . أكملت أربع عشرة سنة ، ودخلت في الخامسة عشرة . . . . وأستطيع أن أعمل وأدرس في وقت واحد . ألا ترى كتبي هذه كلها؟ أماّ أنت؟ . . .»

انتبهت أمي إلى ما يدور بيننا ، فسألت يوسف : «لماذا تصرخ على أخيك؟»

- «لأن الأفندي يريد أن يترك المدرسة . يريد أن يساعدنا في لقمة العيش» .

فضحكت أمي : «لا بد أن شيئاً قد أصاب عقله!»

فقلت : «طيب . أنا مجنون . اسمحوا لي بأن أكون مجنوناً» .

قالت : «اكبر يا ابني ، وبعدين الله كريم . لقمة العيش يوفّرها ربنا دائماً . مدرستك أهمّ . . .»

أما أبي ، عندما سمع خلاصة هذا الكلام ذلك المساء ، فقال : «والله ما دام فيّ عرق ينبض ، وما دام في صدري نفس ، لن أسمح لك بأن تترك المدرسة . أما أخوك ، فلم يفعل في العام الماضي إلاّ خروجاً على إرادتي . ولو كان الأمر بيدي ، لأعدته إلى المدرسة غداً ، ولنمتْ من الجوع . أتريدان أن تكونا ، عندما تكبران ، أمّيين مثلي؟»

(وتذكرت ما كان أبي رواه أكثر من مرة عن الأيام المعدودات التي قضاها في مدرسة في طفولته . تعلّم في الكتّاب الألف باء كلها ، كان يقول : ولكن كان عليه ، بعد أسبوعين أو ثلاثة ، أن يخرج معه أغنام أبيه ليرعاها ، وكان عليه أن

يعين أباه في حراثة الحقول فيسوق ثورين ضخمين ، تحت النير ، جيئة وذهاباً على أثلام مستقيمة ، من طلوع الشمس حتى غروبها . وما تعلّمه بسرعة ، نسيه بسرعة) .

وأردف أبي : «كم أفرح أنا ، وكم تفرح أمكما هذه ، عندما نراكما تقرآن الكتب . لماذا؟ لأن الكلمة مقدسة ، أي نعم . الكلمة من عند الله . بل الكلمة هي الله ، كما جاء في الإنجيل . والكلمة هي الكتاب . أم أنني غلطان؟»

- ١٣ -

في تلك السنة رُزق والداي ، بل رزقنا جميعاً ، بطفلة سمّاها أبي سوسن ، باسم أمّه ، التي كانت قد توفّيت في إحدى سنوات الحرب . وكانت الوليد الثامن لأمّي ، بعد أن وضعت سبعة ذكور ، جاء أحدهم ميتاً ، ومات منهم في الطفولة اثنان . وكانت خاتمة العنقود هذه معشوقة الجميع ، يدلّلها الكبار والصغار ، ونسمّيها دلعاً «شوشة» .

بولادتها قرّرت العائلة أن «دار فتحو» ضاقت بنا ، وعلينا أن نجد داراً أخرى ، ولم نذهب بعيداً هذه المرة . فقد علم أبي بخلوّ بيت في أعلى الطريق الذي نسلكه كل يوم إلى دارنا ، يتألف من غرفة فسيحة ، مخلعة الباب والنوافذ (تكفّل أبي وأخي بتصليحها) ، وبقربها «خشيّة» (بائسة طبعاً ، ولكنها مفيدة) ، مع حوش عريض ، في وسطه بئر عميقة ، وأمامه حاكورة كبيرة مشجّرة . وهذه كلها مشرفة على الطريق الجديدة ، ووادي الجمل ، والروابي التي وراءه ، والجبال الزرقاء وراءها ، وعلى الدنيا كلها! وعلى الجانب الآخر من الطريق هناك أيضاً حاكورة كبيرة تابعة للدار ، لا أشجار فيها . ولم نتلكأ قط : في يومين اثنين كنا قد

انتقلنا، نحن وخرافنا ودجاجاتنا إلى «دار جحلوقة».

أفزعني أول الأمر اسمُ صاحب الدار، وتصورته «مجحلق» العينين كاسمه، مجدور الوجه، بارز الأنياب من بين شفتين غليظتين. غير أنني لم أرَ إلا زوجته العجوز، وكانت لا تختلف عن أي عجوز أخرى، يوم جاءت لتدفع لها أمي باقي الإيجار (بعد أن كانت قد دفعت العربون)، الذي كان أربعة جنيهات في السنة. أما جحلوقة نفسه، فتصورت أنه لا يبرح بيته في الدهيشة، لكي لا يرى الناس قبحه. وكانت خيبتي كبيرة يوم زارنا فيما بعد، وإذا هو شيخ مسكين، سمح الوجه والكلام، لا تفارقه عصاه حتى عند جلوسه على الأرض، إذ يمدّها عبر ركبتيه، ليتوكأ عليها من جديد.

وخطر لي أن التلاحمة - كغيرهم من البشر، كما اكتشفت لاحقاً - لا يرحمون أنفسهم في الألقاب التي يطلقها بعضها على بعض، فتلصق بهم، شاؤوا أم أبوا. وهم في الأغلب، رغم مقاومتهم بادئ الأمر ونكران التسمية الظالمة، يضطرون إلى القبول بها صاغرين، لأن الآخرين، لشدة إصرارهم على التسمية المفروضة فرضاً، لا يعرفونهم إلا بها. ويا ويل من تقع به عاهة ما، لأنها قد تطلق لقباً عليه، وعلى أسرته، وتحيا لأجيال بعده! فكانت هناك عائلة الأعمى، والأعرج، والعرّاج، وقطيش، والأخرس، والأطرش، والأحدب، وجحلوقة، وقرّاعة، وقد تقع لأحدهم حادثة حول حشرة أو حيوان، فيكتسب تسمية لاصقة جديدة: وإذا هناك عائلة الصرصور (لُطّفت إلى صنصنور)، وذبّانة، ودبدوب، وحزبون، والفار، والجمل، والبغلة، والحيحي، والجعّار. وقد يكون أسعد منه حظاً من جاءته التسمية لسبب ما عن طير. أو عن إحدى الخضار أو النباتات أو الفواكه، فتتكوّن ألقاب مثل: حمامة، والصوص، والديك، وزرزَر؛ أو: فقوّسه، وفليفل، وحنظل، ورمّانة، وتفاحة، ودحبورة، والمحشي. وأسعدهم جميعاً من كان أحد أجداده أو جدّاته من القوة والنفوذ بحيث يبقى اسمه المجرّد لقباً للأحفاد وأحفاد الأحفاد جميعاً. غير أن الأسماء الحرفية كانت ما تزال شائعة، كحدّاد، ونجّار، ونقار، وحجّار، وقطّان، وفرّان،

وقنواتي ، وسحّار ، وألقاب كفرحان وفرحى ، وحزين وحزينة ، وغيرها ، شأنها شأن الألقاب الأخرى كلها ، كانت تعود في معظمها إلى عهود جعلت تتناءى زمناً حتى ما عاد أحد يذكر بالضبط أين ومتى كانت أصولها ، و من كان الفرحان الأول أو الحزينة الأولى .

وهذا كله لم يمنع الأهلين من أن يرددوا ، دون معرفة كثيرة للتاريخ ، العربي وغير العربي ، أنهم انحدروا أصلاً من قبيلتين كبيرتين استقرت لهما عشائر في المنطقة - بما فيها القرى المحيطة ، مثل بيت جالا ، وبيت ساحور ، وأرطاس ، والخضر ، وبتّير - هما قيس ويمن . فكانت ثمة أسر ما زالت تسلسل نسبها بشكل ما إلى قيس ، وأخرى إلى يمن . وكان بذلك تأكيد عفوي على الأصل العربي لمدينة بناها الكنعانيون في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد ، وجعلوا منها «دار الخبز» (وهو معنى الاسم الآرامي القديم لـ «بيت لحم») - حيث كانت تجمّع محاصيل القمح والشعير والذرة من الحقول الخصبة المنتشرة لأميال حولها ، وبذلك تهيّئ للأهلين فيها ، وفي القدس القريبة منها ، غذاءهم الأساسي . الأمر الذي يفسّر أنها كانت في زمن سحيق مركزاً لعبادة إله الخصب تّموز . وإلى هذا وذاك كان ثمة من يعتقد أن البيزنطيين ، في القرون الأولى للمسيحية ، تركوا أثرهم بالتزاوج مع السكان الأصليين ، وكذلك فعل الصليبيون فيما بعد . وقد استوعبهم جميعاً التيار العربي الكبير .

بأية عزيمة مستعادة راح أبي يحرث الحاكورة الكبيرة التي كانت على الناحية الأخرى من ا لطريق ! بعد أن حُرم من أرضه لقرابة عشرين عاماً ، كانت له الآن رقعة من الأرض ، ولو إيجاراً ، يحرثها لنفسه وأولاده ، ونساعده نحن على قدر طاقاتنا ، وهو يروي لنا الأقاصيص عن أيام العذاب في طفولته وصباه . وزرعنا الأرض شعيراً ، وقلنا قد يكون في محصولها رزق جديد .

وفي الحاكورة الأخرى ، ذات الأشجار ، المحاذية للحرش والبئر أمام الدار ، وجدت أنني أستطيع أن أقوم بعمل لا يمنع عني الاستمرار بالمدرسة ، وينتهي في

الوقت نفسه إلى مساعدة للعائلة . جاءني أبي بشتلات القرنبيط والملفوف ، وأوكل إليّ زرعها . ورحت أخطط الأرض ، ذهنياً ، وأحفر الحفر الصغيرة على أبعاد منتظمة ، وأزرع فيها الشتلات واحدة واحدة . والماء . . . كان الماء قريباً! لم تكن بنا حاجة هذه المرّة لشرائه ، أو لحمله بالتنكات من آبار الآخرين ، لأن بئرنا كبيرة ، ومليئة ، ولها خرزة انصقلت وحزّزت فيها حبال الدلاء أخاديد ملساء عميقة عبر عشرات السنين . أسحب الماء بالدلو ، وأجمعه في التنكة ، وآخذ التنكة إلى الحاكورة ، وأسقي الشتلات بمقادير محسوبة . وكلما تعبت ، كانت شجرة التوت الكبيرة ، على حافة الحاكورة ، ملاذي الأمين . أصعد إليها ، ومعي كتبي المدرسية . وبين أغصانها وأوراقها قد أرفع صوتي بما أقرأ . وقد أرفعه بالغناء ، وأشعر أن غنائي يدفق في الوادي ، ويملؤه ، ويفيض عنه إلى الجبال . وقد يطلّ عليّ ، من على شرفة دار عالية على بعد مئة متر منا ، صديقي أنطون دعيك . دارهم الكبيرة ، بطوابقها الثلاثة ، كثيرة الغرف عديدة الشرفات . ومن البلكون قد يناديني عليّ - فأجيبه صائحاً أن تعال إلى شجرتي ، وادرس معي! وفي الصبح نلتقي في الطريق فنذهب إلى المدرسة معاً . وقد يطلب إليّ أن أشرح له هذا الدرس أو ذاك قبل أن نستقرّ على مقاعدنا في الصف .

وفي تلك السنة استجدّت في حياتنا أساليب للعيش ، اضطررنا لها ، عندما وجد أبي نفسه عاجزاً عن الاستمرار في العمل في مستشفى الراهبات . لقد زاد عدد الدجاج عندنا بالتفريخ المتوالي . وعمدت أمي ذات يوم إلى فكرة غريبة : «قرّقت» إحدى الدجاجات ، فاشترت أمي عشر بيضات من بيض البطّ ، وأقعدت الدجاجة «المخدوعة» عليها! وبقينا ننتظر النتيجة . هل ستفقس البيضات حقاً؟ وفراخها ، إن فقست ، هل ستعيش؟ أم أن الدجاجة ستكتشف خطأها ، وتنبذها؟

بقيت الدجاجة «القرقة» في قعودها الأمين طيلة واحد وعشرين يوماً ، عددناها كلها معاً ، ترقّباً لليوم السعيد . وفي الصباح الباكر لليوم الأخير ، أسرعت إلى الخمّ في الخشيّة ، وصحت فرحاً لما رأيت : تسع فراخ توصوص حول

الدجاجة . . . أما البيضة العاشرة ، فكانت فاسدة .

وكبرت فراخ البطّ ، وهي تركض وراء «أمها» الدجاجة ، بين الدجاج . وعندما أمطرت السماء ، حفرت لها حوضاً صغيراً تجمّع فيه الماء بسرعة ، وراحت فراخ البط تقفز إلى الماء وتسبح فيه ، والدجاجة واقفة على الحافة مشدوهة لهذا التصرّف الغريب ، وتتحاشى السقوط في الحوض ! ولعلها حينئذ أدركت أنها قد خُدعت ، واستُغلّت! ولكن لا بأس : ففي بضعة أشهر كانت عندنا تسع بطّات كبار ، هيأت لنا ، حين أخذت تبيض ، الشروع بتربية المزيد منها ، وبيعها .

غير أن الإضافة الكبرى في تلك السنة ، كانت الخنازير . لمن تكن تربية ثلاثة خراف أو أربعة لتأتينا بربح كثير عند بيعها . أما الربح الحقيقي - كما قيل لأبي - فهو في الخنازير . تشتري بضعة خنانيص بسعر بخس ، وتربيها ، وإذا هي في سنة أو أقل ، بعد أن تخصي الذكور منها ، تكبر وتسمن ، وقد يصل وزن الواحد منها إلى سبعين أو ثمانين كيلوغراماً ، أو أكثر .

كمان أخي يوسف في هذه الأثناء قد اضطر إلى الذهاب إلى القدس للعمل ، لأن صاحب المنجرة رفض أن يرفع أجره الضئيل . وأخذ معه جدتي الحبيبة لتعنى بأموره في الغرفة الصغيرة التي استأجرها في القدس القديمة . وكان أخي مراد قد سبقه إلى القدس منذ زمن ، ليتمتع كعادته باستقلاله الذاتي ، مع ما يتوفّر له من فرص العمل . ولم يبقَ من يعين أبي وأمي في شؤون حياتنا سواي ، وأخي عيسى بعد في الرابعة من عمره ، وأختي سوسن رضيعة . ولكن أمي كانت تعمل عمل الرجال ، بل وأكثر . تبدأ بالحركة عند انبلاج الفجر ، ولا تكف عن الشغل طوال النهار حتى ينام الجميع .

عزل أبي مساحة من الحوش الكبير حيث يتصل بالخشية ، وبنى حولها جداراً منخفضاً من حجارة بأحجام مختلفة ، على غرار سلاسل الحواكير . ووراء هذا السياج الصخري ربّينا ثلاثة خنازير أو أربعة ، كانت في جوع دائم ، ونهم دائم ، وسمنة متزايدة . وحذقت أمي تهيئة علفها من فضلات الطعام والنخالة ، التي نشتريها بالأكياس ، وغيرها ، وطلبت إليّ أن أسجّل في دفتر من دفاتري المدرسية

ما ننفقه في شراء ما تحتاجه الخنازير من نخالة ، وذرة ، ومواد أخرى ، لنتأكد ، كما قالت أمي ، من أننا لم نتورّط في تجارة كتجارة جحا ، يشتري عشرين بيضة بشلن ، ويبيع خمساً وعشرين بشلن ، ليقول الناس عنه إنه «تاجر»!

وكان اليوم المشهود لتجربتي مع هذه الخنازير ، يوم خطر لي ، ببراءتي ، أنها قد طال عليها حبسها في زريبتها ، وأشفقت عليها لارتمائها دوماً خاملة في طينها وقاذوراتها ، فلم لا أخرجها لتسرح في الحوش المفتوح لساعة أو ساعتين ، ثم أعيدها إلى الحظيرة؟

خطرت لي تلك الفكرة «النبيلة» وليس في البيت أحد سواي . ففتحت باب الحظيرة ، ودخلتها ، ودفعت أحد الخنازير دفعاً إلى الخارج . ثم دفعت الآخر ، وأسرعت إلى الحوش لأتأكد من أنها ، عندما يخرج الثالث ، تبقى ضمن النطاق الذي أستطيع فيه أن أسيطر عليها .

وإذا بأحدها يبدأ الدوران ركضاً على أطراف الباحة الكبيرة كالمجنون (فرحاً بحريته؟) ، ثم يلحق به الآخران ، وهما يرمحان . فركضت بدوري باتجاه مدخل الحوش – ولم تكن له بوّابة – لأمنعها من الانطلاق إلى الطريق إذا خطر لها أن تفعل ذلك . وهذا بالضبط ما خطر لها بعد ثلاث أو أربع دورات سريعات ، وهي تشخر وتنخر وتصيح . . .

فلما أراد الخنزير الأول أن يمرق خارجاً ، تصدّيت له ، وإذا هو يتقدّم مني ، مخفضاً بوزه إلى الأرض ، ويندفع بين ساقيّ ، بحيث وجدتني جالساً على ظهره ووجهي نحو عجيزته ، وهو يركض بي ، إلى أن انقذفت عنه بقوة الى الأرض ، لأرى ثلاثتها تتسابق في الطريق العام ، كأنها تعرف إلى أين هي منطلقة!

ورحت أركض وراءها ، وأصيح بها . وأدرك بعض لجيران ، وبعض المارّة ، ما أنا فيه من محنة ، فركضوا في إثر الخنازير وسبقوها ، وقطعوا عليها الطريق ، وبمشقّة كبيرة ، أجبروها معي على العودة ، والدخول الى الحوش ، ومنه عادت منصاعة ، فجأة إلى باب الحظيرة ، الواحد تلو الآخر . وأسرعت بإغلاق الباب عليها . . . ووجدتني أرجف خوفاً – وغيظاً . . . كيف لو هربت ، وضاعت؟ أم أن هذا جزاء

من يفعل المعروف للخنازير؟

كان قلبي يدقّ ، وصدري يلهث . وأحسست بإعياء شديد . فسحبت دلواً من ماء البئر ، وكببته حفنات على وجهي ، فأنعشني ببرودته . وشربت . ثم ذهبت إلى شجرة التوت ، وتسلقتها ، وقعدت بين أغصانها . وسرحتُ في فضاءات الدنيا من جديد . . .

-١٤-

عندما غادرنا يوسف للعمل في القدس ، ترك في البيت معظم الكتب ، التي اشتراها في السنوات الأخيرة بفلوسه القليلة ، في صندوق صغير كان قد صنعه خصيصاً لحفظ كتبه . هذا الصندوق كان لي أشبه بالكنز ، أعود إليه بين حين وآخر واستخرج منه ما أستطيع قراءته - وكل شيء فيه يختلف عما نقرأ في المدرسة . وكان من بين الكتب التي بقيت مرجعاً لي ، لما فيها من تنويع ومتعة ، كتابان يدعى أحدهما «بحر الآداب» والثاني «مجاني الأدب في حدائق العرب» للأب لويس شيخو االيسوعي .

كان «بحر الآداب» مليئاً بحكايات قصيرة مصوّرة ، معظمها عن الحيوانات والطيور ، مأخوذة عن «كليلة ودمنة» و «حكايات لافونتين» ، وتنتهي كل حكاية بسطر مركّز ينصّ على مغزاها . أما «مجاني الأدب» فقد أدخلني وأنا في تلك السن في عوالم باهرة من الحكم ، والمأثورات ، والتواريخ ، والأسفار ، والأشعار ، في خلاصة مسترسلة للتجربة العربية القديمة في أشد أشكالها إغراءً وفتنة . والكتاب كله مبوّب ، ومشكّل ، لا تعصى فيه كلمة على القراءة . وبهرتني

الأسماء التي كانت تذيّل الفقرات المختارة، كالثعالبي، والقزويني، والشريشي، وابن قتيبة، والأتليدي، والأبشيهي، والغزالي، والمسعودي، وأبي الفرج، وابن بطوطة، وابن عبد ربّه، والتوحيدي - أسماء لا تنتهي بقي رنينها في ذاكرتي حلواً غامضاً، إلى أن جعلت أهميتها تتضح لي في سنوات النضج فيما بعد.

وكان في هذا الكتاب، في باب عنوانه «في الأمثال السائرة»، أن قرأت مجموعة كبيرة من أقوال العرب، حفظت الكثير منها لاستمتاعي بها، ولكثرة ما أعدت قراءتها. وكان أولها قولاً لم أنسه قط: «اثنان لا يشبعان، طالب علم وطالب مال». وقد سألت نفسي يومئذ أي الاثنين أنا؟ وقررت في الحال أنني طالب علم! فالمال بالنسبة لي شيء مجهول لا يعنيني، أما العلم فها هو بين يديّ في هذه الكتب بكل روعته! ولما طلب إلينا المعلم جبّور أن نكتب قطعة إنشاء عنوانها: «ماذا أريد أن أكون في المستقبل»، قلت في إنشائي: «أريد أن أكون معلماً، لأنني حينئذ سأبقى دوماً مع الكتب، أتعلّم منها لنفسي وللآخرين معاً». وهذا بالضبط كان ما اخترت من مهنةٍ بعد ذلك بسنوات: بتصميم، وهوس.

وكان بين الكتب أول رواية اقتناها أخي: «مغامرات روبنسون كروزو». لم أنسَ يوم جاء أول مرّة بالكتاب المترجم المصوّر، وأخذ يقرأ عليّ فقرات تصف تحطّم السفينة التي كانت تحمل روبنسون كروزو، وكيف أنه نجا هو وحده من دون الركّاب الآخرين، ووجد نفسه على الصخور من جزيرة مهجورة، وهناك من حطام السفينة وبقاياها راح، بذكائه وجهده، يبني له كوخاً، ويبدأ حياة جديدة، بمساعدة «جمعة». الرجل الوحيد الذي لقيه في الجزيرة... هذا النوع من البقاء الشاق كان يسحرني ويثير فيّ أفكاراً مبهمة، لذيذة، تستحثني على المزيد.

وجاءني مرة أحد رفاقي في المدرسة - وكان من بيت ساحور - بكتاب أسال لعابي حالما رأيته، بعنوانه المغري ورسومه الكثيرة، يدعى «سير الأبطال». وكان للأبطال أسماء غريبة: أخيل، هكتور، أجاكس، أوديسيوس، ثيسيوس، هرقل، برسيوس، اندروميدا... أبطال ملاحم الإغريق وأساطيرهم. ورجوت

صديقي أن يعيرني الكتاب . فقال إنه مستعد لبيعه . بكم؟ بقرشين . . . من أين لي مبلغ القرشين؟ استعاد الكتاب مني بسرعة . ولكنني رجوته أن يأتي به في اليوم التالي إلى المدرسة مرة أخرى . وكان ذلك قبل أن يغادرنا يوسف الى العمل في القدس ببضعة أيام . فأخبرته ذلك المساء عن الكتاب ورسومه الجميلة ، وطلبت منه ثمنه . فقال : «إني أجمع مبلغاً لشراء «قاموس الجيب» لإلياس أنطون الياس ، إنكليزي عربي ، وعربي إنكليزي . ثمنه ثلاثون قرشاً . . . لا تخبر أبي أو أمي بذلك . . . هاك قرشين من المبلغ الذي جمعته ، وجئني بالكتاب غداً . . . والعوض على الله . . . وربما في الكتاب؟»

وفي اليوم التالي أضفت إلى مجموعة أخي كتاب «سير الأبطال» ، الذي دخل فيما بعد صندوق الكتب ، وبقي مرجعاً آخر من مراجعي المثيرة .

وجدت في الصندوق أجزاء من سيرة عنترة ، وتغريبة بني هلال . وكانت هناك أيضاً روايات بوليسية ، بعضها مسلسل ، مثل «ملتون توب» و «جونسون» . وكان بينها كتاب ضاع منه غلافه ، طبعت صفحاته بأسطر ملزوزة ، كلماته غير مشكّلة ، وقد تهافت إلى مجموعة من الأوراق الصفراء شدّها أخي بعضها إلى بعض بالدبابيس . لم تكن قراءتها سهلة أول الأمر ، غير أنني ، إذ رحت أقلّب الأوراق ، وقعت عيني على عنوان يقول : «حكاية مسرور التاجر مع معشوقته زين المواصف» . كان أبي ، بعد سنوات من سرد الحكايات علينا كل ليلة ، وتكرار العديد منها ، قد نضب معينه - فضلاً عن أنه بات يطالبنا نحن بأن نروي له شيئاً مما نقرأ . فقلت لنفسي سأقرأ هذه «الحكاية» ، وأرويها لأبي عندما يعود في المساء من عمله . وإذا بي ، وبضربة واحدة ، أقع في دائرة سحر جديدة ، حين قرأت :

«مما يحكى أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان رجل تاجر اسمه مسرور وكان ذلك الرجل من أحسن أهل زمانه كثير المال مرفه الحال ولكنه كان يحب النزهة في الرياض والبساتين ويتلهى بهوى النساء الملاح فاتفق أنه كان نائماً في ليلة من الليالي فرأى في نومه أنه في روضة من أحسن الرياض وفيها

أربعة طيور من جملتها حمامة بيضاء مثل الفضة المجليّة فأعجبته تلك الحمامة وصار في قلبه منها وجد عظيم ، وبعد ذلك رأى أنه نزل عليه طائر عظيم خطف تلك الحمامة من يده فعظم ذلك عليه ثم بعد ذلك انتبه من نومه فلم يجد الحمامة فصار يعالج أشواقه إلى الصباح فقال في نفسه لا بد أروح اليوم إلى من يفسر لي هذا المنام وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

(وفي ليلة ٧٨٧) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن مسرور التاجر لما انتبه من نومه صار يعالج أشواقه إلى الصباح فلما أصبح الصباح قال لا بد أروح اليوم إلى من يفسر لي هذا المنام فقام وصار يمشي يميناً وشمالاً إلى أن بعد عن منزله فلم يجد من يفسر له هذا المنام ثم بعد ذلك طلب الرجوع إلى منزله فبينما هو في الطريق إذ خطر بباله أن يميل إلى دار من دور التجار وكانت تلك الدار لبعض الأغنياء فلما وصل اليها وإذا به يسمع فيرى صوت أنين من كبد حزين وهو ينشد هذه الأبيات

نسيم الصبا هبت لنا من رسومها
معطرة يشفي العليل شميمها
وقفت بأطلال دوارس سائلاً
وليس يجيب الدمع إلا رميمها
فقلت نسيم الريح بالله خبري
هل الدار هذي قد يعود نعيمها
وأحظى بظبي مال بي لين قده
وأجفانه الوسنى ضناني سقيمها

فلما سمع مسرور ذلك الصوت نظر في داخل البيت فرأى روضة من أحسن الرياض في باطنها ستر من ديباج أحمر مكلل بالدرر والجوهر ومن وراء الستر أربع جوارٍ بينهن صبية دون الخماسية وفوق الرباعية كأنها البدر المنير والقمر المستدير بعينين كحيلتين وحاجبين مقرنين وفم كأنه خاتم سليمان وشفتين وأسنان كالدر والمرجان هي تسلب العقول بحسنها وجمالها وقدها واعتدالها فلما رآها مسرور

دخل الدار وبالغ في الدخول حتى وصل إلى الستر فرفعت رأسها إليه ونظرته فعند ذلك سلم عليها فردت عليه السلام بعذوبة الكلام ، فلما نظرها وتأملها طاش عقله وذهب قلبه ونظر إلى الروضة وكانت من الياسمين المنثور والبنفسج والورد والنارنج وجميع ما يكون من المشموم وقد توشحت جميع الأشجار بالأثمار ، وفي تلك الروض طيور من قمري وحمام وبلبل ويمام وكل طير يغرد بصوته والصبية تتمايل في حسنها وجمالها وقدها واعتدالها . . .»

رغم أنني وجدت صعوبة في قراءة تلك الكلمات المتداخلة في طباعتها ، دونما فارزة أو نقطة ، دونما همزة أو شدّة ، أو فتحة أو ضمّة ، ورغم أن بعضها لم أفهم معناه بالضبط ، فإنها انتقلت بي إلى عالم بعيد مسحور ، يموج بالألوان والأنغام ، وكله جنائن من أشجار باسقة وأزهار فاغمة ، تتلاعب بينها الطيور والصبايا ، ولا أستطيع التفريق بينها أو بينهنّ ، وزين المواصف تقدّم لي أشهر المآكل ، وألعب معها الشطرنج على رقعة من الآبنوس والعاج ، وأتبادل معها أبياتاً من الشعر لم أقرأ مثلها عذوبةً في كتبي المدرسية(١) .

ولكن غاظني أنني لم أعرف ماذا حدث لمسرور مع زين المواصف بعد أن شرعا في لعبة الشطرنج ، لأن الورقة التالية كانت على بُعد ما يقارب الثمانين صفحة ، وبعْد مئة ليلة بالضبط :

«(وفي ليلة ٨٨٨) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن البغدادي صاحب الجارية لما دخل البصرة صار حيران وهو لا يعرف أحداً ولا يعرف دار الهاشمي . . .»

ومع ذلك فقد واصلت القراءة إلى نهاية هذه القصة ، حيث بلغت عنواناً جديداً : «حكاية ورد خان ابن الملك جليعاد» . فقلبت الصفحات بسرعة ، ليلة

---

(١) بعد ذلك بسنتين أو ثلاث كتبت أولى قصصي - وكانت على شيء من الطول ، إذ ملأت بها دفتراً من دفاتري المدرسية - عن رجل يحلم بفتاة جميلة ، وفي الصباح حين يستيقظ ، يشعر أن «الوجد» قد استبد به ، فيرسمها بالزيت على لوحة كبيرة لتبقى صورتها ماثلة أمام عينيه يبثها نجواه . وذات يوم يلتقي حبيبة حلمه ، وإذا هي في شبه الصورة التي رسمها تماماً . . . . . الخ .

بعد ليلة ، وإذا أنا فجأة أعود إلى الوراء ، إذ أجدني في ليلة ٥٨٠ :

«قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الشيخ الذي بقي من العشرة قال للشاب احذر أن تفتح الباب فتندم حيث لا ينفعك الندم ثم تزايدت العلة على الشيخ فمات فغسله الشاب بيده وكفنه ودفنه عند أصحابه وقعد الشاب في ذلك الموضع وهو مختوم على ما فيه وهو مع ذلك قلق مفتكر فيما كان فيه الشيوخ ، فبينما هو يتفكر يوماً من الأيام في كلام الشيخ ووصيته له بعدم فتح الباب إذ خطر بباله أن ينظر إليه ، فقام إلى تلك الجهة وفتش حتى رأى باباً لطيفاً قد عشش عليه العنكبوت وعليه أربعة أقفال من البولاد فلما نظره تذكر ما حذره منه الشيخ فانصرف عنه وصارت نفسه تراوده على فتح الباب وهو يمنعها مدة سبعة أيام وفي اليوم الثامن غلبت عليه نفسه وقال لا بد أن أفتح ذلك الباب وأنظر أي شيء يجري علي منه فإن قضاء الله تعالى وقدره لا يرده شيء ولا يكون أمر من الأمور إلا بإرادته فنهض وفتح الباب بعد أن كسر الأقفال فلما فتح الباب رأى دهليزاً ضيقاً فجعل يمشي فيه مقدار ثلاث ساعات وإذا به قد خرج على شاطىء نهر عظيم فتعجب الشاب من ذلك وصار يمشي على ذلك الشاطىء وينظر يميناً وشمالاً وإذا بعقاب كبير قد نزل من الجو فحمل ذلك الشاب في مخالبه وطار بين السماء والأرض إلى أن أتى به إلى جزيرة في وسط البحر فألقاه فيها وانصرف فصار الشاب متحيراً في أمره ولا يدري أين يذهب فبينما هو جالس وإذا بقلع مركب قد لاح له في البحر كالنجمة في السماء فتعلق خاطر الشاب بالمركب لعل نجاته تكون فيها وصار ينظر إليها حتى وصلت إلى قربه فرأى زورقاً من العاج والأبنوس ومجاذيفه من الصندل والعود وهو مصفح جميعه بالذهب الوهاج وفيه عشر من الجواري الأبكار كأنهن الأقمار فلما نظرته الجواري طلعن إليه من الزورق وقبلن يديه وقلن له أنت الملك العريس ثم تقدمت إليه جارية وهي كالشمس الضاحية في السماء الصافية وفي يدها منديل حرير فيه خلعة ملوكية وتاج من الذهب مرصع بأنواع اليواقيت فتقدمت إليه وألبسته وتوجته وحملته الجواري على الأيدي إلى ذلك الزورق فوجد فيه أنواعاً من بسط الحرير الملون ثم نشرن القلوع

وسرن في لجج البحر قال الشاب فلما سرت معهن اعتقدت أن هذا منام ولا أرى أين يذهبن بي . . .»

كنت جالساً على الحصيرة ، أسمع قوقأة الدجاج والبط في الخارج ، وأنا أقرأ كلمات أحسّها تشتعل في دماغي وتتلألأ بالذهب واليواقيت ، ووجدتني أمشي على بُسُطٍ من الحرير الملون ، تعلو اللجج من بحرٍ حلميّ عجيب ، أوصلني إلى برّ امتلأ بالعساكر لا يعلم عدتهم إلاّ الله ، ثم قدّموا لي خمسة خيول بسروج من ذهب مرصّعة بأنواع اللآلئ والفصوص الثمينة ، فاخترت منها حصاناً ركبته ، وسار بي الموكب بين الرايات والأعلام ودق الطبول ، إلى مربع أخضر فيه قصور وبساتين ، وأشجار وأنهار ، وأزهار وأطيار تسبِّحُ الواحد القهّار . ثم جاءني ملك اقتادني إلى القصر :

(وفي ليلة ٥٨١) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الملك لما أخذ الشاب سار هو وإياه بالموكب حتى دخلا القصر ويد الشاب في يد الملك ثم أجلسه على كرسي من الذهب وجلس عنده فلما كشف ذلك الملك اللثام عن وجهه إذا هو جارية كأنها الشمس الضاحية ذات حسن وجمال وبهاء وكمال وعجب ودلال ثم قالت له اعلم أيها الملك إني ملكة هذه الأرض وكل هذه العساكر التي رأيتها وجميع ما رأيته من فارس أو راجل فهو من نساء ليس فيهن رجال والرجال عندنا في هذه الأرض يحرثون ويزرعون ويحصدون ويشتغلون بعمار الأرض وعمارة البلاد ومصالح الناس من سائر الصناعات وأما النساء فهن الحكام وأرباب المناصب والعساكر فتعجب الشاب من ذلك غاية العجب ثم عطفت الملكة عليه تنادمه وتؤانسه وتزيل وحشته بكلام لطيف ثم أقبلت عليه وقالت له أترضى أن أكون لك زوجة . . .»

وفي تلك اللحظة المشحونة بالتوقّع ، دخلت أمي عائدة من السوق ، وألقت عنها سلتها الملأى بما اشترته من بندورة وكوسى وباذنجان ، وصاحت بي : «الله يخلّيك يا حبيبي ، اخرج واسحب لي تنكة ماء من البئر . لأن الوقت قد حان للعجين . ما بك ؟ بماذا تفكر؟ يلاّ قمْ ، بسرعة!»

بسرعة! وبسرعة تشتت حلمي البعيد ، رغم أنني وأنا أدلو الدلو في البئر ، ثم أرفعه طافحاً إلى السطح وأفرغه في التنكة ، كنت أحاول استعادة بعضه في خيالي المحموم .

بقيت تلك الأوراق وعداً بلذة غامضة ، تكاد تكون سرّية ، أعود إليها بين حين وآخر ، أقرأ فيها ما أستطيع ، على ما بينها من ثغرات عريضة ، في شيء من التسلسل حسب أرقام لياليها . وكنت أروي بعض ما قرأت بها ، بشكل مبتسر ، لرفاقي ، وبخاصة حين نقضي سحابة النهار في خلوات الكروم - فأنا أحفظ الكثير من حكايات أبي ، إضافة الى ما أقرأ ، وأتمتع بسردها مع الكثير من الزيادات المجانية التي تجود بها قريحتي عفو الساعة . ولطالما عدت إلى البيت بعد خلواتنا في الكروم ، وقد بُحَّ صوتي لكثرة ما رويت!

وقد أخبرني يوسف يوماً كيف عثر على هذه الأوراق من كتاب «ألف ليلة وليلة» في دكان خوكاز ، أيام كان يعمل عنده . كان خوكاز كلَّ بضعة أيام يأتي بكومة من الدفاتر والمجلات القديمة ، ويقتطع أوراقها ليلفّ فيها ما يبيع . ويوم وقعت يد يوسف على كتابين باليين ، وهو يقتلع كل مرة ورقة منهما ، يضع عليها قطعة الحلاوة ، أو كمية الزيتون ، أو المخلّل ، أو السمك المقدّد ، ثم يزنها ويلفها بها ، انتبه إلى صور غريبة في بعض الصفحات ، وقرأ ما تحتها من شروح ، فأدرك أنها حكايات طويلة . ولما تمعّن في الكلام ، أدرك أنها تتسلسل في ليالٍ ، فخمّن أنها لا بد «ألف ليلة وليلة» ، التي كنا قرأنا مختارات منها في كتاب «مجاني الأدب» . كان اليوم يوم سبت ، يوم السوق الأسبوعية ، وكان الزبائن من القرويين والبدو محتشدين على باب الدكان يشترون ، وخوكاز ويوسف يقتطعان الأوراق ويلفّان ما يبيعان بسرعة كبيرة . وفي لحظة انفراج ، غافل يوسف المعلم الأرمني ، وأخفى مجموعتي الأوراق الصفراء تحت كومة أخرى من المجلاّت والجرائد . . . وفي آخر النهار ، عاد بغنيمته ، أو ما تبقّى منها ، إلى البيت ، وراح يقرأ فيها بمتعة عميقة ، جعلته يضيفها إلى كتبه التي تجمعت لاحقاً في ذلك الصندوق الصغير .

وفي أحد الأيام خطر لي أن أطلع سليمان فتحو ، أحد المقرّبين من أصحابي

منذ عهد سكنانا في دارهم ، على هذه الأوراق . وجعلت أقرأ له شيئاً منها .

أخذها من يدي ، وراح يقلّبها ، ولم يستطع أن يقرأ فيها سوى بضع كلمات . كان «متأخراً» في الصف الثاني من مدرسة الألمان التي في المدبسة ، ويتهرّب من الذهاب إليها كلما استطاع التحايل على أخيه الأكبر ، وبخاصة بعد وفاة أبيه . أردت استعادة الأوراق من يده ، ولكنه أصرّ على الخروج بها ، قائلاً : «أريد أن أقرأها في ضوء النهار» . واتجه نحو حظيرة الخنازير . وأطلّ من فوق حجارة السياج عليها .

لحقت به ، وكانت الخنازير في تلك الساعة قد زرعت رؤوسها في معلفها ، وهي تلتهم ما ملأته به أمي من عجينة النخالة وقشور الخضار . وإذا سليمان يمزّق بعض الأوراق العزيزة ، ويقذف بها إلى معلف الخنازير . . . طار عقلي غضباً ، وحاولت اختطاف ما تبقّى منها في يده ، غير أنه ألقى بها جميعاً دفعة واحدة من فوق السياج نحو الخنازير ، وتساقطت متناثرة تحت أقدامها . وسليمان يقهقه فرحاً بما فعل .

فتحت باب الحظيرة ، ودخلتها بسرعة . ورحت أدفع كفل هذا الخنزير وذاك لكي أستطيع إنقاذ الأوراق من بين أظلافها ، وهي ثقيلة أعجز عن تحريكها ، وأنقذت منها ما أنقذت ، وسليمان ما زال وراء السياج يضحك ويهتف ويصفق ؛ كأنه يتفرج على فصل هزلي من تأليفه .

ودُهش حين أدرك أنني كنت جاداً في غضبي ، ورفضت أن أكلمه . فقال : «أزعلان أنت على مجموعة من الأوراق من كتاب عتيق؟ والله مش فاهم!»

أجبت ، وأنا أنظر يائساً إلى البقايا الممزقة الملوثة بين يدي : «من يقذف أوراقاً كهذه للخنازير ، طبعاً لن يفهم!»

ولم يهمّني أنه عندئذ أدار لي ظهره وقال : «طيّب ، أنا رائح» وعبر الحوش متباطئاً ، مؤملاً أن أطلب إليه أن يبقى . ولكنني أردته أن ينصرف ، لكي أعود بأوراقي إلى داخل الدار . إلا أنها كانت الآن أوراقاً قليلة متباعدة فقدت تسلسلها ، واضطررت إلى الإعتراف بأنها ما عادت تفيدني كثيراً . ومع ذلك

أعدتها إلى صندوق الكتب ، على قلّتها وبؤس حالها .

وكانت تلك تجربة مبكرة أخرى لأمر تكرر فيما بعد في حياتي ، كلما غوفلت : تعطي بعضهم لؤلؤة ، ظناً منك بأنك تهيّئ لهم تجربة لمتعة ذهنية فذّة ، ثم تُذهل إذ تراهم يلقون بها بتصميم إلى الخنازير ، متباهين بعماهم ، فرحين بغبائهم .

غير أن سليمان كان بريئاً ، وآلمه جداً أنه ارتكب خطأ لم يعرف حقيقته . لأنه جاءني عصر ذلك اليوم برفقة جورج . واعتذر و «طيّب» خاطري . وخرجنا معاً إلى دير أبونا أنطون . واستمرت صداقتنا نحن الثلاثة سنيناً طويلة ، حتى بعد أن تشعبت بنا الطرق ، وتباعدت بيننا المسافات .

- ١٥ -

في أواخر السنة الثانية من إقامتنا في هذه الدار، ترك أبي العمل كبستاني في المستشفى، لعجزه عن الاستمرار فيه. فقد بات لا يعاني من آلام ساقه اليسرى فقط، بل غدا لا يستطيع السيطرة على حركتها إلاّ بمشقة. وجعلت يده اليسرى ترجف، ولا يستطيع وقف رجفتها. ولم يتهاون بشأنه أطباء المستشفى، ولا الراهبات الممرّضات، فأعطوه ضروباً من الأدوية، ولكنها أخفقت جميعاً في شفائه. وكانت الماسير جانين أشدّهم أسفاً لاضطراره إلى ترك العمل عندهم.

وكان الذين تلقفوا أبي لمعالجته، بعد إخفاق الأطباء، اثنين أو ثلاثة من الأميين، من أصحاب ما كان يسمّى «بالحكمة العربية» - وكانوا كثيرين. بل كان هناك منهم من يتجوّل بين البيوت وهو ينادي، كأي بائع متجول: «حكمة عربية يا ناس! حكيم عربيّ يا ناس!» كانوا عادة، فيما رأيت، من أشباه البدو، ويغلب حضورهم يوم السبت، الذي تقام فيه السوق في بيت لحم، فتزدحم بالوافدين. ويحمل الواحد منهم عادة جراباً فيه زجاجات صغيرة، وعلب كرتونية وصفيحية قديمة، ملأى بنباتات مجففة، وعطريات مسحوقة، وحبوب من سكر

وطحين وفلفل ، ويزعمون أنها عقاقيرهم الشافية .

رأيت واحداً منهم عندنا يتحدث إلى والديّ ، ويشتم الأطباء «المتمدنين» وأدويتهم الصيدلانية ، قائلاً إنهم جهلة مبتزّون ، وإنه هو وحده ، بحكمته العربيّة المجرّبة ، يستطيع شفاء أبي من أوجاعه المستعصية . وكان رأيه أن علاجه الناجح لن يكون إلا الكيّ .

ورضي أبي بالكيّ ، الذي جاءه به هذا «الحكيم» على درجات ، فقد كواه أولاً بالسيخ في مواضع من ساقه وفخذه ، وحتى ظهره . وأبي يتحمّل الألم صامتاً ، مؤملاً تحقق المعجزة . ولكن اللحم المحترق يلتئم بعد مدة ، ولا يتحقق لديه أي تحسّن . وفي كل مرة يأتي «الحكيم» ويقبض أجره مقدّماً ، قبل النطق بمرحلته التالية . ثم أوصى «بكاسات الهوا» . ومرّت أيام وكاسات الهوا تلصق على ظهر أبي ، ويفصد بها أحياناً «الدم الفاسد» ، إلى أن طبعت الكاسات على جلد ظهره دوائرها المتلاصقة ، وجعلته أشبه بالغرباب لأمد طويل . ثم قال يوماً : «والآن ، يا أبو يوسف ، جئتك بالدواء الأخير ، الذي ستنسى بعده آلامك كلها ، وتعود الى نشاطك كالحصان» .

وأخرج من جرابه مفتاحاً حديدياً كبيراً ، له مقبض دائري أسود يملأ قبضة اليد . وقال : «سأكوي بطة ساقك بمقبض هذا المفتاح ، وبعد ذلك ستشكرني طيلة عمرك ، وتحمد الله ألف مرة لأنه هداكم إليّ . بس خبّرني ، كيف أنت والمصاري هذه الأيام؟»

صاح أبي : «مريم ! هاتي جزداني» .

لم تكن أمي تؤمن بأولئك المشعوذين ، ولكنها كانت تعلم بمعاناة أبي ، وتقدّر تشبّثه اليائس بهذه القشّة الأخيرة (وأية قشّة !) ، التي ما أرادت أن تناقشه فيها . أعطته جزدانه ، وأخرج منه جنيهاً أو اثنين وضعهما في يد «الحكيم» ، وأنا أرقب ما يجري ، قلقاً ، خائفاً ، ولكن شيئاً من الأمل يتحرك في صدري أنا أيضاً ، عسى أن يفلح هذا «الحكيم» حيث أخفق الآخرون - أو عسى أن يفلح هذه المرة بعد أن أخفق في المرار السابقة .

طلب إلى أمي أن تشعل «البريموس» ، وترفع ناره حتى أقصاها ؛ وركن مقبض المفتاح على اللهب الأزرق الصاخب . وانتظر .

وانتظرنا معه . وشرب القهوة . وطال الانتظار . ومقبض المفتاح يحمى ، ثم يحمّر ، ويشتد احمراره ، إلى أن أضحى بعد حوالي ساعة كالجمرة الملتهبة .

وسحب أبي سرواله الطويل عن ساقه اليسرى ، وهو مضطجع على جودل رقيق ، ووراءه وسادتان ، والتقط «الحكيم» المفتاح من طرفه الأسفل بمجموعة من الخِرَق يقي بها أصابعه من حرارته ، وهوى بالمقبض الملتهب على بطّة ساق أبي ، وانطلق القُتار مع رائحة شواء مرعبة ، وهو يضغط المقبض على لحمة الساق ، ويستمرّ بضغطه . وأبي يلهث لهاثاً حاداً ، محشرجاً ، ويتلوّى ، ولكن رافضاً أن يطلق من حنجرته صيحة ألم واحدة . غير أن زعقةً انطلقت من حنجرتي رغماً عني ، وأخرى من حنجرة أمي وهي تصيح : «يا ويلي!» .

رمى «الحكيم» المفتاح بعيداً عنه ليبرد ، وقد علقت به فتات من اللحم ، وتمعّن في الوسم الدامي العميق الذي حفر به ساق أبي . وقال : «أبشر يا أبو يوسف . أسبوعين أو ثلاثة ، وتنهض كالأسد . إي والله . بس شوفوا يا جماعة الخير . يجب ألا يطيب الجرح بمدة أقصر من اللازم . حالما تجدون أنه بدأ يلتئم ، ازرعوا فيه حبّات من الحمّص ، لكي يعمّل من جديد . وكرروا العملية مرتين أو ثلاثاً ، حتى يفعل الكيّ فعله الشافي في العصب . . . يا الله! السلام عليكم!»

ونهض هو كالأسد ، والتقط مفتاحه ، وخرج . وبقي أبي طريحاً على الأرض أياماً طويلة . وعندما تماثل جرحه للشفاء ، أصرّ على اتباع نصيحة «الحكيم» . وأجبر أمي على إحضار حبات من الحمّص نثرها بيده على اللحم الأحمر المتهرّئ ، وضغط عليها ، وغطاها بالضمادة . فسبّبت له تجدّد الالتهاب والتقيّح . وكرّر العملية البذيئة ، ومرت الأسابيع . ولكنها لم تأتنا إلا بالخيبة ، واليأس .

لم نرَ وجه «الحكيم» مرة أخرى . ولست أدري كيف شفي ذلك الجرح الفظيع – الذي كان أشبه بالفم الفاغر في عضلة الساق . لكنه ، رغم كل شيء ، التأم ، مخلّفاً ندبة مستديرة ضخمة بحجم مقبض المفتاح . وبقي أبي على حاله من المرض .

وكان في تلك الأيام أنني كتبت مسرحية ، مدفوعاً بعوامل لم أكن أعيها يومئذ . كنت مولعاً بالتمثيل ، لا سيّما بعد مشاهدة العديد من المسرحيات في دير أبونا أنطون ودير المشرق للفرنسيسكان . وكانت الحكايات العربية والروايات البوليسية المترجمة التي أقرؤها بنهم ، تقيم في ذهني عالماً مكتظاً لا أفهمه تماماً ، لأنني لا أحياه ، ولكنه يثيرني ويبدو مليئاً بالخديعة ، والصراع ، والقتل ، إلى جانب الكثير من الحب الذي لم يكن دائماً هو صاحب الغلبة الحقيقية . وسقوط أبي المفاجئ ، بعد كيّ ساقه على ذلك النحو المشؤوم ، أوحى إليّ بأنه قد يروح ضحيّة خديعةٍ لا ندركها جميعاً ، ويكون في موته شقاء لأبنائه ، غير أنه يكافح قبل موته ليصدّ عنهم ذلك الشقاء . لعل ذلك الخاطر هو الذي جعلني أكتب مسرحيتي عن أب يموت ويترك ثروةً لأبنائه الثلاثة المشتتين . ولكن ثمة ثلاثة أعداء طامعين في هذه الثروة التي لا يعرفون بالضبط أين خبأها الأب ، ويريدون سرقتها قبل أن يضع الأبناء أيديهم عليها ، فيبدأ صراع بين الطرفين ، يؤدّي إلى مقتل الأشرار الثلاثة .

كنت أعرف أن أبي لا يملك من متاع الدنيا إلاّ الثياب التي على ظهره . ولكنه كان يملك أغانيه وحكاياته ، وحبّه الفائض على كل شيء حوله . وكان يملك قوّته البدنية ، التي أخذت تفارقه ، وقوّته الروحية ، التي لن تفارقه . لم أسمعه يوماً يفوه بشتيمة ، وأرادني أن أكون في ذلك مثله . كان له إيمان بالله لا يتطرّق إليه الشك مهما لقي من مكروه . ولا يبغي من الله إلاّ رضاه ، ولا يبغي من الناس إلاّ أن يكفّوا أذاهم عن عائلته . هل كان هذا هو الكنز الذي تحوّل في ذهني الصبياني إلى أموال خبأها الشيخ لأولاده ، وأعداؤه يتربّصون به لسرقتها منه؟ من يدري كيف يعمل ذهن صبيّ في الحادية عشر من عمره ، جالساً تحت شجرة التوت ، أو بين أغصانها ، ينظر إلى الجبال الزرقاء النائية ، حيث تلتقي السماء بالأرض ، فيتخيل التقاء البشر بالملائكة ، وربما الشياطين ، ويكتب مسرحية عن صراع الأخيار والأشرار؟ هل أردت أن أستوضح لنفسي كيف يتحايل ، أو يتآمر ، ملاكا الخير والشر ، الواحد على الآخر ، استحواذاً على نفس إنسان ، لعلها هي الكنز

الحقيقي؟ هل كنت أعوّض عن استلقاء أبي على الأرض عاجزاً، كسنديانة أسقطتها الرياح، وكانت من قبل عصيّةً على رياح الدنيا كلها؟

في عصر أحد الأيام، عند عودتي من المدرسة، وجدت أبي واقفاً بالباب، بعد أن شفي من جرحه، يرقب أمي وهي تواجه، كعادتها مرة أو مرتين كل أسبوع، سعير التنور، تلقمه كتل العجين المدحوّة، لتعود بعد قليل وتنتزعها من جداره الداخلي أرغفة لاهبة، وتكوّمها في الباطية، وقد اشتوى وجهها واحمرّ احمرار الأرغفة الفوّاحة بطيبها الحار، والعرق يتصبّب من جبينها ووجنتيها. أطال أبي النظر إليها، وقد جعل لأول مرة يتكئ على عصا، ثم قال لي، بغتة: «تعال أحزّرك حزّورة.»

قلت: «وإذا عرفت جوابها؟»

قال: «لن تعرف الجواب».

قلت: «هاتها!»

قال: «طاسة طرنطاسة، جواها لولو وبرّاها نحاسة. شو هيّة؟»

قلت: «رمانة!»

قال: «لا، هذه المرة، مش رمانة».

قلت: «رمانة، يابا. خسرت معي!»

قال: «هذي الطاسة الطرنطاسة، اللي جُوّاها لولو وبرّاها نحاسة، هي أمك. أمك هذيك اللي شايفها هناك، بتتقلّى على فوهة التنّور. بحر مليح. برّاها نحاسة، تمام، ولكن جُوّاها لولو، وياقوت، وجواهر...»

وسكت. ورأيت دمعتين تفيضان من عينيه. وكن أعلم كم يحب الخبز الحار، فركضت إلى أمي، وأخذت من الباطية رغيفاً وأنا أقول لها: «يمّة، أبوي بيقول أنت أحلى رمّانة في الدنيا».

فقالت وهي تنتزع رغيفاً لاهباً آخر وتلقي به على كومة الأرغفة: «آ. اضحكوا عليّ على كيفكم.... رمّانة، قال...».

ورفعت الباطية المكدّسة، ولحقت بي. ولما رحنا أنا وأبي نمضغ الخبز الحارّ

اللذيذ، دخلت هي الدار، ونشرت الأرغفة على حصيرة في إحدى الزوايا لتبرد، وامتلأت الغرفة بشذى «هذه النعمة»، كما كان أبي وأمّي يسمّيان خبزنا اليومي.

وقلت لأبي. «أنا اليوم راح احزّرك حزّورة جديدة».

قال، وهو يكسر قطعة أخرى من رغيفه : «هات اللي عندك».

قلت : «صحون صحون، من هنا لخريطون، شو هيّة؟»

أجاب ضاحكاً : «صرت تتشاطر عليّ؟» آثار خفّ الجمل ... أنت بس لو شفت قوافل الجمال أيام زمان، وهي تترك آثار خفافها في التراب.. صحون، صحون... آه، أيام زمان! طيّب، خذ مني حزّورة ثانية».

قلت : «هات».

قال: يعوج قرنيها، وسود عينيها، وهي العنزة الله لا يهديك عليها. شو هيّة؟»

فصاحت أمي من الداخل: «شو، بتضحك عالولد يا إبراهيم؟ ما عندكش حزّورة أصعب؟»

قلت : «كثّر خيرك يمّه. العنزة عنزتنا، عوج قرننيها، وسود عينيها. مش هيك، يابا؟ بس أنا حضّرت لك واحدة من قاع الدست...»

قال أبي : «هات».

واستمررنا في تبادل الحزازير، حتى تعبنا.

وكان عليّ أن أسحب ماءً من البئر، وأسقي المزروعات، وأعلف الخرفان، وأرى حصيلة ما باضته الدجاجات والبطّات، وذلك قبل أن يهبط الظلام، فألاعب أخي عيسى، وأداعب أختي سوسن، و «فلّة» تشاركنا اللعب والدعابة. ثم أنصرف إلى واجباتي المدرسية في ضوء «اللمبة»، التي تكون أمي قد ملأتها بالكاز، ونظّفت زجاجتها من سخام الليلة السابقة.

انهمكت أمي في تهيئة العشاء، وأنا أقلّب دفاتري، عندما رأيتها تعود وفي يديها ركوة القهوة، وفنجان، وتقعد قربي على الأرض، وأبي متكئ على وسادته. صبت القهوة لنفسها (وكان أبي قد مُنع عن شربها)، وقالت وقد أخذت رشفةً من

فنجانها ، وكأنها حُملت فجأة على سحابة نأت بها عنّا إلى حيث لا أعلم :
«أيام زمان . . . يتذكر أبوك زمان . . . وحياتك ، ما شفنا منها إلاّ الويل .»
سألتها : «أتتذكرين تلك الأيام كثيراً؟»
أخذت رشفة أخرى من فنجانها ، وقالت : «أتذكّرها؟ أيام ما قبل الحرب؟ وأيام الحرب؟ أحاول دائماً أن أنساها» .
اجتاحتها موجة الذكريات ، وأبي يسعفها ، وهي تسعفه ، في استعادة بعض ذلك الماضي الذي بدا لي بعيداً جداً ، والذي كثيراً ما قال أبي إنه سعيد لأن أبناءه لم يعرفوه .
كان مراد طفلاً في شهره السابع أو الثامن عندما قُتل أبوه داود . زوج أمي الأول ، وقُتل أخوها يوسف ، التوأم والوحيد ، كلاهما في يوم واحد في ظروف فاجعة ، عام ١٩٠٩ ، وأمي آنئذ صبيّة في السابعة عشرة من عمرها . وبقيت تلبس السواد حداداً على أخيها وزوجها (وهكذا فعلت أمها - جدّتي بسمة) لأربع سنوات أو أكثر ، عندما ظهر أبي ذات يوم في حياتها و «سباها سبياً» ، كما قالت ، بطول قامته ووسامته واندفاعه ، وكان لا يكبرها إلاّ بسنة واحدة . وقال لها : «انزعي هذا السواد يا امرأة ، ولن تلبسيه أبداً بعد اليوم . . .»
ويوم تزوجها ، وعدها ، على غير ما جرى العرف ، بقوله : «إذا كان أول أطفالنا صبيّاً ، سمّيته باسم أخيك ، يوسف . أما الثاني ، فسوف أسميه باسم أبي . . . راضية؟»
قالت أمي : «نزعت الأسود ، والحمد لله . ولكن الحرب جاءت بسرعة ، وأخذوا أبوك عسكري . . . أوف . . . أيام زمان . . . ما شفنا منها إلا الويل» .
وهنا سألني أبي : «قل لي ، كتب التاريخ الي بتقرأها أنت ، وأخوك ، شو بتقول عن ويلات أيام زمان؟»
وأدركت ساعتئذ أن أبي فجأة أعطاني ما هو أكبر من حجمي بكثير . فأجبته ضاحكاً ، وقد أسقط في يدي : «يابا ، حزورتك هذي المرة لا أعرف جوابها . شوف لي حزورة أسهل ، وخذ مني الجواب الصحيح!»

- ١٦ -

يقع جبل خريطون على مسافة بضعة كيلو مترات شرقيّ بيت لحم . إنه معلَم متميّز ، يكاد يرى من كل مكان في البلدة . وهو من بيتنا يبدو وكأنه رابض في وسط الأفق تماماً ، مليئاً بالغموض ، بشكله الأشبه بمخروط بنفسجي قُطم نصفه الأعلى (ولعله اكتسب اسمه بسبب ذلك) ، فبان على ذلك البعد السحيق كالتنور ، أو الطابون الكبير ، فتبدو الشمس عند شروقها أحياناً كأنها تصعد من جوفه كالرغيف الذهبي .

وكان له اسم آخر : الفُرديس ، مما جعلني أتخيله فردوساً حقاً ينتظر من يذهب إليه ليهنأ فيه . غير أن المعلم فهيم قال ببساطة إنه مجرد بركان خامد ، يسهل تسلّق أحد جوانبه لبلوغ قمته العريضة ، ثم الهبوط منها إلى باطنه ، حيث توجد بين الصخور البركانية بقايا قصر قديم يعود إلى ما قبل ألفي سنة . واقترح المعلّم أن يأخذ طلاب الصف الرابع في سفرة إلى خريطون صباح يوم الجمعة التالي ، لنخترق معاً غموضة ونكتشف سرّه - إن كان له سرّ .

نهضت من الفراش فجر الجمعة بحماس كبير ، وهيأتْ لي أمي رغيفاً وبيضاً

مسلوقاً أرفقت معه بعضاً من عشاء الليلة السابقة ، وضعتها جميعاً في كيس المدرسة الذي ألقيت بحمّالته فوق عنقي ، وأسرعت إلى المدرسة حيث تمّ تجمّع الطلاّب - وكانوا حوالي ثلاثين ولداً . وخرجنا بقيادة المعلم إلى الطريق الذي انحدر بنا أولاً باتجاه بيت ساحور ، ثم أخذ يصعد شيئاً فشيئاً إلى منطقة صخرية لا طرق فيها ، سوى آثار الفجاج التي تنتهجها الدواب . ثم لم يكن هناك أثر لطريق من أي نوع .

كانت هناك أول الأمر أشجار متباعدة ، ضامرة ، مهملة ، قد ينطلق منها عصفور أو عصفوران ، يحلّقان في الجوّ ثم يعودان إليها . وبين الحين والآخر ، تنبجس من بين الصخور شجيرات شائكة لا نعرف أسماءها . وبعد ذلك انقطع كل أثر للنبت ، ولم نر عصفوراً واحداً . وبتنا نسير بين الحجارة الوعرة والأشواك ، وقد أخذت الشمس تعلو في وجوهنا ، ثم فوق رؤوسنا ، بقسوة غريبة . ونحن ما زلنا في مرح يثيره فينا المعلم فهيم بتعليقاته ونكاته . غير أن جبل خريطون ، الفردوس الموعود ، كلما اتجهنا نحوه ، ابتعد عنا - أو هكذا جعلنا نشعر . ثم بدأ العطش .

كان ثلاثة أولاد أو أربعة قد أتوا بمطارات صغيرة ، مكسوة باللباد ، شربوا منها ، وشرب من كان بقربهم ، فنفد ماؤها . أما أنا فتصورت ، رغم عطشي ، أنني لن أحتاج إلى الماء ، ريثما نصل . وإذا وصلنا ، أكّد لنا المعلّم أنّ هناك على الجبل بئراً ، ماؤها بارد كالثلج ، فلأنتظر .

قلّ المرح ، ثم قلّ الكلام بيننا . وزاد نضح العرق . وليس بين الحجارة ظلّ من شجرة أو صخرة . والمعلّم يحثّنا على الإسراع بالسير ، وهو يراوح بين مقدّمة الخط ومؤخرته ، مشجّعاً ، مازحاً باستمرار .

كان صديقي عادل العسلي يسير برفقتي . سألني فجأة : «ما الذي في كيسك؟»

قلت : «بيض وخبز.و . . . .»

قال : أليس عندك برتقال؟»

قلت : لا . وأنت؟»

قال : «عندي برتقالة واحدة . عطشت؟»

- «جداً» .

- «وأنا أيضاً»

وأخرج برتقالة كبيرة متوهجة من كيسه . ولكن المعلم رآه ، فأسرع نحوه وهو يقول . «انتظر يا عادل . . . أمامنا مسافة طويلة بعد . . . . قريباً سنصل إلى مغارة . احتفظ ببرتقالتك إلى أن تصل إلى المغارة . أترى ذلك التلّ هناك؟»

مرأى البرتقالة ، واختفاؤها بعد ذلك ، زادا من عطشي وعطش عادل . وأخذ الأولاد يرددون : «عطشانين . . . ما فيش ولا بير في هالمنطقة؟»

بعد لأي ، بلغنا المغارة التي وعدنا بها المعلم ، ولجأنا إلى ظلها البارد . وأخرج عادل البرتقالة ، وقشّرها . فأنعشتني رائحة «الغاز» الحاد المتطاير من قشرها . وتجمع حوله بعض الصبية ، كل يتوقع حصة له فيها . فقسمها إلى «حزوز» ووزّعها عليهم . ونالني منها ، كما ناله هو ، حزّ واحد ، وضعته في فمي ، ورحت أعصره على مهل بين أسناني ، وأبلع عصارته قطرة قطرة - وما ألذّها ! لم أعرف في حياتي لذّة في فاكهة كالذي عرفته في ذلك الحزّ الشذيّ الصغير من برتقالة عادل .

ولكن ما كدنا نستأنف السير ، حتى وجدت أن الحلاوة الحامضة الشهية التي قطرتها في حلقي ، بعثت فيه الآن المزيد من العطش . وسرنا ، نتعثر بين الصخور . والجفاف يزداد في الحلق ، وعلى اللسان ، وفي الشفاه . والشمس تزداد حرارة وحدّة . وعبر الفضاء الوهّاج حلّقت ثلاثة غربان سوداء ، أسفّت فوق رؤوسنا ، ثم ارتفعت وتلاشت وراءنا .

وأخذنا نسرع بقدر ما يستطيع أحد أن يسرع في مثل هذه الحالة . والمعلم يشجّعنا : «قرّبنا يا شباب ! إلياس ، شدّ حيلك ! وأنت يا شكري! جبرا ، وين همتك يا رجل ! . . . قرّبنا . . . عادل ، ما عندكش كمان برتقالة؟ مش ضروري . تجلّدوا يا شباب . من صبر ظفر . . .»

كنا أنا وعادل نتبادل النظرات . وتصوّرت أننا جميعاً ، الثلاثين ولداً ، سنقع قريباً على وجوهنا ، على الصخور المدببة ، وتحت شعاع الشمس ، ونموت لاهثين من العطش على مهل . . . لم نجد تحت أقدامنا نبتة أو زهرة واحدة نتعزّى بها . . . التففنا حول التلّ ، ونهض أمامنا تل آخر ، وبدا شاهقاً بصخوره ، معادياً لنا ، كأنه يريد لنا أن نبقى في ظمئنا حتى الموت .

عندها رأيت شكري يبكي ، وهو يقول «عطشان . . .» وبكى ولد آخر . وآخر . وأحسست برغبة جامحة في البكاء مثلهم ، وانحدرت دمعتان حارقتان من عينيّ : وشهقت . ونحن نمشي ، ونتعثر ، وأصابنا الإعياء ، وتصورت أننا سنموت ، ولن يعرف أهلونا ما الذي حلّ بنا ، إلا إذا أخبرتهم الغربان بمصيرنا . . .

وفجأة انفرج التلّ أمامنا عن منحدر صخري هشّ ، ما كدنا نهبط فيه حتى رأينا على مسافة منا فوّهة بئر من حجارة خشنة رتّبت بشكل دائري ، وعلى سطحها غطاء حديدي صدىء . ركضناً إلى البئر ، ورفعنا الغطاء ، ونحن نتدافع ، والمعلم يحاول ضبط اندفاعنا لئلا يسقط أحدنا في البئر . «سطل يا جماعة! ابحثوا عن سطل!» لم يكن هناك سطل ، والماء على عمق مترين أو أقلّ ، ونحن نكاد نموت من الظمأ . ولكن المعلم كان واسع الحيلة ، لأنه أفرغ «السفرطاس» الذي في كيسه من الطعام ، وكان يتألف من وعائين . وصاح : «كل من يلبس حزاماً ، فليحلّه!»

جمع بضعة أحزمة ، وربط أطرافها معاً في حبل واحد أوثق نهايته ، مع نهاية حزام آخر ، في عروتي أحد أحد الوعائين ، وأدلاه في البئر . وأصعد الماء الذي كان يعدنا به طيلة ساعات العذاب . . . وشربنا واحداً واحداً ، وكل منا يتصور أنه سيشرب البئر كلها . لقد كان الماء عذباً ، رغم شوائبه الظاهرة ، وبارداً كالثلج ، كما قال المعلم . أم أنه الظمأ الذي أوحى إلينا بذلك؟

كانت هناك صخور عالية تحيط بالمكان كالعمالقة . لجأنا إلى ظلال بعضها ، وجلسنا على الأرض ، وأخرجنا ما جئنا به من طعام . وعندئذ فقط ، ونحن نأكل ، جعلنا نرى المشهد الذي أمامنا وحولنا ، ونستشعر النسيم الذي يهبّ رخيّاً

ناعماً على وجوهنا .

على بعد قليل منا كان أثر الطريق ، الذي عبّدته الأقدام عبر مئات السنين يرقى لولبياً إلى قمة خريطون . ولكن القلعة الشاهقة فوق رؤوسنا كانت لا تقلّ إغراءً لنا . فبين صخورها التي نحتتها عوامل التعرية (كما شرح المعلم) في شبه وحوش خرافية ، كانت مداخل المغاور مفتوحةً كالأشداق الفاغرة ، وكأنها تصيح بنا وتدعونا للصعود اليها والدخول في أعماقها . وقد وجدنا شقّاً يصعد بنا إلى واحدة منها ، ولو أنه مليء بثغرات علينا أن نقفز عبرها بجرأة وبراعة ، وعلينا أن نتشبّث بالصخور الزلقة ونحن نتسلّق ، إلى أن جابهنا كهفاً مدخله أشبه بقنطرة مبنية ، كأن يداً بشرية جعلت منه في عصر مضى باباً يرحّب بمن يبغي الدخول . وقال أحد الصبية : «هذا باب التيه! حدّثني أبي عنه» .

عند دخولنا عمقه الظليل البارد ، وجدنا أنّ في صدر الكهف بابين متجاورين ، مقوّسين أيضاً . جبن العديد منّا عن الدخول ، غير أن بعضنا ، وأنا منهم ، اقتحم أحدهما ، والبعض اقتحم الآخر ، وإذا كل باب يتفرّع إلى المزيد من الأبواب ، يؤدي كل منها إلى حجرات ، أو تجاويف ، ذوات أبواب . كأن المكان مهيأ للعبة لا نعرفها ، ولكننا نريد أن نلعبها .

توزع الصبية القلائل منسابين من خلال هذه المداخل المتشعبة ، التي جعلت العتمة تشتد فيها ، وابتعد بعضنا عن بعض . ووجدت نفسي أخيراً مع عادل ، وحدنا ، وتحوّل اندفاعنا إلى سير بطيء ، وبقينا معاً نتلمّس طريقنا بحذر في هذه الغابة الحجرية المظلمة ، نطلب المزيد من العمق ، والفجوة تتفرّع كالأنفاق في كل اتجاه . وانتبهنا فجأة إلى أن المكان غداً شديد الرطوبة ، دامس الظلمة ، وما عدنا نسمع أصوات رفاقنا . غير أن دمدمة غريبة بدت وكأنها تأتينا من الأعماق السوداء ، والسقف فوق رأسينا منخفض كثير النتوءات ، ولا نرى ما تقع عليه أيدينا أو أقدامنا . . . لقد دخلنا حقاً في المتاهة .

كان عادل ممسكاً بكتفي ، عندما سقطنا كلانا على الأرض ، وانتابنا الذعر .

«خلينا نرجع!» صاح عادل . «هذي مغارة العفاريت ، أنا عارف»

- «أيوه . بس كيف نرجع؟ هات إيدك» .

نهضت ، وجررته من يده ، واستدرت حيث أنا ، مؤملاً أن أرى ولو بصيصاً من ضياء يعيّن لنا الاتجاه . وارتعبت عندما لم أرَ إلا السواد الحالك . واشتدت قبضة عادل على قبضتي . وشعرت بالجفاف في حلقي من جديد . . .

تلمّسنا دربنا بشيء من هذي الغريزة . ولكن الظلام لم ينتهِ . وشعرت بالإختناق من شدة الهلع . وقلت : «يعني إمّا أن نموت من العطش ، أو أن نموت من الاختناق؟»

قال متشبثاً بي : «الحق عليك!»

قلت : «معليش . . . بس خلّيك معي . . .»

ويبدو أننا كنا عائدين فعلاً في الاتجاه الصحيح ، ولكننا نمر من خلال أبواب غير التي دخلنا منها . . . لاح في البعدِ ضوء منكسر ، حدّد لنا وجهة السير . وكان المهمّ أن نتجنب الانحراف إلى الأبواب التي قد تنأى بنا عن غايتنا . وسمعنا أصوات رفاقنا . وأخيراً . . . خرجنا إلى الشمس الساطعة .

كان الطلاب واقفين في «إيوان» المدخل في انتظارنا ، والمعلّم يعدّهم مرة بعد مرة ، ليتأكد أن أحداً لم يضع في أعماق المتاهة . وكنا أنا وعادل آخر من خرج . وعنّفنا المعلم على هذه الجرأة التي لا داعي لها . . . وقلت : «جرأة؟ والله متنا من الرعب!»

كان قلبي ما يزال يدقّ بعنف ، ولا أستطيع تهدئته .

بعد ذلك ، انحدرنا بسرعة ، ونحن نتصايح ونتسابق ، وكأننا اعتقنا من أسار سجن رهيب . وركضنا في اتجاه الفرديس . والصعود إليه ، بعد الذي لقينا من مشاقّ ، ميسور ، ولا عنت فيه .

كانت قمته الدائرية مفتوحة على السماء . ونزلنا راكضين إلى الباطن الذي ما زالت صخوره البركانية منتشرة في أرجائه ، وقد تخللتها حجارة منقورة ضخمة تدل على خرائب قصر قديم ، قال المعلم إنه كان قصر الملك هيرودس الكبير . هيرودس . . . كان الرومان قد نصبوه ملكاً على فلسطين قبل ولادة المسيح بثلاث

وثلاثين سنة .

ويوم سمع بميلاد يسوع في بيت لحم ، ولم يعثر عليه لأن مريم العذراء وخطيبها يوسف هربا به إلى مصر ، أمر بقتل كل المواليد الجدد في البلدة ، في مجزرة رهيبة عرفت بمذبحة الأبرياء ، أملاً في أن يقتل بضمنهم هذا الطفل الذي أنبئ هيرودس بأنه إذا عاش وكبر ، سيكون خطراً على حياته ومُلكه . وكان قد قتل العديد من أفراد أسرته ، وقتل حتى بعض أبنائه ، حفاظاً على عرشه . فلم لا يقتل أبناء الآخرين؟ ولكنه مات في تلك السنة نفسها . أما هيرودس انتيبا فكان حفيده . وهو الملك الذي أمر بقطع رأس يوحنا المعمدان . لقد رأى جسمه البدين ، قبل موته ، تتآكله الديدان ، وتنتن رائحته ، فتجتذب الغربان من أقاصي الفضاء لتحطّ أسراباً ناعقةً على شرفات قصره ونوافذها وأبوابها ، منتظرة وليمتها من لحمه وشحمه . . . إلاّ أن قصره كان في غير هذا المكان المنفتح اليوم على روعة السماء . . .

قلنا ونحن نغادر الخرائب : لقد أطللنا اليوم على التاريخ ، ولكن يا له من تاريخ . فلنودّعه بسرعة! وهبطنا راكضين مرة أخرى في اتجاه البئر ، ورحنا نرفع الماء من جديد ، ونشرب ، متهيئين للعودة .

وكانت العودة ، ويا للمعجزة ، سهلة ! طرقنا سبيلاً غير الذي جئنا منه ، وتبيّن أننا في الصباح كنّا قد سلكنا الطريق الخطأ ، فضللنا . أما الآن ، فالدرب واضح ، وهو أقلّ وعورة وحجارة . ولم يطل بنا نصف ما طال في الصباح . ولم يعطش أحد منا هذه المرّة .

حين وصلت إلى البيت ، بعيد غروب الشمس ، منهكاً وجائعاً ، أرسلت النظر إلى خريطون القصيّ مرة أخرى ، وقد اندمج في الجبال الزُّرق في الأفق البعيد ، متلقياً بقايا ألوان الأصيل . وأحسست بفرح مفاجئ طغى عليّ ، وأنا أطيل النظر ، محاولاً أن أفهم شيئاً أخذ يلحّ على ذهني : هل تصورت أنني ، بعد سفرة من العذاب ، لمحت الفردوس؟ أم أنني زرت مملكة الموت ، وعدت منها أشدّ قدرة على الحياة؟ أم أن تصوّرات كتلك كانت أكثر تعقيداً مما يقوى عليه خيالي الفتيّ

آنذاك؟ غير أن أمراً واحداً لم يخطر ببالي ساعتئذ قطعاً : لم يخطر ببالي أن تجربة العطش حتى شفا الموت ، وتجربة المتاهة حتى شفا الرعب ، ستتركان في النفس والذاكرة أثراً عميقاً ، أثراً سيلازمني في السنين التالية من حياتي ، في صور وأشكالٍ تتوالد عنه ، ولم يكن لي في تلك الساعة أن أتنبأ بشيء منها . ولكنني ولا ريب حدست بها حدساً قوياً لم تكن لي القدرة على تحديده أو تحليله .

- ١٧ -

على حافة وادي الجمل ، على انخفاض قليل من «الطريق الجديدة» ، وعلى مرأى من دارنا الرابضة على المرتفع ، سمقت شجرة زعرور كبيرة . كانت منحدرات الوادي ملأى بأشجار الزيتون أينما اتجهت العين ، غير أن هذه الزعرورة البرّية التي لا يعلم أحد من زرعها ، ولعلها انبثقت عن الأرض ما بين صخرتين كبيرتين في زمن لا يذكره أحد ، كانت تتباهى بعلوها ، وتفرّعها ، وشموخها ، وحيدةً بين أتراب لا تنتمي إليها . نراها واضحة من على الطريق ، لأن أغصانها العليا باتت أعلى من الحافة ، تهتزّ لنا مع كل نسمة هواء ، كأنها تدعونا إليها عن قصد ، وعن رغبة . وما علينا إلا أن «نتعربش» على صخرة أو اثنتين ، ثم نقفز إلى فرع منها ، ثم نرتفع بين شبكة الأغصان والأوراق الكثيفة ، ونملأ جيوبنا بثمارها الصفراء الصغيرة ، الحلوة .

وفي أيام «جداد» الزيتون ، كنّا نجعلها مدخلنا إلى أشجار الوادي . كان القاطفون ، ومعهم العصيّ والسلالم ، يقطفون الزيتون بدراية تعود إلى آلاف السنين ، وهم يغنّون ويهزجون . وكانت «على دلعونة» أحبّ الأغاني للجميع ، ما

يكاد فصل الخريف يأتي حتى يمتلئ الوادي بها من حناجر القاطفين ، رجالاً ونساءً ، صبية وصبايا ، وهم يهزّون بالجذوع والأغصان ، ويضربونها بعصيّهم ، ويدركون أعاليها المتمنّعة بالسلالم ، فتتساقط الحبّات الخضراء كاللآلئ على التربة الحمراء . ويلتقطونها حفنات ، ويملأون بها السلال والأكياس . وينتقلون من شجرة إلى شجرة ، وتنتقل معهم الأغنيات وأنغام المجوز والشبّابة . ومهما يكن وقت النهار يظل دائماً أحدهم ، قد نراه أو لا نراه ، يعزف على الشبّابة أو المجوز بمفرده مرسلاً ، من على مجثمه على صخرة في مكان ما ، ألحانه المتواترة التي تتردّد أصداؤها كالنسمات المترسلة في أرجاء الوادي العريض .

وتبقى حبّات من الزيتون عاصيةً هنا وهناك على الأغصان ، أو مختبئة بين الحجارة وفجوات الأرض التي قد يبطّنها القرّيص ، أو أنواع من الحنّون الخريفي . كنا نحمل أكياس المدرسة - إذ تعطّل المدارس لبضعة أيام لكي تتسنّى للطلاب المشاركة في قطف الزيتون - و «نصيّف» وراء القاطفين . أي أننا ، بعد أن يغادروا الشجرة ، نلتقط ما فاتهمن من الحبّات الشاردة أو العاصية ، على قلّتها ، وهي حلال لمن ينالها ، ونلقمها أكياسنا الصغيرة . وإذا امتلأ كيس الواحد منا ، عدنا إلى الزعرورة المتفرّدة ، إن كان في النهار بعدُ بقية ، لنتسلّقها ونغني نحن أيضاً أغانينا ، فرحين بما جنينا .

كنت أحاول أن أفهم معاني الكلمات البدوية في الأغنية ، وأتلذذ بالغريب منها . ويروق لي أن أتصوّر كيف يغيّر «هوا الشمالي» ألوان المحبين ، الذين أراهم سُمراً ، لوّحتهم الشموس ، فأبرزت اتساع عيونهم الحوراء الكحيلة ، وهي تبرق وتلتمع ، وهوا الشمالي يهبّ عليهم ، ويزيد من سمرتهم - وحلاوتهم :

على دلعونة وعلى دلعونة
وهوا الشمالي غيّر لي اللونا . . .
لأكتُب لحُبّي في ورقة زرقة
وأكثر سلامي للبنت العلقا
وإن كان يا بنت بتريدي الفُرقة

تعالي واحكي لي بالتلفونا . . .

كنت أحاول أن أتخيل صوت هذه المحبوبة «العلقا» وهي تلثغ في «تلفون» رأيته عند بعض الناس ، ولم أضع سمّاعته على أذني قط . . . وبعد ذلك بسنوات ، عندما تحدثت بالتلفون لأول مرة ، كانت هذه الكلمات وهذه الأغنية أول ما خطر ببالي ، وتمنّيت لو أن محدّثتي هي تلك البنت «العلقا» التي جاءت عبر الأسلاك تريد «الفرقة» ، وأنا أقطف الزيتون في وادي الجمل ، وأملأ جيوبي بحبّات الزعرور ، فأسألها : لماذا بربك تريدين الفراق؟

كنت عائداً من الزعرورة مع سليمان ، في طريقنا إلى البيت . على مقربة منها ، يتفرع عن الطريق الجديدة درب يصعد لمسافة ما ، لينتهي في أعلاه بكراجات باصات بيت لحم (التي كانت شركتها قد أنشئت حديثاً) ، ثم ينعطف ليتصل بصعوده المستمر ببداية شارع رأس افطيس . ودارنا في المرتفعات التي تعلو هذا الدرب ، الذي كان في الواقع الطريق الأصلية المؤدّية إلى القدس قروناً طويلة ، إلى أن شُقّت «الطريق الجديدة» في أوائل العشرينات وعُبّدت بحيث تصل إلى ساحة المهد ، محاذيةً حافّة الوادي باستدارته الواسعة ، دون أن تخترق البلدة القديمة .

كان أحد أصحاب الكراجات في منعطف ذلك الدرب رجلاً يمتّ لنا بقرابة ، اسمه أبو إلياس . كان أبي ، بعد أن تعطل عن العمل في مستشفى الدير بسبب مرضه بعرق النسا ، ينزل إليه أحياناً ترويحاً عن نفسه ، ويتحدث إلى العاملين فيه - وهم اثنان أو ثلاثة من معارفه - ويتأمل آلات السيارات وهي تحت التصليح ، ويقول ، وقد سحرته بتعقيدها وحركتها : «هذا هو العمل الذي كنت أتمنّى لو أعمله!» .

فاقترح عليه أبو إلياس يوماً : «لماذا لا تعمل عندنا؟» فلما قال أبي إنه كبُر على تعلّم صنعة جديدة فضلاً عن مرضه ، أصرّ أبو الياس أنه له أن يساعد العمّال على قدر ما يستطيع . ولكن ، بأجر قليل جداً . بشلن في اليوم .

رضي أبي بذلك ، رغم احتجاج أمي ، وأخي في القدس لا يعلم بما يجري عندنا . واحتججت أنا ، بقدر ما كان بوسعي أن أحتجّ ، لأنني خشيت عليه من الإجهاد الذي سيؤذيه حتماً . غير أن أبي ألحّ على أن العمل سهل ، وفيه ملهاة له .

لم يكن قد مضى على عمله في تلك الكراجات أكثر من بضعة أيام ، حين عدنا ، أنا وسليمان من الزعرورة المضيافة صاعدين إلى البيت . فالتقيت أبي وهو يعمل على نقل عدد من الإطارات المطاطية من الرصيف إلى الداخل .

قلت : «يابا ، خليني أساعدك» .

قال : «لا ، لا . روح العب مع صاحبك» .

قلت : «خلّيني أنقل معك هذه الإطارات ، ثم أعود إلى البيت» . والتفتُّ إلى صديقي ، وقلت : «أنت روح ، وبلحقك بعدين» .

غادرني سليمان ، واشتركت مع أبي في ما يعمله .

وكان على انحدار بضعة أمتار منّا ، سيارة عاطلة ، مرفوعة على «الجاك» ، في انتظار من يركّب لها إطارة أمامية . وكان أحد العمال قد انتهى من تثبيت الإطارة المطاطية على حلقتها الحديدية ، ونفخها ، وطلب إلى أبي أن يحملها إلى السيارة المنتظرة .

غير أنني تبرعت بحملها بنفسي . وأمسكت الإطارة ، فوجدتها ثقيلة . فأقمتها على حافتها ، وهي منفوخة ومشدودة ككرة القدم . وبدلاً من أن أحملها ، خطر لي أن «أدحدلها» . وبالفعل ، ما كان لي إلاّ أن أدفعها قليلاً ، حتى انطلقت أمامي تتدحرج بنشاط .

ركضت وراءها ، ودفعتها مرة أو مرتين ، فاشتدت سرعتها وهي تنحدر ، ولما حاولت أن أدفعها جانبياً باتجاه السيارة المرفوعة ، لم تكد تصيبها كفّي ، بل بقيت ترمح في الاتجاه الذي اختارته لنفسها .

أمعنت في الركض وراءها ، فسبقتني كالحصان الجامح ، وزادت سرعتها بانحدار الطريق ، وأنا أعدو بكل ما أوتيت من قوة في إثرها . ورأيتها تبتعد

أمامي ، وتبتعد ، وأنا ألهث وراءها عاجزاً عن إدراكها ، وكأنها حيوان هائج انطلق من كل إسار . وفي تلك اللحظات كان يصعد في الطريق رجل راكباً حماره بأمان ، خفت أن تصطدم به الإطارة المجنونة فتسقطه أرضاً هو وحماره معاً ، غير أنها أصابت حجراً جانبياً بعنف ، طزّت به وارتفعت في الهواء لعلوّ مترين أو ثلاثة ، ثم سقطت على حافة «الطريق الجديدة» . فأملت أنها حينئذٍ ستقع على صفحتها ، وينتهي هربها . غير أن اللعينة سقطت على محيطها المنفوخ ، وطزّت مرة أخرى بمزيد من القوة في اتجاه الزعرورة ، وأنا أركض لاهثاً ، ولا أفهم لما أراه أي معنى ، وأسمع أبي من بعيد يصيح بي : «ولك شو سوّيت ! ولك شو سوّيت!» .

وعلى حافة الوادي ، قرب الزعروة إياها ، قفزت الإطارة مرة أخرى ، وبسقوطها في العمق احتجبت عن ناظريّ .

قفزت بدوري إلى الحافة ، ورأيتها ما زالت تنقذف من صخرة إلى صخرة ، بزخم هائل ، كأنّ فيها جنّياً أطلقه الجحيم . وارتعبت . . . ارتعبت . . . يا الله! متى ستتوقف؟ متى ، متى ستتوقف الملعونة؟

من سلسلة إلى سلسلة راحت الإطارة المجنونة تحطّ وتطير فوق حبلات الوادي ، وبأعجوبة ماكرة لا تصطدم بأشجار الزيتون - كأنها تعلم أن الأشجار ستضع حدّاً لجنونها . . . وأخذ مني الرعب ، كأنني اقترفت إثماً رهيباً لن أستطيع الخلاص منه .

أدركني أبي ، مشدوهاً مثلي ، مركّزاً عينيه على الإطارة الظالمة . لقد شعرت أنها تظلمنا بذلك الهرب الشيطاني . وخطر لي أن أصحاب الكراج سيطالبون أبي بدفع ثمنها ، ولن يستطيع أن يدفعه ، فيضطر الى العمل عندهم أشهراً دون مقابل لقاء ما صنع ابنه المتهوّر .

وفجأة ، أصابت الإطار زيتونة في بطن الوادي ، ورأيناها من على بعدنا تسقط ، وتختفي . . . وكان أبي أسرع مني : بخفّة الفهد قفز إلى صخرة ، ومنها إلى صخرة أخرى ، وصاح باتجاهي : «خلّيك واقف مكانك ، حتى ما أضيّعش طريقي . . . سامع؟ لا ، لا تنزل أنت . خليّك واقف مكانك . . .»

يلمح البصر ، عاد أبي إلى شبابه ، وحركته . وقد أخذ مني خط السمت في نزوله ، لأن من السهل أن يتيه في ذلك الوادي العريض ، العميق . ويبدو أنه كان قد رسم خطّاً وهمياً بذهنه لحركة الإطارة في قفزاتها المتواترة ، بدءاً من المكان الذي كنا واقفين فيه . وبقيت أرقبه وهو يهبط في الحبلات المتهاوية ، ويرفع بصره بين الآونة والأخرى في اتجاهي . إلى أن ما عدت أراه .

يئست ، وقلت : مستحيل! لن يجد الإطارة . . .

ولكنه بعد قليل برز مرة أخرى . وبعد زمن بطول الدهر ، رأيته من بعيد جداً ، يلوّح لي .

لم يسترح ولو لحظة واحدة . بل رأيته يرفع الإطارة ، ويبدأ بالصعود . . . لم أسمع أحداً يغنّي في تلك الساعة الأليمة ، ولم أسمع نغماً لشبّابة أو مجوز . بدا الوادي مهجوراً ، جهماً ، مضطهداً . . . وأبي يحمل الإطارة المشؤومة بكل ثقلها ، وهو يتسلّق من حجر إلى حجر ، من صخرة إلى صخرة ، يبرز ويحتجب .

إلى أن رأيته يرتفع على الحافة ، قرب الزعرورة الصديقة ، يرتفع بكبرياء مذهلة ، وهو يلهث ، والعرق يتصبّب من وجهه ، والإطارة بيده الجبّارة ، كقمقم أعاد الجنّي إليه ، وحبسه فيه من جديد .

أسرعت إليه ، فرأى عيني فائضتين بالدمع ، وبي رجفة لا أستطيع التحكّم بها . فطبطب بيده الحرّة على رأسي ، . وقال : «لهُ يا زلمة! مش عيب؟ أنا أبوك ، ولوّ!»

ولما أردت أخذها عنه ، أدهشني أنه كان ما زال بوسعه أن يضحك! أجل ، كان بوسعه أن يضحك لي ، أنا الآثم ، المأخوذ بخيالاتي الراعبة ، ويقول : «شو ، بدّك تطيّرها كمان مرة؟»

ودفعني بيده دفعاً رفيقاً ، ونحن نصعد عودة إلى الكراج ، وقال : «يلاّ عاد ، عالبيت ، بلا شغل ، بلا مسخرة . روح ادرس ، وغنيّ عتابة» .

ترددت ، وأنا أنظر في عينيه ، وشاربيه الأسودين الكبيرين . كان جبينه عريضاً مستوياً ، وخداه ممتلئين ، يتوهجان . لقد بدا لي عملاقاً ، شامخاً ، جميلاً ،

كالزعرورة التي أحبها . لم يرفع يوماً يده عليّ ، مهما فعلت ، ولم يصرخ بي قط صرخة غضب . رأيته في تلك اللحظات ، رغم التعب والإجهاد ، شاباً مرة أخرى ، يشعّ بالقدرة والعنفوان .

وكانت تلك آخر مرة . ففي المساء عاد إلى البيت ، وعاد إليه الألم يهدّمه بعناد شرّير . وجعل الشباب يزايله بسرعة ، مع أنه لم يكن إلاّ في أواخر الثلاثينات من عمره . وتناقصت الحيوية في أغانيه إذا غنى ، وما عاد يرقص في الأعراس مع صحبه . وتناقصت كذلك حكاياته ، إلى أن قال يوماً : «من الآن فصاعداً جاء دوركم أنتم ، أنتم ستغنون لنا ، وأنتم ستروون لنا الحكايات من الكتب التي تقرؤونها ، وأنتم الذين ستهزّون الأرض مع أصحابكم عندما ترقصون» .

- ١٨ -

كانت نهايات عام ١٩٣١ ، وبدايات العام التالي ، بائسة لنا جميعاً . أخي مراد ، مؤكداً استقلاله ، تزوج في أوائل السنة من امرأة اختارها بنفسه دون حماس من العائلة ، واستأجر غرفة صغيرة له ولزوجته في الطابق الأعلى من بناية قديمة عند مدخل سوق البلدية . وبعد تسعة أشهر رُزق بطفل لم يعش أكثر من أربعة أشهر أو خمسة ، وألقى موته أولى ظلال الفاجعة على حياته ، وحياة الأسرة .

ولم يكن يوسف سعيداً بعمله الشاق في القدس . ويوم جاء ليحتفل معنا بعيد الميلاد ، وقد أحضر معه جدّتي التي بتنا لا نراها إلا لماماً ، نشب شجار بينه وبين والدتي ، ربما لأنه لم يستطع أن يقدّم لها مبلغاً من النقود كانت تتوقعه في تلك المناسبة ، فأفسد جوّ العيد ، وانتهى إلى غضب ، وصراخ ، وبكاء ، وعودة يوسف مقهوراً إلى القدس مع جدتي مرة أخرى .

وأدركنا ، مع هطول الأمطار ، واشتداد البرد ، أن حياتنا دون دخل يذكر ، وأبي على مرضه ، غدت أمراً صعباً . فبعنا الخراف ، وبعنا الدجاج والبط ، وبعنا

الخنازير .

كانت المدرسة لي ، بطلاّبها ومعلّميها ، بكتبها وأجوائها ، مهرباً وملاذاً ، كالطبيعة نفسها . وما كنت لأستغرب ، كما استغرب المدير ذات يوم ، أنني طوال ما يقارب السنوات الثلاث لم أغب عن المدرسة يوماً واحداً ، كسلاً أو مرضاً ، يسجّله عليّ في دفاتره!

وبدأت أيامئذ أرسم بالقلم الرصاص ، ثم الألوان . في طريقي إلى المدرسة كنت أرى ، قرب قوس زرّارة ، حلاقاً أقام بجانب كرسي الحلاقة في دكانه مسنداً جعل عليه لوحة كبيرة ، رسم عليها مربّعات ، وراح من خلال المربعات يرسم خطوطاً بالقلم ، ثم يضيف ألواناً ، على مهل ، وبعناية . كلما مررت به ، يوماً بعد يوم ، رأيت الصورة تتنامى في لوحته ، إذ يعمل عليها في الفترات الطويلة بين الزبون والزبون . كنت أقف بالباب وأتفرّج عليه ، ويشجّعني على متابعته . وأفهمني أن اللوحة هي تكبير لصورة فوتوغرافية ، بحجم بطاقة البريد ، لرجل وزوجته ، خطط عليها مربّعات صغيرة ، وجعلها على جانب من اللوحة ينقل عنها ، ثم يدخل في اللوحة الألوان الزيتية التي يرتئيها - وهي زاهية فرحة في معظمها ، يغلب فيها الأحمر والأزرق .

وهذا ما فعلت أنا أيضاً ، ولكن بقلم الرصاص . كان كتابنا المدرسي ، «تاريخ أوروبا الحديث» لمحمد عزّة دروزة ، مليئاً بصور شخصيات تاريخية ، جعلت أنقلها مكبّرة بالمربعات ، وتباهيت بشكل خاص بتكبيري لصورة نابوليون . ورغم رداءة طبع تلك الصور ، فإنها جعلتني أتأمل كيف تتشكّل العيون والشفاه ، في الصُّور كما في الواقع ، وأدركت صعوبة رسم الأنوف على نحو مقنع إذا قابلني الوجه بتمامه ، وأصعب منها رسم الأيدي والأقدام . فركّزت همي على محاولة إتقان تصويرها تخطيطاً وتظليلاً ، وجعلت أتمعّن في عيون الناس وشفاههم ، وأيديهم وأقدامهم في حالاتها وحركاتها المختلفة ، وجعلت أرى فيها جمالاً راح يشدّني بازدياد .

وبفورة من الحماس ، حين نظرت أمي إلى بعض الصور التي رسمتها ، قالت :

«سأعطيك قرشاً تشتري به أقلاماً ملوّنة ، شريطة أن ترسم بها بيتنا» ، . ولم تدر أي تحدٍّ أقامت لي ، ببراءة ، بتلك الأقلام الملوّنة العشرة في علبتها الكرتونية! ولم يطل بي الوقت الذي اكتشفت فيه الألوان المائية ، وحصلت على علبة منها ، مع ريشتين أو ثلاث . وبقيت الألوان المائية بعد ذلك وسيلتي في الرسم ، إلى جانب قلم الرصاص ، إلى أن ذهبت للدراسة في إنكلترا - بعد ذلك بسبع أو ثماني سنوات - حيث علّمت نفسي أخيراً الرسم بالزيت .

وكان الرسم لي باباً آخر دخلته إلى عالم وجدت فيه ملاذاً لا بد لي منه ، ووسيلة لنشوات عوّضت لي عن بؤس كثير فيما بعد ، يوم انغلقت جدران البيت على من فيه ، وانسدّت المنافذ التي تدخل منها مشاهد الأشجار المحمّلة بالعصافير ، ورؤى الجبال والوديان المتضاحكة في ذَوْب الشمس .

فقد قرّ الرأي على اقتراح يوسف بأن تنتقل العائلة إلى القدس ، إلى دار دلّ والديّ عليها بعض معارفنا هناك . ولما أخبرت المعلم جبّور بالأمر ، وكان ذلك في أواخر شهر آذار من عام ١٩٣٢ ، وقد انتهينا للتوّ من الفصل الدراسي الثاني ، جعلني أحصل من المدير فضيل نمر على «ورقة انتقال» إلى المدرسة الرشيدية في القدس . وكان في «ورقة الانتقال» هذه قائمة بدرجاتي الأخيرة في الدروس ، وإشارة إلى أنني «الثاني» في صفّي ، بلا غيابات ، الخ .

حزنت على تركي المدرسة التي أحببتها ، والمعلمين والتلاميذ الذين كنت أشعر بينهم بدفء وطمأنينة . وتوجّست من ذهابي غريباً إلى مدرسة جديدة في المدينة الكبيرة التي قد أضيع فيها ، كما ضعت مرة من قبل .

وفي صباح يوم ملبدٍ بالغيوم ، جاءت الشاحنة الكبيرة إلى الطريق عند مدخل حوش دارنا . وجعلنا ننقل إليها أفرشة المعزل ، والحصران ، وأكياس المؤونة ، وتنكات الزيتون ، والأواني النحاسية التي هي قوامنا في الطبخ والغسيل ، والصفائح التي سنحتاجها في نقل الماء ، والزير الكبير الذي كان يحتلّ الركن الأهم من الدار ، وكان أعزّ ما نقلت بيديّ صندوق الكتب ، وقطتنا الحبيبة «فلّة» .

جلس أبي قرب السائق ، وتكوّمنا نحن البقية بين ركام هذه الأمتعة : أمي ، وجدتي (التي حضرت لإسعافنا في عملية النقل) ، وأخي الصغير عيسى ، وأختي الطفلة سوسن ، وأنا .

وبعد حوالي نصف الساعة كنا في حينا الجديد - جورة العنّاب ، التي كانت على منخفض من الطريق العام ، قبيل بلوغ باب الخليل ، ويشمخ فوقها ، وفوق الطريق ، سور المدينة الغربي ، حيث قلعة النبي داود ، ومئذنة جامع القلعة ، وكلتاهما من معالم القدس الشهيرة . (ولسوف أرسمهما بالألوان المائية في لوحة من أجمل ما رسمت بعد ذلك ببضع سنوات) . وكان يوسف في انتظارنا .

عندما وقفت الشاحنة عند الدار الكبيرة ، التي تعلو على الدرب في طابقين ، أملت أن تكون الغرفة التي استأجرها والدي في الطابق الأعلى . ولكننا دخلنا إلى دهليز بجانب الدرج الصاعد ، ينفتح في طرفه الآخر على منخفض مكشوف ، نزلنا إليه على سلّم حجري ، وإذا بطابق أرضي آخر ، فيه غرفتان ، تقابلهما عبر الحوش المفتوح ثلاث غرف أخرى في طابق واحد سقفه من الصفيح ، وخلفه مؤخرة دار عالية لها نافذة تطلّ علينا - ولسوف تتوثق علاقتي بعد سنة أو أكثر بقليل بالفتى الذي يسكن فيها مع عائلته ، خليل الدجاني - ووراءها وحولها دور عديدة أخرى . أما دارنا «الجديدة» فهي إحدى الغرفتين اللتين في الطابق السردابي هذا . لها على يمين الباب نافذة صغيرة مغلقة بدرفة خشبية صبغت ذات يوم مضى بالأزرق ، وتطلّ على ما يشبه خمّاً للدجاج عرضه حوالي المتر ، اقتطع من الحوش بسياج شبكي متهافت . ووضعنا صندوقاً خارج الباب ، سرعان ما غدا المصطبة التي نقتعدها كلما أردنا الجلوس في «الهواء الطلق» على حافة الفناء ، ومستودعاً آخر لما يتراكم لدينا من كتب ومجلات . وبعد أيام قلائل قرّرنا فتح نافذة صغيرة في أعلى الجدار المقابل للباب ، فجاءت قاعدتها بالضبط على مستوى الطريق الذي تقوم عليه البناية : فلئن كانت تأتينا بالكثير من الغبار عبر المشبّك المعدني الدقيق ، فإنها كانت تأتينا أيضاً بهواء غربيّ يمنع عنا (أو يقلل) الاختناق ، وبخاصة عندما نغلق الباب علينا في الليل .

في كل غرفة من ذلك المبنى كانت ثمة عائلة بأفرادها العديدين : ورغم أن في وسط الحوش بئراً ، أقيم عليه قوس البكرة التي تحمل الدلو ، فقد وجدنا أن البئر ملأى بالأسن ، وماؤها لا يشرب ، وقد طمأننا الجيران أن على مقربة من البناية «عيناً» يأتيها الماء مرة أو مرتين في الأسبوع بترتيب من البلدة ، وما علينا إلا أن نشتري منها حاجتنا من الماء في الأوقات المخصّصة لحارتنا .

فجأةً ، وجدت نفسي محشوراً بين عدد كبير من النساء والرجال والأطفال ، في احتكاك يومي مستمر ، وضوضاء ولغط لا ينتهيان .

في الغرفة المقابلة لنا ، ذات السطح الصفيحي ، كانت تقيم عائلة من بير زيت ، تتألف من سيدة أرملة (أعلمتنا في الحال أنها أخت صاحب الدار) وابنها منصور ، وابنتيها الصغيرتين . وكان منصور في حوالي الرابعة عشرة . وهو أول من سألته ، في صباح اليوم التالي لاستقرارنا في غرفتنا المظلمة ، عن مكان المدرسة الرشيدية . فقال : «آخذك إليها بنفسي . فأنا ساعي بريد ، كما ترى من الزي الذي ألبسه ، وأعرف منطقة باب الساهرة معرفة جيدة» .

استصحبني صعوداً إلى باب الخليل ، ومن خلال الطرق المعقودة المزدحمة نزلنا إلى باب خان الزيت وسوق العطارين ، ثم إلى شوارع ضيّقة مكشوفة ، أرضها مرصوفة بالحجارة . وصعدنا إلى فناء باب العمود ، وخرجنا من تلك البوابة العالية الفخمة ، واتجهنا شرقاً بمحاذاة السور إلى باب الساهرة . وهتف منصور مشيراً بيده إلى ما عبر الطريق : «أترى تلك اللافتة؟»

وكان مكتوباً عليها بأحرف كبيرة «المدرسة الرشيدية الثانوية» .

تركني دليلي بعد أن شكرته ، ودخلت من البوابة العريضة التي تعلوها اللافتة إلى ممشى مشجّر في وسط الملاعب ، مضطرباً ، قلقاً ، غير مطمئن إلى ما سوف ألقى . وعندما بلغت الدرج الحجري العريض الذي أرتقي به إلى شرفة جميلة ، ألقت عليها الظلال شجرة فلفل سامقة ، زاد اضطرابي وقلقي .

دلفت من الشرفة إلى ردهة واسعة ، على جانبيها أبواب صفوف الدراسة ، أسمع من ورائها أصوات المعلّمين . وصعد بي أحدهم الدرج إلى الردهة العليا ،

وإلى غرفة المدير في طرفها الأقصى ، وبيدي أهمّ وثيقة عرفتها في حياتي حتى تلك الساعة : «ورقة الانتقال» .

قرعت الباب ، الذي كان أصلاً مفتوحاً ، فأسرع إليّ شاب من الغرفة المقابلة ، يبدو أنه سكرتير المدير ، وقال : «نعم؟ ماذا تريد؟»

قدّمت له الورقة ، فقرأها وابتسم (تبين فيما بعد بعد أنه هو أيضاً من بيت لحم ، من آل نسطاس) ، ودخل بي على الأستاذ عارف البديري الذي كان جالساً وراء منضدة كبيرة عامرة بالأضابير والأوراق ، ومحاطاً برفوف من الكتب .

كان المدير هنا على عكس المدير في المدرسة التي غادرتها : رجلاً جهماً ، كبير الرأس ، أصلعه ، ممتلئ الوجه ، وهو على شيء من البدانة . وكان نافذ العينين ، نافذ الصوت ، ويبدو كذلك أنه نافذ الإرادة والتصميم . أخذ الورقة من يد السكرتير ، وقرأها ، وقال دونما ابتسام : «متى انتقلت عائلتك إلى القدس؟»

قلت : «أمس» .

قال : «جيد . لو تأخرت لكان لنا معك حساب آخر!»

ألقى بالورقة على المنضدة ، ونهض إليّ وقال : «تعال» ، واقتادني إلى الصف الخامس ، في غرفة مجاورة في الطابق نفسه ، ودخل بي على معلم كان يدرّس اللغة العربية ، في غرفة تشعشع بضوء النهار الدافق من نافذتين كبيرتين . وفي الحال قال المعلم للطلاب : «قيام!» ونهضوا واقفين بجلبة مألوفة .

وقال المدير : «حسين أفندي ، هذا تلميذ جاءنا من بيت لحم . نرجو أنه سيستطيع الاستمرار معنا» .

ثم التفت إلى الصبية والواقفين وأمر : «جلوس!» وخرج ، وقد أوحي إليّ بأنني قد لا أستطيع الاستمرار معهم .

جلست على مقعد قرب ولدٍ قال لي همساً ، حال خروج المدير : «اسمي هشام النشاشيبي . ما اسمك؟» ثم سألني الأستاذ حسين غنيم السؤال نفسه . وعندما أجبته ، قال : «هؤلاء هم زملاؤك : عبد الله الريماوي ، محمود البحش ، غالب هدايا ، شريف الخضراء ، طاهر البديري . . .» وعدّد أسماء التلاميذ كلهم ،

وكانوا حوالي عشرين ، أو أكثر بقليل .

وبعد ذلك سألني ، وقد انتبهت إلى أنفه الصغير الأفطس ، وصوته الحادّ : «هل أنت شاطر في اللغة العربية؟»

قلت خَجِلاً : «ربما» .

قال : «تفضل إلى اللوح» .

فنزلت ، وركبتاي تصطكّان . وأخذت الطبشورة بين أصابعي .

قال : «اكتب :

ولما رأيتُ البِشْر قد حال دوننا

وحالت بناتُ الشوق يحننّ نُزَّعا»

كتبت ما أملاه ، وهو يتأمل الكلمات التي أخطّها ، فقال : «والآن ، اعرب هذا البيت» .

رحت اقرأ الكلمات على مهل لأتأكد من المعنى ، وإذا بعدد من تلامذة الصف يرفعون أصابعهم ، ويقولون : «أستاذ ، أستاذ ، أأعربه أنا؟» يظهر أنهم استبطؤوني ، ولعلهم كانوا قد أعربوه سابقاً مع المعلم . فبدأت بالاعراب :

«الواو حرف عطف . . .» واسترسلت . وصمت الطلاّب ، والمعلم يعلّق على إعراب كل كلمة : «نعم . . . صحّ . . . صحّ . . .» ولم أكن واثقاً من معنى الكلمة الأخيرة «نُزَّعا» ، غير أنني جازفت بإعرابها بأنها منصوبة لأنها «حال» للفعل «يحنن» ، مما جعل المعلم يهتف : «صحّ! عظيم! شو رأيك يا عبد الله؟»

وأدركت أن عبد الله الريماوي هو «أشطر» طلاب الصف ، والمعلم يُعنى به وبرأيه بوجه خاص . وعدت إلى مقعدي ، وقد عادت إليّ الثقة ، واستويت في جلستي ، وجعلت أجيل البصر حولي ، لأتملّى مطمئناً من رؤية زملائي الجدد .

عندما انتهى الدرس ، وخرج المعلم ، تجمّع عليّ الطلاب في الدقائق الخمس التي تسبق الدرس التالي ، وهم يسألونني عن علاماتي ، ورتبتي في الصف ، وأين أسكن ، ولماذا تركت بيت لحم ، ومن هو أبي ، وهل لي أخوة ، وغالب ، عريف الصف ، يحاول تهدئة الضجّة ، ويهدّد بكتابة أسماء المشاغبين على اللوح .

دق الجرس ، ودخل معلم شاب بادي الطول ، اسمه ياسين الخالدي . وهو بادي الأناقة في بدلة بيضاء ، له شعر أسود غزير مصقول ، يفرقه من جانب ، ويرسله خلف أذنيه . كان شاباً وسيماً جداً ، أشبه بممثلي السينما . ولفت نظري طول أصابعه ورهافتها ، إذ راح يقلّب صفحات الكتاب الإنكليزي الذي يدرّس فيه الصف . لمحني غريباً ، فتقدّم مني وسألني من أنا ، ومن أين جئت . ثم ألقى عليّ السؤال الذي كنت أخشاه :

«في أي كتاب كنتم تدرسون الإنكليزية؟»

أجبت : «نيو ميثود ريدرز» .

قال : «نعم ، ولكن أيّ جزء؟»

قلت : «الجزء الثالث»

فهتف : «ها ها ! أتعرف في أي جزء نقرأ نحن؟ الجزء الخامس . كيف تستطيع السير معنا؟ ما رأيك لو عدت إلى الصف الرابع؟»

قلت : «لا ، لا . ، مستحيل ، أستاذ» .

قال ملوّحاً بيده طويلة الأصابع : «ولكنك لن تستطيع مواكبة هذا الصف في الجزء الخامس» .

فقلت راجياً : «أستاذ ، جرّبني ، جرّبني شهراً واحداً» .

ضحك ياسين أفندي ضحكة جميلة ، وقال ، متظاهراً بأنه سلّم أمره لله : «طيّب يا سيدي . نجربك لشهر واحد فقط ، وإذا خيّبت ظني؟»

أجبت بلا تردد : «اطردني من المدرسة!»

وراح يتمشى بين مقاعد الطلبة ، ويلقّننا الدرس الجديد ، بلفظ إنكليزي بديع لم أسمع مثله من قبل .

وكان من شأنه أن يفاجئ الطلاب بين يوم وآخر بامتحان تحريري قصير - «كويز» - لم أكن معتاداً عليه . ولكنني لم أتهيأ ، في الأيام التالية ، كما تهيأت لدروسه وامتحاناته .

هل خيّبت ظنه بعد شهر؟ دخل الصف ، وأخرج من بين أوراقه قائمة

«العلامات» . وهزّ رأسه ، وهو يتأملها ، ويضحك ضحكة التعجب بصوت خافت ، وقال : «يا جماعة ، ظلمنا جبرا ، فماذا فعل؟سبقكم جميعاً! علامته عندي هذا الشهر ، صدقوا أو لا تصدقوا ، ٩٥ . ويا عبد الله ، انتبه! من هو الأول في اللغة الإنكليزية هذا الشهر؟جبرا . . . تهانينا» .

كان عبد الله الريماوي الأول في الصف ، وكان الأول في مواد الدراسة كلها . ولم يرق له أنني «انتزعت» منه - دون إرادة مني - المكانة الأولى في مادة واحدة على الأقل . غير أنه قال لي ، عند خروجنا إلى الملعب ، إن المسألة مجرّد صدفة ، ولن تتكرّر . كان صريحاً ، ومتودداً في الوقت نفسه ، وأعجبت بذكائه ، وشطارته ، ولكن لم يغب عني أنه معتدّ جداً بنفسه ، على نحو يجعله مستعدّاً للخصام في أية لحظة ، مع الكبار والصغار على حدّ سواء . وأدهشني فيما بعد أننا لم نتخاصم قط - لا في تلك السنة ، ولا طوال السنوات الخمس التالية التي قضيناها معاً في الصف نفسه . وكلما انتزعت منه المرتبة الأولى في أي موضوع آخر بعد ذلك ، حتى في الإمتحانات الشهرية ، كان المعلمون صريحين في توجيه اللوم ، أو العتاب إليه ، مع التحذير : «انتبه يا عبد الله . دِر بالك يا عبد الله . . . .»

أحببت أساتذتي كلهم في المدرسة الرشيدية ، ولكن أحدهم لم ينبهني يوماً إلى خطر منافسة الآخرين لي . كانوا أميل إلى تنبيه عبد الله إلى منافسة الآخرين له ، وبالأخصّ منافستي . وأنا لم أنافسه ، ولم أرد التفوق على أحد ، قطعاً . ما كنت أريد إلاأن أضمن النجاح ، لئلاً «أسقط» ، فأخرج من المدرسة قبل أن أحصل على ورقةٍ تؤهلني للعمل مدرّساً في مدرسة ما ، فأساعد أهلي بما أحصل عليه من راتب .

أما الذي كنت مهووساً به ، فهو ما أقرأ من كتب مدرسية وغير مدرسية . كنت أشحن ذهني بكلمات عربية وإنكليزية ، وتواريخ ، وأحداث ، ومعلومات شتيتة تتخذ لنفسها مع الزمن نسقاً له أبعاده الفكرية ، فأجد فيها متعتي الحقيقية - تلك المتعة التي كنت ، على صغر سنّي ، منهوماً بها . أما من يكون الأول والثاني والعاشر في الصف ، فلم يكن سؤالاً يقلقني ، أو يهمّني أن أسأله . وهذا

بالضبط ما أدركه عبد الله فيّ ، فيما بعد ، ولو أنه بقي يحتاط لنفسه بالمزيد من الدراسة والمطالعة . ورغم مشاكساته الكثيرة للطلبة والمعلمين في السنوات اللاحقة ، فقد بقينا أنا وهو على وفاق ووئام حتى النهاية - حتى يوم تخرجنا من الدراسة الثانوية في الكلية العربية ، في أول صيف ١٩٣٧ .

لقد أفرحني أن أجد المعلّمين ، حتى في ذلك الصف الخامس الابتدائي ، من نوع لم أعتد عليه . كان وصفي العنبتاوي يدرّسنا الجغرافيا ، ويتحدث في أثناء الدرس عن تجاربه في انكلترا وفرنسا ومصر وأقطار غيرها . لا ينظر في الكتاب الذي يدرّسنا منه ، ويملي علينا صفحات من المعرفة تبدو أنها تفيض تلقائياً عن علم غزير . كان خرّيج جامعة أكسفورد ، وهو طويل القامة ، شديد الأناقة ، يضع منديلاً في كمّه عند المعصم ، شديد اللطف ، وأحياناً ، إذا غضب ، شديد القسوة ، إذ تلتمع عيناه وراء زجاجتي منظرته الذهبية بما يشبه البرق ، فيصمت الجميع فرقاً . كان يتحدث بلغة تتمازج فيها الفصحى باللهجة النابلسية ، مؤكداً على «القاف» التي نادراً ما يلفظها المقدسيّون ، ويسيطر على أذهاننا وخيالنا ، ولا أظن أن أحداً يشرد به ذهنه لحظةً واحدة عما يقول . وكلما شرح نقطة صعبة ، ردّد لازمته المحبّبة : «إنما بقي يعني إيش؟» وأعاد توضيح النقطة بشكل آخر .

وكان معلم التاريخ ضياء الخطيب ، . وهو خريج جامعة لندن ، وصديق وصفي العنبتاوي ، ولكنه يختلف عنه كلياً : فهو أميل إلى القصر ، وإلى إهمال مظهره ، ولا يتحدث بفصاحة زائدة ، كأنما الكلام لديه هو ما قلّ ودلّ ، بلغة فيها أثر قوي من لهجة مدينة الخليل التي جاء في الأصل منها . ولا ينفعل أبداً . وسيطرته على مادته تجعلنا نفتح الآذان لكل كلمة ينطق بها . فأشعر أنه يفتح في ذهني أعماقاً زمنية مذهلة بتشعبها ، بقدر ما يفتح الأستاذ وصفي آفاقاً مكانية مذهلة باتساعها .

وحسن عرفات كان يدرّسنا الحساب والجبر - ودرّسنا في السنوات اللاحقة الطبيعيات . كان خريج الجامعة الأمريكية ببيروت ، وهو أيضاً من نابلس . كان

بدي القصر ، غير أن له حضوراً متميّزاً بمنطقه الرياضي ودقته البالغة فيما يقول والتي يؤكد عليها بحركات خاصة من يديه حين يمسك القلم ، أو الطباشير ، أو الأوراق والكتب . وله روح نكتة بارعة : يجعلنا نضحك ، في حين يبتسم هو ابتسامة خفيف ، لا أكثر ، ويرفع عينيه جانبياً ريثما ننتهي من ضحكنا .

ومن أحبّ المعلمين إليّ كان جمال بدران ، معلّم الرسم . كمان يتكلم بلهجة مصرية (لم تفارقه سنيناً طويلة ، لدراسته في القاهرة) ، ولا يكف عن الكلام وهو يرسم ، أو يصحح لنا رسومنا ، لشدة حماسه لفنّه . علّمني في شهرين أو ثلاثة عن أصول الرسم - وبخاصة قواعد المنظور والتظليل - ما بقي دليلي في دراساتي وأعمالي الفنية طوال سني حياتي . كان يجمع بين حب النكتة ، وحب النظام : يضحكنا ويقسو علينا ، بالتناوب . ولما كان له ولع عميق بالزخرفة الإسلامية (وكانت له شهرة في حفر الزخارف في الجلد) ، فقد جعلنا ، إلى جانب الرسم عن الجماد ، ندرس قواعد الزخرفة . فكنّا نذهب ، بطلب منه ، إلى الحرم الشريف ، لننقل أجزاء من زخارف جدران قبة الصخرة ، ونعيد رسمها وإكمالها في دفاترنا بالخطوط والألوان . وكان زميلي في تلك العصاري الجميلة في رحاب تلك القبة التي عشقت بناءها من أول نظرة ، شريف الخضرا ، الذي كان مثلي مولعاً بالرسم ، والذي تخصص فيما بعد في الصناعات الزخرفية في أحد معاهد القاهرة الفنية . كان الصحن الفسيح ، الذي تحتل قبة الصخرة الوسط منه ، يوحي بسلام وهدوء رائعين ، بعد ضوضاء وصخب الأحياء التي تقطعها عبوراً إليه . وكلما غادرت قبة الصخرة ، عودة إلى الدار ، غادرت معها السكون والدعة - عودةً إلى قلب الأشياء الخافق بضجيج البشر .

- ١٩ -

في الدار ، كان السكون والدعة أقلّ دواماً وأصعب منالاً ، بين كل هؤلاء الساكنين حول الحوش ، والساكنين في الطابقين الأعليين . فالإرادات تتصادم ، على الأغلب بين النساء ، حول أتفه الأمور . حبال الغسيل ، تنظيف المرحاض ، دخان نيران الأثافي بين الزوايا ، المياه المدلوقة أمام الأبواب ، شجارات الأطفال . . . ولكن الوئام كان دائماً يعود ، لأنه ضرورة حياتية . ويعود بالتصافي والقُبل وفناجين القهوة . ولو إلى حين .

في الغرفة المجاورة لدار الأرملة أم منصور ، التي كثيراً ما كانت أصل البلاء ، لأن كونها أخت صاحب الدار يوحي إليها بضرورة التدخل في شؤون المستأجرين (رغم أن أخاها ينكر عليها ذلك أمامهم) - في الغرفة المجاورة لها يقيم أبو لطيف وأم لطيف ، وابنتهما نعيمة ، وهي في مثل سنّي ، تلبس الزيّ الأسود مع الياقة البيضاء كل صباح ، وخدّاها مورّدان بلون التفاح ، وتذهب إلى مدرسة سان جوزيف ، وأبو لطيف يخرج بعدها حاملاً صندوق «البوية» ، لصبغ الأحذية ، ويبدو منهكاً حتى في بدء النهار ، لتقدّمه في السنّ . وتبقى زوجته ، الوحيدة

العين ، وراء زجاج نافذتها المطلة على الحوش ، ترقب كل نازل وطالع .

وفي المساء قد أرى نعيمة من خلال زجاج النافذة وهي تشعل «اللمبة» ، فيفيض النور على وجهها في وسط الظلام وهي تعلّق المصباح قرب النافذة ، فتبدو عيناها واسعتين حالمتين ، وشفتاها الريانتان منفرجتان ، إذ تتأمل الفناء المظلم ، ولعلها تعلم أنني بباب دارنا أرنو إليها ولا أريد لها أن تغادر مكانها .

وبجوارهم ، في الطرف الأقصى من الحوش ، يقيم يوسف الأعرج وزوجته . والأعرج لقبه فقط . وهو حدّاد قليل الكلام ، أميل إلى القصر مع متانة في البنية ، لا يهمّه أن يتدخل في أي شأن من شؤون الحارة ، على عكس زوجته رفيعة ، الأطول منه قامة ، والتي لا ينقطع صوتها في التردد في أنحاء المكان في غياب زوجها . ولكن يوسف في بعض الأماسي يتأخّر في العودة من عمله . ثم ينزل الدرج مرحاً ، مترنّحاً ، وهو يغنّي ويجلس بباب داره ، ويغنّي . وتأتي له رفيعة بالمزيد من العرق والمازة ، وتشرب معه كأساً «علشان خاطرك» . ويستأنف يوسف الغناء . وبعد قليل ، ينقطع غناؤه ، وفجأة يرتفع صوته بالاحتجاج على مشاقّ العمل ، ثم على مشاقّ الحياة ، ثم يشتم أقاربه واحداً واحداً ، وبعدها يشتم الدنيا وكل من فيها ، ولسبب ما ، ينهال فجأة بالضرب على زوجته ، فتصرخ ، وتدخل الدار وبكاؤها مسموع في أرجاء الحوش . ويتبرّع بعض فاعلي الخير من الجيران للتوسط بينهما . وتنتهي الأمسية بانفجار يوسف بالنحيب ، فتعانقه عند ذلك زوجته ، وتسترضيه ، وهو يقاوم ، إلى أن يكفّ ، وقد سقط رأسه على صدرها ، وغرق في النوم .

مقابل دارهما ، في الغرفة التي هي نظير غرفتنا في الطابق السردابي من البناية ، يسكن لطيف - ابن أبي لطيف - مع زوجته . وبناته الثلاث : جورجيت ، وايفيت ، والطفلة أوديت . لم أدرِ من أين جاء لطيف (وكان صبّاغاً للدور) بتلك الأسماء الفرنسية كلها ، إلى أن علمت أن زوجته سلطانة كانت قد نشأت في ميتم للبنات في أحد الأديرة الفرنسية . كانت الكبرى في التاسعة أو العاشرة ، شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، ترافق عمتها نعيمة إلى المدرسة . غير أن

أمها كانت بحاجة مستمرة لها . كيما تساعدها في شؤون المنزل والطفلتين الأخريين ، وبخاصة أوديت التي كانت جورجيت تحملها على صدرها باستمرار ، فتعيق بذلك انتظام دوامها في المدرسة .

وقد أبدى لطيف اهتمامه بي يوم أطلعته على دفتر كنت أكتب فيه قصتي الطويلة الأولى . لعلّه ، باستثناء أخي ، كان أول قارئ لي : فقد قرأ قصتي حالما فرغت من تبييضها ورسمت صورة على غلافها ، وعاد إليَّ يناقشني فيها بشكل جاد . وأغلب الظن أن عنوانها كان «غادة الأحلام» وأن موضوعها كان مزيجاً من حكايات «ألف ليلة وليلة» وروايات «باردليان» لميشيل زيفاكو (التي كنا أنا ويوسف نقرأ العديد منها في ترجمةٍ لطانيوس عبده) . . . وبعد ذلك بسنة أو سنتين ، أعطيت القصة لابنته جورجيت لتقرأها ، ولم تُعدها إليّ بعد أن غادرت العائلة الحيّ ، وفقدتُ كل أثرٍ لها ، وللقصة .

عند صعود الدرج من حوشنا السفلي إلى الدهليز الذي يفضي إلى مدخل البناية والطريق العام ، كان عند رأس الدرج بابان متقابلان . أما الباب الذي على اليسار ، فيؤدّي إلى بلكون ضيّق يشرف على الحوش السفلي ، وعلى حاجزه تنكات مزروعة بالجرانيوم والريحان . وهو ينتمي إلى غرفة تسكن فيها أختان عانسان ، كانتا دائمتي الجلوس في البلكون ، وتتفرّجان من بين تنكات الزرع على مجريات المنازل السفلى ، ولا يكاد يسمع لهما صوت . «اختطفتني» إحداهما ذات يوم ، بأن كمنت وراء الباب ، وحالما بلغت الدهليز بعد صعودي الدرج ، فتحت بابها ، وسحبتني بغتة من يدي إلى الداخل ، وهي تضحك ، وأجلستني على دكّة مستطيلة محاذية لحاجز البلكون ، قرب نبتة الريحان ، وقالت إن اسمها سلوى ، واسم اختها حنّة . وسألتني عن أحوال العائلة ، وأنا أتساءل في سرّي عن سبب هذا الاهتمام المفاجئ . ثم جاءتني برسالة ، وطلبت إليّ أن أقرأها لهما . كانت كلتاهما أميتين ، رغم مظهرهما الذي ينمّ على العكس . فقرأت لهما الرسالة على رداءة خطها ، ثم أعدت القراءة . فجاءتني سلوى بقلم رصاص ودفتر اقتطعتُ منه ورقة ، وطلبت إليّ أن أكتب لهما جواباً على الرسالة .

أخذت القلم والورقة ، وسألتها : «ماذا أكتب؟»

قالت : «ابدأ أولاً» .

قلت : «أبدأ بماذا؟»

قالت : «سلام وكلام أولاً ، وبعدين المطلوب» .

فكتبت : «عن بعد بعيد ، وشوق ما عليه من مزيد ، وإذا سألتم عنا فإننا ولله الحمد ، في أسعد حال وأهنأ بال ، ولا ينقصنا سوى سماع أخبار حياتكم الهنيّة ، ومشاهدة طلعتكم الحلوة البهيّة . . .» واستمررت لأربعة أسطر أو خمسة على هذا المنوال من الكلايش المسجوعة التي قرأتها للأختين ، فطربتا لها ، وطلبتا المزيد ، إلى أن قلت . «لم يبقَ عندي ما أحفظه من هذا السلام والكلام» .

فقالت حنّة : «طيّب ، هذا يكفي . ما نريد أن نقوله الآن في المكتوب . . .»

وفهمت ، رغم المداورة منهما ، أنهما تتفاوضان مع مراسلهما على زواج سلوى ، ولا تريدان التصريح بأي تفصيل واضح . وقد اقتضى الأمر أن أقرأ الرسالة الواردة وأجيب لهما عنها ، تستحلفني سلوى بألا أخبر أحداً من الأهل أو الجيران عن الموضوع - إلى أن علم الجميع ذات يوم أن الأختين غادرتا الحيّ ، لأن سلوى تزوجت من رجل في رام الله ، وأخذت أختها معها . وكنت الوحيد المطلع على «مراحل» القضية .

في تلك الأثناء كان قد تحوّل إلى الغرفة المقابلة لهما عند رأس الدرج ، قادماً أيضاً من بيت لحم ، موسى الخوري ، مع زوجته مريم وحماته ، وولديه الاثنين - وكان أكبرهما في سن أخي عيسى ، فلتلازما معاً في اللعب والمدرسة . كان موسى من أقارب أبي ، ولو عن بعد ، ثم صار «إشبيناً» لنا ، لأن زوجته حملت أختي سوسن في معموديتها .

كان موسى «دقاقاً» ، أي نقاراً يصقل حجارة البناء . وقد طارت مرة شظية حجر يدقّه وأصابت زاوية إحدى عينيه ، وكادت تقضي على بصره فيها ، ولكنّه استرد بصره بعد ذلك بما اعتبره هو أعجوبة . وبقي في قلق دائم على عينيه . ورغم أنه كان أميّاً ، فقد كان له ولع بالسياسة ، ويتابع الأحداث مما يسمعه من

الآخرين ، ولا سيّما قرّاء الجرائد . وانتبهت إلى أنه صباح كل يوم أحد ، يذهب إلى الصلاة في كنيسة القيامة . فيتوقف في ساحتها حيث يتجمهر الرجال ويتحدثون في أمور الحياة ، وبخاصة في تطورات القضية الفلسطينية ، فيصغي إليهم ويناقشهم . فكان يشتري الجريدة ذلك الصباح ، ويقدّمها في الساحة لأي شاب يتوسّم فيه أنه يعرف القراءة ، ليقرأ له عناوينها وبعض فقراتها ، مع تأكيد على الافتتاحية . ويعود إلى البيت ، وقد طوى الجريدة بشكل مستطيل أدخل طرفه في جيب سترته ، فوق قنبازه «الرّوزا» ، بحيث يُرى الطرف الأعلى وقد ظهرت كلمة «فلسطين» ، التي هي اسم الجريدة ، وإذا رآني ، أو رأى أخي ، قدّمها لنا لنقرأ له بعض ما لم يقرأه له الآخرون .

قال لي يوماً : «أتعرف يا اشبيني ما هي أمنيتي في الحياة؟»

وقبل أن أحاول أن أحزر ، أردف : «أن أتعلّم القراءة! . . أحمل الجريدة لكي أوهم الناس أنني من قرّاء الجرائد . تصورا!»

قلت : «ولماذا لا تتعلم القراءة؟»

قال : «أخشى أن يقولوا عني : بعدما شاب راح عالكتّاب» .

قلت : «أولاً ، أنت ما زلت شاباً . وثانياً : أنا مستعد لتعليمك ، إذا رضيت بي» .

لم يصدّق ما قلته ، وقال : «بشرفك؟ أتظن إنك تستطيع أن تعلّمني على الأقل قراءة الجريدة؟»

قلت : «فلنجرّب ، ولنبدأ من اليوم . . . أين جريدتك؟»

ومنذ ذلك اليوم رحت أعلمه القراءة ، مستخدماً إلى جانب الجريدة ، كتاب ابنه الذي كان من تأليف خليل السكاكيني ، والذي يبدأ بـ «راس ، روس» ، «دار ، دور» . فكان سريعاً جداً في تعلّم الأوليات .

عندما تقدّمنا في نوع ما يقرأ ، وصرت أطالبه بالدرس في الليل ، جعل يتعاجز ، ويقول : «والله يا اشبيني ، أعود مرهقاً من دقّ الحجارة طوال النهار ، فلا تبقى فيّ طاقة على التركيز على شيء . . . ثم تدري ، عيناي ليستا على ما

يرام . . .»

كبحت طموحي معه ، واكتفى هو بأنه أضحى قادراً على قراءة العناوين الكبيرة من جريدته المحبوبة ، وقد يجازف ويقرأ الافتتاحية على خير ما يستطيع ، ويفهمها على طريقته ، ربما استنتاجاً وقراءة بين السطور ، أكثر منه إدراكاً لمعاني الجمل كلها . إنما المهمّ إنه بات يشتري الجريدة ، ويقرؤها هو لنفسه ، أو لعائلته ، دون اللجوء إلى الآخرين .

شيئان أساسيان لم تكن لنا القدرة على اقتنائهما حتى ذلك الوقت : كراسي (اثنان أو ثلاثة على الأقل) ، وساعة . أما الطاولة التي لا بد منها للدرس ، إن لم يكن لمآرب أخرى ، فكانت «طبلية» ، أو طاولة خشبية مستديرة ، منخفضة ، تعلو عن الأرض بقدر الشبر ونصف الشبر ، كأن أخي قد صنعها في بيت لحم في أول عهده بتعلّم النجارة تُركن في زاوية من الدار ، واقفة على حافتها ، وعندما تحين ساعة الطعام ، ندحرجها إلى وسط الغرفة ، ونقعد حولها . وعند الفراغ من الطعام ، تنظفها أمي وندحرجها عودة إلى ركنها . أما الآن ، فقد بتنا بعد العشاء ، وبعد تنظيفها ، نسحبها إلى طرف ، ثم ألقي عليها كتبي ودفاتري ، وأدرس وأكتب واجباتي ، وقد أرسم وأحاول كتابة القصة عليها كذلك . غير أنني كنت أستطيع أيضاً أن أكتب على طريقة النسّاخ القدامى ، بأن أقتعد الأرض ، وأرفع إحدى ركبتيّ وأسند عليها الدفتر ، وأكتب ، أو أرسم . أو أنني أتربّع وأجعل لوحاً عريضاً من الخشب على حضني ، كمنضدة ، أو أنبطح على الأرض وأكتب عليها مباشرة . بيد أن «الطبليّة» كانت هي الأفضل ، لأنني أستطيع أن أجعل عليها ، في الليل ، اللمبة البائسة ، التي تنير لي الصفحات ، كما تنير الغرفة ، في وقت واحد ، ويا ويلي من أمّي إذا رفعت الفتيلة بأكثر مما تراه هي مناسباً ، لأنها ستذكّرني بثمن الكاز الذي تستهلكه اللمبة كل يوم . . . ومتى يا رب ستنقذنا من «هذه العيشة» ، و «هذا السخام» . . . . إلخ .

لم تكن في جورة العنّاب شجرة واحدة أستطيع أن ألجأ إليها لأختلي بنفسي

مع كتبي . (ولكن جاء وقت ، فيما بعد ، أكتشف فيه حقلاً قريباً من منطقة الشمّاعة ، في المرتفع المشرف على الجورة من الناحية الغربية ، كانت فيه بضع زيتونات وصخور وأزهار بريّة ، فجعلت منه مكاناً لخلوتي) وقد ضاعفت جهودي في مدرستي الجديدة ، لأثبت للمدير ، والمعلمين ، أنني أستطيع مواكبة الصف ، رغم مجيئي من مدرسة يتعبرونها قروية وبعيدة ، ودون مستواهم ، فكنت في الليالي أجلس إلى طاولتي المنخفضة ، محاطاً بأفراد العائلة ، وبعض الضيوف من الجيران وغيرهم ، وأحاول الدرس في وسط اللغط والثرثرة والضحك ، وكأنني في عالم آخر . غير أنني أدركت أن لا بدّ لي ، إن أردت إتمام فروضي كلها كما ينبغي ، أن أنهض في إحدى ساعات الليل قبل الفجر ، والكل نيام ، لأدرس كما ينبغي الدرس . فقرّرت أن أنام مبكّراً ، في حوالي التاسعة أو بعدها بقليل ، لأنهض في الساعة الثالثة صباحاً ، لكي أستفيد من السكون في الساعتين أو الثلاث التي تسبق بداية النهار لجميع من في الحيّ .

ولكن لم تكن لدينا ساعة نستدلّ بها على موعد النهوض . فتبرّع أبي بأن يوقظني في الساعة التي أريد . ففي القدس القديمة دير مشهور ، هو دير «تراسانطا» («الأرض المقدّسة») ، قرب الباب الجديد ، له جرسية مخروطية عالية ، على كل من واجهاتها الأربع ساعة كبيرة دقّاقة تسمع في أرجاء المدينة كلها - وبالأخص في المناطق القريبة نسبياً ، وفي سكون الليل . إلاّ أن المشكلة كانت في أنها تدقّ الربع والنصف والثلاثة أرباع من الساعة ، دون أن تدقّ الساعة نفسها ، بالطبع ، إلاّ عند تمامها . فكان أبي يستيقظ في وقت ما من الليل ، ويخرج إلى الحوش ، وينتظر ، فتدقّ الساعة ربعاً ، ولكنه لا يعرف بعد أية ساعة هو الربع . فينتظر ليسمع النصف ، ثم الأرباع الثلاثة - وأخيراً تدقّ الساعة أرباعها الأربعة وتعلن الساعة الثانية . . . إذن عليه أن ينتظر ساعة أخرى . . . وكان يخشى النعاس في أثناء ذلك ، فيتمشى في الفناء ، ويشرب ماءً ، وهو لا يدخّن - إذ ربما لكان التدخين يروّح عنه ويخفّف عناء الترقّب - وينتظر ، مستذكراً أحداثاً من طفولته ، وشبابه ، وعذابات العسكرية الرهيبة التي عاشها في الجيش العثماني في الحرب

العالمية الأولى . . . إلى أن يسمع ساعة «تراّسانطا» تدقّ الثالثة . فيوقظني ، ويعود إلى فراشه . فأرشق وجهي بماء بارد ، وأغسل عينيّ ، ثم أنزل اللمبة من على الحائط إلى طاولتي ، ولا أرفع فتيلتها كثيراً لئلا أقلق نوم بقية أفراد العائلة ، وأدرس حتى الفجر ، وبعد ذلك أخرج إلى الحوش ، وأكمل الدرس جيئة وذهاباً فيه ، في ضوء أول النهار .

وفي أيام امتحان آخر السنة الدراسية ، كنت أنهض أحياناً في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، تحسّباً لبعض المواضيع . وهي طريقة في الاستعداد للامتحان انتهجتها طوال سني دراستي التالية . وتنفّستُ الصعداء في اليوم السابق لليوم الأخير من الامتحان ، وقلت لأبي : «هذه الليلة ، سأنام حتى الصباح . أيقظني ، إذا لم أنهض ، في الساعة السادسة» .

قال ضاحكاً : «لماذا؟ هل تعبت ، وبدأت تتكاسل؟»

قلت : «غداً امتحان الدين ، وأنا لست مطالباً به ، ولكن سأذهب ، لمجرد إثبات حضوري» .

كان معلم الدين هو المدير ، عارف البديري . ولضآلة عدد التلاميذ المسيحيين في الرشيدية ، لم يكن لهم من يعطيهم دروساً في الدين (على عكس ما كان يجري في المدرسة الوطنية في بيت لحم) ، بل كان يطلب اليهم أن يخرجوا إلى الملاعب في أثناء تلقين زملائهم دروس الدين الإسلامي . وكانت درجات الدين في الامتحانات الفصلية والنهائية لا تضاف إلى مجموع الدرجات الأخرى ، وبذلك لا تؤثر على رتبة التلميذ في الصف . أما الذين لا يقدّمون امتحاناً في الدين ، فتقدّر لهم درجات في هذه المادة بناءً على أخلاقهم وسلوكهم في المدرسة .

وكان عارف البديري مربّياً مشهوراً في مجال التربية والتعليم . وهو معنيّ جداً بأخلاق التلاميذ وسلوكهم ، وفي صرامته معهم لا يعرف اللين إزاء أي خروج على ما يضع من قواعد للجميع . وكان قصاصه شديداً ، بعضه الضرب بالخيزرانة على الكفّ ، أو على الأرداف . ولئن كان التلاميذ يحترمونه ، ويخافونه أشدّ

الخوف ، فإن المعلمين أنفسهم - كما رأيناهم - لم يكونوا أقلّ من التلاميذ احتراماً له ، وخوفاً منه .

ذهبت إلى امتحان الدين خالي البال ، وجلست كغيري على مقعدي في القاعة ، ورآني المدير فارغ اليدين بينما انشغل زملائي بكتابة الأجوبة عن الأسئلة المهيأة لهم . وبعد حوالي الساعة ، ضجرت من الجلوس في مكاني دونما كتابة . فانسحبت بهدوء من القاعة ، وعدت إلى البيت - غير واعٍ للغضب الذي سبّبته للمدير بفعلتي النكراء تلك .

وبدأت عطلة الصيف ، وأنا خليّ ، على الأقلّ ، من هموم الدراسة ، وواجباتها الليلية .

- ٢٠ -

لم أرَ المدرسة طوال عطلة الصيف ، ولكنني بقيت على اتصال ببعض رفاقي ، ولا سيما شريف الخضرا الذي كان يجمعني إليه حبنا للرسم ، فيزورني وأزوره في بيتهم في منطقة باب السلسلة في المدينة القديمة .

ثم ان عطلة الصيف لم تكن لي عطلة استراحة . فدارنا ، في جورة العناب ، هي أحدى الدور الكثيرة في وسط حي كان يجري تحويل بعضه إلى منطقة صناعية . على مقربة منا بركة السلطان ، مهربي الرائع ، وكانت ما تزال تحفظ شيئاً من تجمعات مياه الأمطار بين صخورها ، فأهرب إلى مياهها الزرقاء في أواخر النهار ، وكأنني أمخر عباب البحر . وعلى مشارفها سوق الجمعة ، التي تمتلئ أيام الجمعة بالناس ، وقطعان الأغنام والدواب والخيل ، والباعة والشراة . ولا أكاد أفوّت يوم جمعة دون الذهاب إليها مع شريف ، أو غيره من الصحب ، للتفرّج والرسم .

ولكن أقرب من السوق والبركة إلينا ، شارع يحاذي دارنا تقريباً ، صُفَّت على جانبيه حوانيت بُنيت حديثاً لأصحاب الحرف ، كل منها «ورشة» كاملة ،

معظمها من الحدادين ، الذين كان طرقهم المتواصل يملأ الحيّ ضجيجاً إضافياً طوال النهار . وكانت هناك منجرة ، أخذ أخي يوسف يعمل فيها . وفي أعلى الشارع مصنع صغير لسبّاك هو من المصانع النادرة في المدينة . تعرّف عليه أبي - وقد جعل يشغل نفسه ، رغم مرضه المتزايد ، بالتعامل بأنقاض الرصاص والزنك والنحاس - فعرّفني على صاحبه ، وكان اسمه بشارة . وإذا هو يقول لأبي : «لماذا لا ترسل ابنك هذا إليّ غداً ، فأعلّمه صنعة قلّ من يعرفها في هذا البلد؟»

واتفقنا على أن أعمل لديه ، ولكن لفترة عطلة الصيف فقط ، بأجر قدره قرشان ونصف القرش في اليوم ، أي خمسة عشر قرشاً في الأسبوع . وهكذا قضيت معظم أيام ذلك الصيف أصنع القوالب في الرمل النديّ ، وأشعل نار «الوجاق» الجحيمي لصهر الزنك والنحاس والحديد ، برفقة المعلّم بشارة وتابعه «البرنس» يوسف[1] .

أما المعلم فكان شاباً بارعاً في صنعته ، التي تعلّمها عن الألمان في ميتم يديرونه جعلوا منه معهداً صناعياً اشتهر في القدس باسم مؤسسة شنلّر . وبشارة قويّ البنية ، يتفجّر قميصه عن صدره العريض المشدود وعضلاته المفتولة . وهو إذا وافقه المزاج ، سريع دؤوب في عمله ، ولكنه قد لا يتحمّس للعمل بعد ليلة من السكر ، فيقضي النهار بين قوالب الرمل والأكداس المعدنية في حالة خمول وضياع . والبرنس الكهل (الذي كان يلذّ له أن يروي كيف اكتسب لقب الإمارة في أيام من «العز» قضاها في شبابه في القاهرة) يستجيب ذهنياً وجسدياً لحالة معلمه : يتنشط إذا تنشّط ، وينصرف إلى الثرثرة وأحلام اليقظة ، إذا خمل معلمه

(١) يجد القارئ في قصتي «الغرامفون» المنشورة في مجموعتي «عرق ... وبدايات من حرف الياء» الكثير من التفاصيل الدقيقة التي لن أكررها هنا بصدد هذه الفترة من حياتي ، كما أن فيها خلقاً لبعض الجو الذي عشناه آنئذ .

واستلقى على الرمل . . . وأحاول أنا أن أستفيد من وقتي بين هذين الاثنين ، على خير ما يمكنني أن أستفيد .

كان عمّ بشارة هو صاحب المسبك الحقيقي ، وهو يتردد علينا كل يومين أو ثلاثة ، ليتعامل شخصياً مع العملاء وأصحاب المصالح . وجلّ ما يخشاه هو أن يسلّم ابن اخيه الأعمال المنجزة للزبون ويقبض الثمن بنفسه ، لأن بشارة لن يضيّع ساعة واحدة في الذهاب إلى مكان من اثنين : إما الخمّارة التي له فيها أصدقاء شُربٍ في انتظار نقوده ، وأمّا عند امرأة معينة ، يريد الزواج من ابنتها ، وينفق عليها ما يكسب - أو ما يوفّره بعد نفقات العرق - دون حساب ، ودون نتيجة . وقد يأتي العم ، بشعره الأشيب ، وبدلته الأنيقة ، إلى المسبك ، ولا يجد بشارة في مكانه . وفي الحال ينصرف ، بحثاً عن هذا «الابن الضالّ» الذي لا يرعى لعمه ذمّة! وأكثر من مرة رأيته يعود به إلى الدكّان ، وبشارة يتمايل ، ويشحط قدميه ، أحمر العينين ، لا يَرى طريقه ، وعمّه ينهره ويدفعه دفعاً باتجاه أكوام الرمل ، فيقع بشارة على وجهه ، ولا ينهض . ونداريه أنا والبرنس ، وقد غادرنا العم ، والبرنس يقول ماكراً : «آخ على سكرة مثل هذه!» ويبقى المعلم على ذلك الحال ، بعد أن نترك المسبك ، طيلة الليل ، وحتى الصباح التالي عندما نعود ، فنلقى أمامنا ساعتئذ شاباً تنشّط من جديد ، يحلق ذقنه ، ويغسل رأسه ووجهه بالصابون ، وحالما يتنشّف بخرقة بالية ، يعود إلى مرحه وهمته ، ويقول : «يلاّ يا جماعة! عندنا اليوم شغل كثير!»

أما البرنس ، فكان أسوأ حالاً من معلمه ، لأنه لم يكن له من يتابع نزواته ، ويجبر عثراته . كانت ثيابه البالية ملوّثة بحيث لا يُعرف لها لون . وكانت المِزَق التي يسمّيها بنطولناً ، متصلة بعضها ببعض بأعجوبة - ولكنها لا تفلح دائماً بتغطية عورته . غير أنه حلو الكلام ، عذب الصوت ، رغم كل أقماع السكاير التي يدخنها . إذا غنّى ، أصغينا إلى غنائه ، بل قد يجيب أحد الحدادين في الدكان المجاور : «الله ، الله!» فيمدّ يوسف صوته بموّاله لتسمعه الورشات كلها ، وقد كفّت يداه عن العمل . وحتى بشارة نفسه قد يقول له في تلك اللحظات : «دينك!

ربّك! ما أروعك!»[1] .

مرت أيام الصيف وأنا في انتظار وصول الشهادة المدرسية بالبريد ، كما وعدت الإدارة ، ولكنها لم تصل . وانتهى شهر تموز ، وكاد شهر آب ينقضي ، ولم تصل . وداخلتني شكوك من كل نوع : فقد رأيت شريف وأطلعني على شهادته ، وهو ناجح «يرفَّع إلى الصف السادس» . ربما لم أنجح أنا ، فلم تُرسل إليّ الشهادة؟ أو أنها ضاعت في البريد؟ من المحتمل أن العنوان الذي أعطيته للإدارة لم يكن صحيحاً؟ لم يكن لي إلا الانتظار حتى انتهاء العطلة ، وبدء موسم الدراسة الجديد ، الذي أخذت أتهيأ له بالقروش القليلة التي سُمح لي باقتطاعها من أجور كل أسبوع .

لفت نظري في تلك الآونة رجل يمرّ بمحاذاة المسبك بين حين وحين ، لا يمكن أن تغفل عنه العين إذا ما مرّ ، فهو طويل القامة ، جميل اللحية ، مهيب الطلعة ،

---

(١) أراني هنا مدفوعاً إلى ذكر ما جرى لبشارة بعد ذلك بسنوات قلائل ، وكان قد أغلق مصنعه الصغير ، وما عاد يزورنا في البيت ، واختفى من الحي . في أوائل عام ١٩٣٩ ، في طريق عودتي من المدرسة البكرية التي عملت فيها تلك السنة ، جابهني متسول في باب الخليل ، مدّ يده إليّ كأنه يعرفني . واذا هو بشارة ، في قنباز عتيق ، ثقيل الحركة ، وقد شدّ صدغيه وذقنه بعصابة ملوثة ، شاحب اللون ، غير حليق ، زائغ البصر ، يكاد يعجز عن النطق . صُعقت ، وقلت له : «ما هذا يا بشارة؟» فتمتم : «شايف يا معلمي ، شايف؟» قلت : «تشحد؟ مش معقول!» قال «وكيف أعيش؟ عمّي أعطاك عمره .» قلت : «والمسبك؟» قال : «راح من زمان . . .» أفرغت في يده الممدودة ما بجيبي ، ولم يكن كثيراً ، وأنا أحاول كبح بكائي . ورأيت عينيه المريضتين تفيضان بالدمع ، وهو يقول : «الله يرزقك يا معلمي! الله يرزقك!» وشحشط بقدميه وانصرف . وبعدها بأيام تقصدت رؤيته في باب الخليل ، فلم أعثر عليه . ورأيت متسولاً أعمى كان له مقرّه في بقعة هناك . ذهبت إليه وسألته عن بشارة . فقال : «بشارة السباك؟ مات المسكين . الله يرحمه . بيقولوا مات سكران . الله يرحمه ويرحم والديك» .

يعتمر بعمامة خضراء ، ويرتدي عباءة سوداء فضفاضة ، يزمّ الصدر منها بيد بينما يتوكأ بالأخرى على عصا معقوفة ، يلتمع مقبضها المعدنيّ المقوّس كأنه من الذهب . وهو يمشي عالي الرأس ، مرفوع الصدر ، مشيةً كلها ثقة بالذات ولا تخلو من خيلاء .

كان أبي صدفةً معنا في الدكان ، في صباح يوم حار ، حين مرّ لابس العمامة ، وانحدر في الطريق . فسألنا عنه جارنا الحداد أبو العبد ، فقال : «هذا نور الدين الفلكي الروحاني . إنه يسكن بجوارنا ، وفوق باب داره لافتة كبيرة ، لا بد أنكم رأيتموها» .

وبالفعل ، على مقربة من المسبك ، في منحدر مجاور ، كانت هناك مجموعة من البيوت المختلفة الأشكال ، تعلو أحدها لافتة كبيرة بعرض واجهة الدار ، كتب عليها «نور الدين الفلكي الروحاني» ، والكلمات محاطة بهلالين كبيرين ، مع نجمة إلى اليمين ، وأخرى إلى اليسار .

وقد أردف أبو العبد : «يكشف المستقبل ، ويشفي الأمراض العصبية ، ويوفّق بين القلوب ، ويجعل المرأة العاقر تلد توائم!»

ثم رمق أبي ، وحركته الثقيلة بسبب مرض الباركنسون ، ويده في ارتجافٍ ، فقال له : «جرّب حظك معه يا أبو يوسف ... والله لو كنت مكانك ...»

نظر إليّ أبي ، وقال متردداً : «ما رأيك؟»

قلت بجرأة : «يابا ، أنا لا أؤمن بالخزعبلات» .

فضحك أبو العبد ، قبل أن يلتقط مطرقته الثقيلة ، وقال : «يا رجل ، أتستشير الطفل في أمور كهذه؟»

وعدت إلى عملي ، وانصرف أبي إلى شأنه .

بعد يومين أو ثلاثة ، جاء إلى البيت فرحاً ، وقال إنه سيُشفى بعد شهر أو شهرين ، أخيراً ... لقد راجع الفلكي الروحاني ، فطمأنه ، وبشّره بالشفاء . وكتب له حجاباً - وأرانا إياه ، وقد علّقه حول رقبته ، في غلاف جلدي أسود يكاد يلتصق بصدره عند القلب . وأعطاه دواءً نادراً ، لن يجد مثله في أية صيدلية .

وأخرج من جيبه زجاجة صغيرة ، فيها حبوب خضراء ، تتناول منها واحدة ، وفاحت منها رائحة المنتول الشبيهة بالنعنع . فرحنا معه للحظتين ، ولكن أخي يوسف اختطف الزجاجة من يد أبي ، وأفرغ حبوبها في يده . وإذا هي من نوع «الباستيل» الهلامي ، وهي حبوب قد يتناولها المصاب بالزكام ، تخفيفاً عن التهاب الحنجرة الذي قد يرافق الزكام . وكان يوسف قد اشترى مرة علبة معدنية فيها حوالي عشرين حبة منها بخمسة قروش من الصيدلية . فسأل أبي : «يابا ، إحك الصدق . كم قرشاً أخذ منك هذا الطبيب الفلكي؟»

أجاب أبي : «ثلاثة جنيهات» .

فصاح يوسف : «ثلاثة جنيهات؟! كلّنا نعمل كل يوم ولا يدخلنا ثلاثة جنيهات في الشهر! هل جننت؟»

قال أبي : «ولكن هذا دواء لا يوجد مثله في البلد . ثم ان الفلكي رجل فاهم ، ويريد أن يخلّصني من هذا العذاب . . . أتستكثر هذا المبلغ على أبيك؟»

فقال يوسف : «يابا ، يا حبيبي . لو كان سيشفيك ، لقدّمت له روحي فداءً لك . ولكن ألا ترى أنه نصّاب ، يستغلّ عذابك وحالتك النفسية؟ يلاّ معي . . . سنذهب إليه معاً ، ونرمي سكّرياته في وجهه . فإذا أعاد الجنيهات الثلاثة ، كان بها ، وإلاّ فإنني والله سأشبعه ضرباً ، وأفضحه أمام جميع الناس . . .»

وفي الحال استصحب أخي أبي ، وخرجا للمجابهة ، ولحقت بهما . وانتظرت عند رأس المنحدر (بطلب من أبي ، «لكي لا نكبّر المسألة أكثر مما ينبغي») ، ريثما نزلا كلاهما إلى باب الفلكي ، وقرعاه . وخرج إليهما صاحب الدار بنفسه ، مرتدياً العمامة والعباية ، على أهيب ما يكون . وسمعت لغطاً ، لم يطل . لا بد أن الفلكي لم يكن مستعداً لمواقف من هذا النوع ، إذا رأيته يخرج شيئاً من عبّه ، ويسلّمه ليوسف . . . لقد أعاد الجنيهات الثلاثة ، ورجعنا إلى البيت «ظافرين» . واستعدنا حكاية الكيّ بذلك المفتاح الرهيب ، وحكايات أخرى كانت بعضاً من يأس أبي ، وتشبّثه . وفي لحظة غضب وقهر ، نزع الحجاب الذي حول عنقه ، وألقى به على الأرض .

تناولته ، وحاولت فتحه في الحال . فلم أفلح . أتيت بمقصّ ، وقصصت حاشيته ، وأخرجت منه السحر الحلال الذي وُعد به أبي : ورقة بيضاء بحجم الفولسكاب ، رسمت عليها مربّعات - حوالي الأربعين مربعاً - وفي كلّ مربع حرف ، أو نجمة ، ولا تتصل الحروف بما يوحي بأي معنى . كنت آمل أن تكون آية الكرسي ، على الأقل ، ولكن الفلكي الروحاني كان أبرع من أن يخطّ آيات كريمة يعرفها الجميع ، أما الحروف والنجوم ، ففيها تعمية ، وفي التعمية يكمن السحر . . . ولا ريب أنه سيقول ، لو أخبرناه بما فعلنا ، إن السحر إذا انكشف سرّه ، بطل مفعوله .

يئستُ من وصول الشهادة ، وحالما عرفت من شريف أن المدرسة فتحت أبوابها ذلك اليوم ، نهضت مبكّراً صباح اليوم التالي ، وأفطرت مع أخي ، وأسرعت إلى المدرسة ملهوفاً ، كأنني على موعد مع شخص حبيب .

في الملعب التقيت زملائي ، وكلّنا فرح باللقاء بعد غياب أشهر الصيف . ودُقّ الجرس ، واصطففت في الردهة مع رفاقي الذين كانوا سيتوجهون إلى غرفة الصف السادس . ولما بدأنا بالتحرك وصعود الدرج إلى الصفوف ، بإشراف من المدير عارف البديري وبعض المعلمين ، أشار اليّ بأن أتجه نحوه ، ففعلت . وقال : «اصعد إلى غرفتي ، وانتظرني» .

وجدت في الغرفة آخرين واقفين ينتظرون المدير . ولم يطل غيابه ، إذ جاء مسرعاً ، ومعه شاب أجلسه على كرسيّ قرب منضدته . ولسبب ما ، وجّه كلامه أولاً إليّ ، وبحدّة زعزعتني فوراً ، إذ قال : «جبرا ، أنت لا مكان لك عندنا . عد إلى بيتك» .

صُعقت ، ولم أتزحزح من مكاني .

فأعاد : «قلت لك ، لا مكان لك عندنا . تفضّل اخرج» .

بصوت مبحوح مضطرب ، قلت : «ولكن لماذا ، يا أستاذ؟»

فالتفت إلى الشاب الذي على يمينه ، وقال : «نجيب ، أفهمه . أفهمه أن الذي

يتصرف كما تصرّف هو ، لا يستحقّ مكاناً في مدرستي» .

أحرج نجيب ، وقال لي بلطف شديد : «آسف . سمعت ما قاله أبي . تفضّل وعد إلى بيتك» .

غير أنني أصررت على موقفي : «ما الذي فعلت؟»

وتصورت أنني ارتكبت جريمة نكراء أخفيتها عن الناس ، ثم انكشفت . وهذا هو العقاب . ولكنني لم أذكر أنني أتيت أمراً أعاقب عليه بهذه الشدّة .

استدار نجيب نحو أبيه وقال بما يشبه الهمس : «ماذا فعل؟»

قال : «في اليوم الأخير من أيام الامتحان-» ثم نظر إليّ ، وأردف : «تتذكر؟»

قلت : «نعم . جئت إلى القاعة ، مع أنني لم أكن مطالباً بالامتحان» .

قال : «كلام فارغ! لم تكن مطالباً بالامتحان ، ولكن كنت مطالباً بالبقاء في مقعدك إلى أن ينتهي زملاؤك من امتحانهم» .

قلت : «ولكنني بقيت ساعةً تقريباً»

فقال غاضباً : «أتعدّ الدقائق معي؟ كان يجب أن تبقى حتى النهاية . ولكنك هربت . . . تفضل الآن ، وعد إلى بيتك . . .»

طردني لأمر لم أستطع أن أرى فيه أي وجه للحق . وخرجت من المدرسة مجروحاً ، مضروباً في أعزّ ما أحبّ . وعدت إلى البيت ، وأنا لا أعرف كيف أعود إليه . والأفكار تتنازعني : هل هذه نهاية المدرسة لي؟ أأعود إلى المسبك ، فيرحّب بي بشارة والبرنس؟ لا ! أعود إلى مدرستي في بيت لحم . يحبّني المدير هناك ، وكذلك المعلمون . سيفرحون لعودتي . ولكن كيف أذهب إلى بيت لحم وأعود منها كل يوم؟ بالباص ، طبعاً . وذلك سيكلّفني قرشين اثنين يومياً ، قرشين! من أين لي ذلك المبلغ؟ سأمشي كل يوم ، ذهاباً وإياباً . . . حسبت المسافة : ثمانية كيلومترات ، زائداً كيلومتر آخر على الأقل من طرف البلدة حتى المدرسة ، مضروبةً في اثنين . ثمانية عشر كيلومتراً ، كلّ يوم .

ما كدت أنزل درج الحوش وأدخل غرفتنا ، حتى انطرحت أرضاً ، وانخرطت في بكاء عنيف لا أقدر أن أكفّ عنه . تجمّع حولي أبي وأمي وجدّتي يريدون

معرفة السبب . فقلت لهم : «طردني المدير من المدرسة . . . أريد أن أعود إلى بيت لحم» .

وبعد إلحاح أبي بالأسئلة ، ذكرت له ما قاله المدير . وإذا هو في الحال يأخذ عصاه ، ويخرج .

ما الذي كان بوسع أبي أن يفعل؟ لو أن الأمر يتعلّق بإطارة تهاوت إلى أعماق الوادي ، لنزل إليها ليسترجعها ولو كانت في أعماق الجحيم ، إذا كان في استرجاعها إنقاذ لي من ورطة . ولكن الأمر الآن يتعلّق بقضية أصعب بكثير : هناك نُظُم وقواعد يبدو أنني خرقتها ، وهناك إرادة رجل يرهبه الجميع ، ولا يلين لأي منطق . فما الذي بوسع أبي أن يفعل ؟

توجّه نحو راهب شاب ، اسمه الراهب بطرس صومي[١] ، يقيم في دير مار مرقس في المدينة القديمة ، معروف بشجاعته الأدبية ولسانته . وقد كان في الأصل من زملاء أخي مراد أيام كان يدرس في الدير . ولم يتردّد الراهب بمرافقة أبي إلى المدرسة الرشيدية ، والدخول على المدير . فاستقبلهما بترحاب وبشاشة . ولما جلسا ، قال الراهب : «صديقي هنا ، يا حضرة المدير ، له عندك ظلامة . وأنا لا أشك في أنك ستنصفه» .

لم يعرف الأستاذ البديري من صديقه هذا ، حين قال له : «تفضل» .

فقال أبي : «نحن أخطأنا ، ومنك السماح» .

قال المدير : «تفضل وتكلم» .

فكرر أبي : «نحن أخطأنا ، ومنك السماح» .

قال المدير ، نافذ الصبر : «فهمنا ، مولانا . تفضّل واحكِ لي حكايتك» .

---

(١) استشهد هذا الراهب في أواخر شهر أيار من عام ١٩٤٨ في أثناء القتال العنيف الذي جرى داخل أسوار القدس ، والذي انتهى أيامئذ بأن قضى المجاهدون والجيش العربي على القوة الصهيونية المقاتلة في المدينة القديمة ، وأخرجوا اليهود منها .

قال أبي : «لي ولد عندكم اسمه . . .»

فقاطعه المدير : «نعم ، نعم . أعرف القصة . أعدته إلى البيت هذا الصباح» .

قال أبي : «كأنك قتلته ، وقتلتني ، يا حضرة المدير . . . وأنا كما ترى . . .»

صمت أبي ، ولم يجب المدير وهو يتأمل أبي . وفجأة قال : «يا سيد إبراهيم ، أفحمتني . أنت رجل طيّب . ومن أجل طيبتك ، سأعفو عن ابنك . أرسله إليّ حالما تعود إلى بيتكم» .

قال أبي ، وقام الراهب ، وكلاهما يلهج بشكره وهو يصافحه مودعاً ، غير أنه قال لأبي : «أبداً ، أبداً ، يا رجل ، إنني فخور بأن أرى رجلاً في مثل حالك يصرّ على تعليم ولده» .

وفي ذلك الصباح بالذات ، وقد عاد إليّ أبي يخبرني بما جرى ، رحت راكضاً طوال الطريق ، لأبلغ المدرسة مبهور النَّفَس قبل أن ينتهي الدوام الصباحي . ورأيت المدير في الردهة العليا يتحدث إلى بعض المعلمين . فبادرني على الفور قائلاً ، وهو يهزّ بأصبعه في وجهي : «والله : لولا والدك الطيّب ، لما غيّرت فكري!»

قلت : «شكراً ، أستاذ» .

قال : «لا تشكرني . أشكر والدك . أسرع إلى صفك» .

فدخلت الصف ، غير مصدّق بأنني لست في حلم ، وأجلسني المعلم - وكان إبراهيم طوقان - قرب طالب جديد لم يكن معنا في الصف الخامس ، اسمه موسى السعودي . وجاءت دهشتي الكبرى ،عندما دخل المدير ، وقام له الطلاب احتراماً وجلسوا ، واقترب مني وبيده ورقة مطوية ، وقال : «هاك شهادتك» وخرج .

بأصابع مرتعشة فتحت الورقة ، خائفاً مما قد أرى . وإذا أنا الثاني في العربية ، والأول في الإنكليزية ، والثاني في الرياضيات ، والأول في التاريخ . . . ورتبتي في الصف ، الثاني . . .

لشدّ ما كانت أختي سوسن ، وأنا في مستهلّ الثالثة عشرة ، متعلّقة بقطّتنا «فلّة» ، التي عاصرت نموّنا ، وأحضرناها معنا من بيت لحم ، وأنقذناها أكثر من مرة

من أيدي قساةٍ لم يريدوا لها الحياة . وبعد قضائنا بضعة أشهر في جورة العنّاب ، اختفت فلّة ذاتً يوم ، ولم نعرف ما الذي جرى لها . عدت إلى المدرسة ، ورأسي مليء بالأصداء من أبيات قرأها لنا إبراهيم طوقان على طريقته الرائعة من مسرحية أحمد شوقي «مجنون ليلى» ، عن ليلى والظبي ، في الفصل الأول منها . كانت المسرحية (أو الرواية كما كان قد سمّاها أحمد شوقي ، وكما كان الناس ما زالوا يسمّون أية مسرحية») قد نُشرت في العام السابق ، ووصلت حديثاً إلى القدس . وإبراهيم طوقان ، بشاعريته ، ورقته ، وسخريته الطيبة ، من دأبه أن يحوّل ساعة تدريس العربية إلى ساعة من السحر ، ولا يلتزم بالكتب أو المواد المقرّرة . وكانت «رواية» مجنون ليلى في يده دائماً ، مع كتب أخرى ، كلما دخل الصف في تلك الأيام الأولى من السنة الدراسية وراح يقرؤها علينا ، في حصص متتالية ، مشهداً مشهداً .

رأى قيسٌ على را
بيةِ ظبياً فناداهُ
فألقى الظبي أُذنيه
ومسَّ الأرض قرناهُ . . .
على فيه من العشب
بقايا صبغت فاهُ
رأى في جيده قيسٌ
وفي عينيه ليلاهُ
فبينا هو في الشوق
وفي نشوة ذكراهُ
حبا الذئب من الوادي
إلى الظبي ، فأرداهُ
تغدّى بحشى الظبي
غداءً ما تهنّاهُ

رمـــاه قـــيـس في المقـــتــ
ــل بالســهم ، فــأصــمــاهُ . . .

كانت هذه الأبيات تتردد في ذهني ، وما كان أسهل حفظها! عندما بلغت البيت ، رأيت سوسن (وكانت تقارب يومئذ الرابعة) وأخي عيسى قاعدين على عتبة مدخل البناية في انتظاري ، ليخبراني بأن «فلّة» قد ضاعت . ورحنا نبحث عنها في الحي ، وما كنا لنخطئها بين ألف قطة . وسألنا عنها الجيران ، وعابري السبيل . وتلوت على أخي وأختي ما تذكرت من أبيات ليلى والظبي ، فلم يزد ذلك سوسن إلاّ حزناً على قطتها ، وعدنا وهي تبكي على فلّة الضائعة ، وأنا أقول لها أنني سأكتب يوماً قصيدة عن «سوسن والقطة الشاردة» .

بعد يومين أو ثلاثة ، أفقنا من النوم في الصباح الباكر على صوت فلة وهي تموء مواءها الجميل وراء الباب المغلق . وفتحنا لها الباب ، لتحملها سوسن على صدرها ، وتبكي هذه المرة فرحاً لعودتها .

بيد أن تلك الفرحة لم تطل . لأن فلّة أخذت تبدي أعراض المرض بحركتها الثقيلة ، وغياب شهيتها للأكل ، وهي التي كانت تأكل حتى الخيار والبندورة من أيدينا ، ويوم استيقظنا لنراها منطرحة ميتةً قرب الباب ، كان يوم حزنٍ لنا جميعاً ، ولسوسن على الأخص . ولم يفد بكاؤها ، ولا دموعها . وباتت ، وهي في سنتها الرابعة تلك ، غاضبةً لا تفهم معنى هذا الحدث . لماذا تموت فلة؟ لماذا؟ لماذا؟

قالت أمي : «كبرت المسكينة . ماتت من الشيخوخة . أتدرون كم سنة عمرها؟ أتدرون كم فأراً أكلت ، وكم جرذياً قضت عليه في حياتها؟ بالمئات . . .»

وحبّاً لسوسن ، واستجابةً لرغبتها ، وضعنا القطة الميتة في علبة كرتون ، وخرجنا بها إلى أعلى التلة الصخريّة التي كانت تواجه مدخل بنايتنا ، ودفنّاها في حفرة ، ورصفنا فوقها الحجارة .

وكثيراً ما كانت سوسن تردّد بعد ذلك ، فنردّد أنا ويوسف وعيسى معها ، وقد تحولت القطة إلى الظبي ، أو تحوّل الظبي إلى القطة :

حفرنا القبر للظبي

وقمنا فدفنّاهُ

وصلّينا على الميتِ

وبالدمع سقيناهُ

فقولوا، ولتقل ليلى

معي، يرحمه الله!

- ٢١ -

وهكذا دخلت سنتي الثالثة عشرة ، ووقفت على عتبة الكشوف التي سوف تتحقق سراعاً في السنوات القليلة التالية ، سنوات المراهقة . كانت هناك مدينة القدس الجميلة ، أكتشفها حيّاً حيّاً ، وحجراً حجراً ، القديمة منها والجديدة ، تاريخها وحاضرها . وكانت هناك المجلات المصرية تأتينا كلّ أسبوع بالمعرفة والفكاهة وصراعات القاهرة السياسية ومعاركها الأدبية . وكانت هناك الكتب نستحصلها بالمشقة ، والحيلة والتضحية : السّير القديمة ، والقصص ، والروايات ، ودواوين الشعر ، والتواريخ . وكان هناك الأساتذة الجدد يعودون من جامعات العالم ويضخّون فينا عشق المعرفة . وكانت هناك الفتيات الشهيّات جعلت أراهنّ في كل مكان كالسائرات في حلم لا آخر له . أم أنني أنا الذي كنت معهن كالسائر في حلم ، وأحرم من النوم ، فأكتب الرسائل الطويلة محاولاً أن أزاوج بين الحلم والحقيقة ، دون جدوى؟

وكان هناك الرسم بالقلم والألوان المائية ، يجعلني أرى الناس والأشياء بحدّة ووهج . وكانت هناك الموسيقى : العود والغيتار والكمان ، أعلّم نفسي العزف على

كل منها حتى الحدّ الذي لا أستطيع تخطّيه ، لأن ليس لي من يعلّمني ، ولكنني بقيت مع الأكورديون الذي اشتراه يوسف بأقساط صغيرة ، وفتح لنا عالماً من الصخب والمرح . ثم كانت الأسطوانات الكلاسيكية ، والهوس ببيتهوفن جاءني معظمه عن صديق كان أبوه كاسباً متجوّلاً يحمل على صدره طيلة النهار صندوقاً كبيراً من زجاج ليبيع ما فيه من «الشاميّة» في مخروطات ورقية ، أما صديقي فيعمل صائغاً عند جواهري أرمني في المدينة القديمة ، ولكنه تعلّم أصول الموسيقى وبرع فيها ، وجعل يعزف ألحاناً لبيتهوفن (عن المدوّنات الموسيقية) على الكمان ، محركاً أنامله الطويلة الرهيفة على الأوتار بدقة وسرعة كمن لا يشبه البشر ، ويتصوّر أن روح بيتهوفن تقمصت فيه ، لأنه يشبهه وجهاً ، ويجمع كتباً عنه لا يستطيع أن يقرأ منها إلاّ أسطراً قليلة لأنها بالإنكليزية . . . .

وكانت هناك الكلية العربية ، بعميدها الأستاذ الكبير أحمد سامح الخالدي- الجهوريّ الصوت ، القويّ الحضور ، الذي جعل من نظرياته في التربية طريقة في الحياة ، فلا يرضى من تلاميذه إلاّ بالمزيد من المعرفة والنبوغ كمبدأ وطني لا هوادة فيه ، ولا سيما في موقع الكلية الجديد على جبل المكبّر المفتوح على الكون ورياحه الأربع ، حيث كنّا نطالع وندرس بشغف وإلحاح طوال النهار ، ثم طوال الليل ، حتى المرض . . . وهو الذي اختارني أخيراً لكي أرسل في بعثة للدراسة في الخارج .

وكان هناك الوعي السياسي المتزايد ، والمظاهرات ، وإضراب عام ١٩٣٦ ، والثورة التي استمرّت حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية بعد ذلك بسنوات ثلاث . وكانت هناك المشاوير الطويلة ، والسير أميالاً كل يوم بلا كلل ، لأن منازلنا لا تقوى على استيعاب حواراتنا الفائضة المتفجّرة ، التي لا تكاد الدنيا أن تسعها . . . .

وكان هناك الحزن المدمّر الذي فاجأنا في عام ١٩٣٨ بموت أختي وهي في التاسعة من عمرها ، بشعرها الكستنائي المسترسل كشعر الملائكة على كتفيها وصدرها ، وبشرتها الأشبه بأوراق الورد في صباح نديّ ، فلم يستطع حتى الموت

اختطاف الحمرة من خدّيها وشفتيها . . . .

ثم كانت بدايات الكتابة وبدايات الترجمة ، بلذائذها ومشاقّها . وكان هناك أيضاً العمل في التدريس بضعة أشهر في مدرسة ابتدائية بائسة ، والتهيؤ بعدها للسفر في بعثة إلى إنكلترا . . .

تلك ، وكثير غيرها ، قصص من هذه السيرة الذاتية تقتضي الأناة في السرد ، والوقفات الطوال مع مُتعات وتباريح ونشوات هيأتني لغربة طويلة وانقلاب كبير في أساليب الحياة في انكلترا الخضراء ، الضاجّة يومئذ بقنابل الحرب ، وصيحات الطلاب الكثيري الحركة والشرب والجدل ، والطالبات البراقات العيون العريضات الشفاه ، وصراخ الكتب التي رحت أشتريها بالعشرات ، ذلك الصراخ الذي عايشته سنوات يوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة ، مع صراخ داخلي كان يشتدُّ بي آناً حتى البكاء والجنون وآناً حتى الصمت والذهول .



تصميم الغلاف: نجاح طاهر

البئر الأولى هي بئر الطفولة. إنّها تلك البئر التي تجمّعتْ فيها أولى التجارب والرؤى والأصوات؛ أولى الأفراح والأحزان والأشواق والمخاوف التي تنهمر على الطفل، فأخذ إدراكُه يتزايد ووعيه يتصاعد لما يمرّ به كلّ يوم، ويعانيه بعذابٍ أو يتلذّذ به.

يتابع المؤلّف طفولته منذ وعيه الأوّل في سنّ الخامسة حتى يكمل السنة الثانية عشرة من عمره، ويستمرّ باستقصاء هذه الكينونة، التي تتنامى مع الأيّام وعيًا ومعرفةً وعاطفة، وهي تحيا براءتَها وتتشبّث بها، بينما البراءة تزايلها.

وهذه الكينونة إنما هي جزءٌ من محيطها: إنها بعض بيوت تلك البلدة الفلسطينية الصغيرة «بيت لحم» في العشرينات من القرن الماضي، وقد دأبتْ تستيقظ تاريخيًا مرّة أخرى بعد السُّبات العثمانيّ الطويل؛ وهي بعضُ تلك الأشجار والوديان والتلال، بعضُ الشموس والأمطار والوجوه والأصوات التي بها تحيا، وبها تكتشف القيم والجمال والفرح والبؤس جميعًا.


ISBN: 978-9953-89-108-8




دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت